محمّد جبعيتي

رواية

غاسل صحون يقرأ شوبنهاور

مكتبة ٥٦١

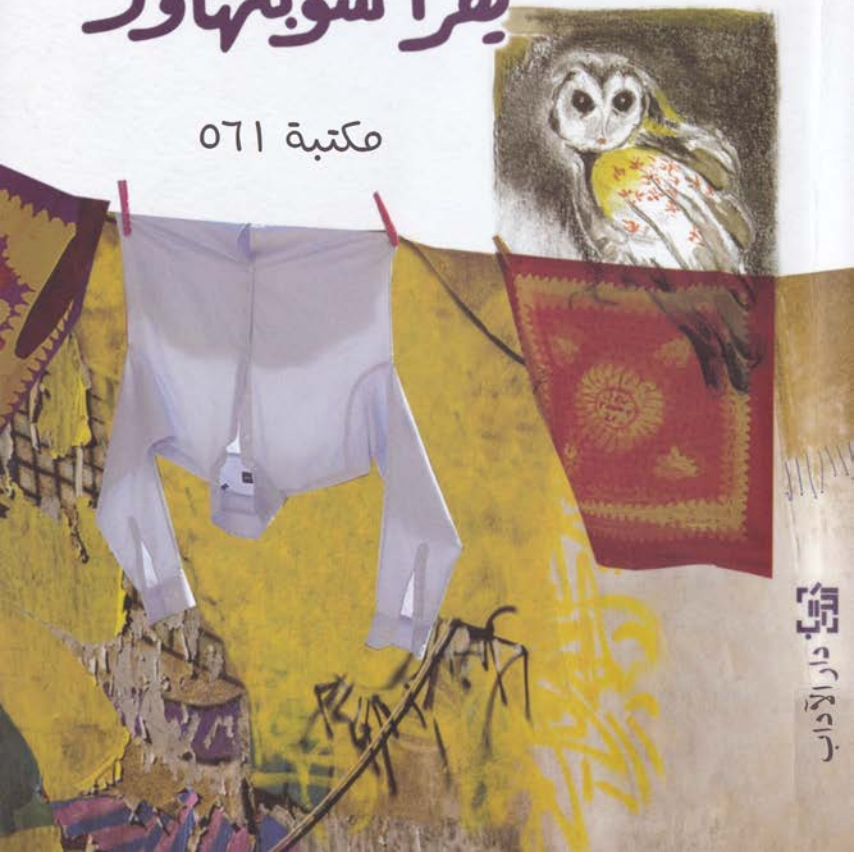

دار الآداب

مكتبة 561

غاسل صحون يقرأ شوبنهاور

غاسل صحون يقرأ شوبنهاور

محمَّد جبعيتي / روائيّ فلسطينيّ

الطبعة الأولى عام 2019
ISBN 978-9953-89-609-0

مكتبة
t.me/t_pdf

دار الآداب للنشر والتوزيع

e-mail: rana@daraladab.com
info@daraladab.com

Daraladab

@DarAladab

daraladab.com

محمّد جبعيتي

غاسل صحون يقرأ شوبنهاور

مكتبة | 561

رواية

دار الآداب

الإهداء

إلى الوحيدين في هذا العالم، الذين لا يعنيهم الفرح؛

إلى العمّال الذين ليس لديهم الوقت لإراحة أجسادهم، والنظر إلى وجوههم في المرآة؛

إلى المهمَّشين والآباء العاطلين عن العمل، والأمّهات الهزيلات من الشقاء، والمتخرِّجين حديثًا من الجامعات؛

إلى الذين ليس لديهم صفحات على الفيسبوك، لأنَّ حياتهم ملتصقة بتراب الواقع؛

إلى كلِّ امرأة تعتقد أنَّها ليست جميلة، وإلى كلّ رجل ليس لديه عضلات مفتولة؛

إلى الذين يخافون العتمة؛

إلى الذين يكتبون عن الفودكا، ولا يملكون ثمنها؛

إلى العاديِّين جدًّا؛

أحبّكم، وأنتظركم في حياة لا شقاءَ فيها؛ لا حربَ فيها؛ لا حزنَ فيها؛ لا جوعَ فيها.

أعرف أنَّ بعض الأشياء تبدو مستحيلة، لكنَّها تمنحنا العزاء، مثل هذه الأمنية.

إليكم أهدي هذا الكتاب.

إلى القارئ

١. لا تتعاطَفْ مع الشخصيَّة الرئيسة أو الكاتب، لأنَّ التعاطف، من وجهة نظرهما، هو أسوأُ شعور إنسانيّ. إنَّه تصريح غير معلَن، عن شعورك بالتفوُّق؛

٢. إذا وُجد أيُّ شَبَه بين أشخاص الرواية وأُناس حقيقيِّين، فذلك ليس صدفةً محضة؛

٣. إذا لم تقرأ بدافع قويّ ومقنع، وإذا كنت تعتقد نفسك نبيَّ هذا العصر أو أحدَ قدِّيسيه، فلا تقرأْ، لأنَّها رواية عن الأنذال والآثمين؛

٤. الرواية سهلة، لكنَّها موجعة، لأنَّنا أصبحنا لحمَها ودمها؛

٥. لا تقرأْ وأنت عابسٌ. اضحكْ أيُّها القارئُ، يا أخي في المعاناة.

(1)

صيف ٢٠١٧ م

«ثمَّة جُمَلٌ مثلُ الأقدار ترسم لك حياتك»، قال صديقي، ثم أضاف وهو ينظر إلى عينَيّ الحزينتين: «إنّها لعنة اللغة».

كنت جالسًا بالقرب من النافذة المطلَّة على شارع ركب. نظرت إلى مقهى رام الله وإلى محلّ الحلويّات، وإلى المارّة، فرأيت عمري المبعثر على رصيف الشارع، يدوس عليه الناس بالأقدام. حينها تذكَّرت جملتين مفصليَّتين في حياتي. الجملة الأولى تعود إلى أبي، قالها في موسم قِطاف الزيتون، عندما كنت أشدّ حمارتنا نحو صخرة عالية، كي أمتطيها: «يابا، ما تكرِّر غلطي». لم يفسِّر لي شيئًا، ولم يُضف كلمة واحدة. بعد مرور عدَّة سنوات، أخبرني روايتين مختلفتين، وشعرت بأنَّ ثمَّة علاقة قويَّة تربطهما بالجملة التي قالها.

الرواية الأولى: كان أبي يحبُّ اللغة العربيَّة، وقد ذهب إلى دمشق ليدرسها، إلَّا أنَّ جدِّي أجبره على دراسة المحاسبة. لذلك، كره التخصُّص والجامعة ودمشق، فعاد بعد سنة خائبًا إلى فلسطين. عرفت هذه الحكاية للمرَّة الأولى، ونحن في مستشفى نابلس، حين كان أبي يخضع لعمليَّة قلب مفتوح.

لم أكن قريبًا منه في حياتي مثلَ تلك الأيَّام. كان وديعًا وبريئًا كطفل، ويتحدَّث عن أشياء لم أسمع بها من قبل. كلَّما تقدَّمنا في العمر، عدنا إلى نقطة البَدء، كأنَّ الحياة دائريَّة الشكل، والطفلَ نبيٌّ أو ساحر، يرى العالم بعينين مسحورتين، ولديه لغة لا يفهمها سواه. أبي هادئ، قليل الكلام، وخصوصًا مع أبنائه، لكنّه في تلك الليلة، وهو في سرير المستشفى، تحدَّث ساعة كاملة، من دون أن يشعر بالتعب.

هل هذا هو الخطأ؟ المنعطفُ الذي أودى بحياته إلى مكانٍ آخر؟ والمكان الآخر هو الأرض التي وُلد فيها، وعاش من أجلها، وسيُدفَن فيها. كنت أقول دائمًا إنَّ في حياة كلّ إنسان نقطةَ انعطاف، بحيث لا تعود الأشياء نفسها. ونقطة الانعطاف في حياة والدي، تَركُه الجامعةَ والعودةُ إلى فلسطين، من أجل رعاية الأرض ووالديه في كِبَرهما. هذه هي الرواية الثانية، إذ قال لي: لقد تركت الجامعة، لأنَّ جدّك وجدّتك بقيا في البيت وحدهما، بعد أن سافر أعمامك إلى الأردن للدراسة.

قلت لنفسي، وإن تعدَّدت الروايات، إلَّا أنَّ الخطأ واحد. إنَّها التضحية. والتضحية كانت بالنسبة إليَّ فكرة بلهاء؛ إنَّها العيب الذي يظنّه الكثيرون ميزة.

الجملة الثانية تعود إلى أمِّي، وأمِّي امرأة بسيطة، طيِّبة القلب، في

أواخر الخمسينيّات، ترى في أولادها العالم. كانت تحفظ بعض المعلَّقات، وأنشودةَ «طلع البدر علينا»، وتتذكَّر كلّ ما تعلَّمَتْه في المدرسة. قالت لي في أحد الأيّام ممازحة «إلّي مالو حظّ لا يتعب ولا يشقى». وهذا مَثَل شعبيّ فلسطينيّ، كلّه نحس بنحس. بالتأكيد، قالت ذلك بعفويَّة، فلم تكن تقصد إيذائي، لكنَّها دفعتني إلى أن أنظر إلى وجهي في المرآة كلَّ صباح، باحثًا فيه عن الشؤم وسوء الحظّ.

زياد طالب ماجستير في علم الاجتماع، من إحدى قرى نابلس، عرَّفني إليه صديقٌ آخرُ من قريتي. بدأ حياته الفعليّة طالِبَ علم اجتماع في جامعة بيرزيت، أمّا قبل ذلك، فقد صاغ والده أدقّ تفاصيل حياته. كان في وسعه أن يكون الولدَ المطيع لمدير أوقاف نابلس، الذي تعيَّن في أثناء فترة حكم «حماس» بعد الانتخابات التشريعيَّة عام 2006 م، إلَّا أنَّه تمرَّد على سلطة الأب وتقاليد العائلة. لم يكن يتصوَّر أنَّه سيخرج عن طاعة والده في يوم من الأيّام، إلَّا أنَّ الأمور وصلت في النهاية إلى طريق مسدود.

كان والده يضربه باستمرار؛ يكسر أحد أطرافه أو يجلده بعد أن يعلِّق جسده الهزيل في السقف. وقد وصلت هذه الممارسات إلى ذروتها، حين ترك دراسة الشريعة ليدرس علم الاجتماع في بيرزيت، ويلتحق بالقطب الطلَّابيّ الديموقراطيّ في الجامعة.

أجلسه يومها على الأرض بعد أن ربطه، ثم ضربه بالحذاء وداس على رأسه. ضربه بلا رحمة. أُغمِيَ عليه عدَّة مرّات، ولم يدرِ كيف ظلَّ في قيد الحياة. بعد يوم كامل من الضرب والشتائم، وجد نفسه في الشارع، من دون مأوًى أو مصدرِ رزق.

أمّه لم تدافع عنه؛ لم تقاتل من أجله. كانت ضعيفة وخائفة. قال لي: أرادت أن تورِّثني الخنوع. وعندما نصحَتْه بالرجوع إلى حظيرة الوالد «الله يستر عليك يَمّا، أنت قطعة منِّي، اسمع وما تِغْضب أبوك منك، أنا شفت الويل واتحمَّلت، إجى دورك تتحمّل، بيظلّ أبوك»، انفجر في وجهها. كان يقول لها: لن أعيش حياتك؛ لن أكرِّر أخطاءك.

قال لي في لقائنا الأوّل، بأسلوبه الساخر، الموشَّى بالفلسفة بعيدًا عن السياسة، التي اعتاد الحديث فيها: «آلهتي النراجيل. إنَّها مَن تهب الحياة معناها». قلت له ممازحًا «أنت تبالغ». «لقد جمعت العناصر اليونانيَّة كلَّها، حيث انبثق الكون: الماء، والنار، والهواء، والتراب»، أجابني نافثًا الدخان في فضاء المقهى.

كان ذلك اليوم، يومَ عطلتي عن العمل. لم أكن محرِّرًا في صحيفة مرموقة مثل زياد، بل كنت أعمل غاسل صحون، في مطبخ أحد المطاعم في رام الله. ومن سوء حظِّي أنَّه كان جديدًا، وقد كنت حاضرًا نهارَ الافتتاح. لذلك «اتخوزقنا»، كما قال لي مطر، زميلي في غسل الصحون، وهو أستاذ علوم، متعدِّد المواهب، يعرف في الأدب وتصليح الأجهزة الكهربائيَّة، وكتابةِ رسائل الحبّ للعاشقين من سائقي السيّارات العموميَّة، وأصحاب البسطات في شوارع رام الله.

عندما رأيت الإعلان على موقع «شو بدَّك من فلسطين»، حملت حقيبتي الصغيرة، وأخذت سيّارة عموميَّة من مجمَّع طولكرم. بعد أن وصلت إلى مدينة رام الله، واجتزت شارع الإرسال، رأيت فجأة جسدًا ثقيلًا يرتطم بالأرض. كان الرجل كثَّ الشعر. عيناه كانتا بارزتين

للخارج، وشفتاه جافَّتين، في وجه قديم ومتعفِّن. كان من الواضح أنَّه متشرِّد ميِّت. الناس وقفت على قارعة الطريق، تنظر إليه من بعيد، من دون أن يتقدَّم أحدهم لرفع الجثَّة.

كنت أكثر جُبنًا ونذالة، فلم أملك الجرأة على فعل أيّ شيء. بعد لحظات، رأيت الجموع تتقدَّم وتشكِّل حلقة زاحمة حول الجسد. أعناق تطاولت من الرصيف المقابل، لترى ما حدث. أحاطت المدينة بجثَّة المتشرِّد، وتدافعت نحوه من جميع الاتِّجاهات. لم أكن أعلم قبلها بأنَّ ثمَّة متشرِّدين، وشحّاذين، ومتسكِّعين في شوارع رام الله.

بعد أن اجتزت شارع ركب، وعبرت بعده شارعًا فرعيًّا، وجدت المطعم ووقفت أمام رجل طويل، يرتدي بذلة سوداء، والكوفيَّة الفلسطينيَّة تتدلَّى من رقبته. عرفت أنَّه قياديّ في حركة «فتح»، وهذا القياديّ أخذني من يدي إلى المطبخ، بعد أن اتَّفقنا على الراتب، 1800 شيقل، «لأنَّك مثقَّف وخرِّيج بيرزيت».

كان المطبخ في غاية القذارة. الأطباق والكؤوس ملقاة على الأرض؛ بقايا الطعام وأدوات الطبخ متراكمة في المجلى؛ كثير من أكياس النفايات، والروائح الكريهة كانت تنبعث من كلِّ مكان. ثم قال لي بلهجة ثوريَّة: اهجُمْ. فهجمت كمقاتل في ساحة معركة، ورحت على مدار ساعات طويلة، أتنقَّل بين الأواني والصحون والمغارف والطناجر.

الشِّيف شابٌّ في الخامسة والعشرين من عمره، أخبرني بأنَّه عشق الطبخ منذ صِغَره، بحيث أمضى أغلب طفولته مع أدوات المطبخ، لذا رأى نفسه طبّاخًا منذ البدء، وقد تعلَّم فنّ الطبخ من أحد الطبّاخين

الماهرين في رام الله. كان يدخل الحمَّام بعد تحضير كلّ طبق، يكتب المكوِّنات وطريقة تحضيرها على أوراق صغيرة، يخبِّئها في جيب بنطاله. وذات يوم، قال لي إنَّه كان الطبّاخَ الخاصّ لمحمود عبّاس، لكنِّي لم أصدِّقه، لأنِّي كلَّما ذهبت إلى حلّاق، قال لي: لقد كنت الحلّاق الخاصّ للرئيس. وكلَّما صعدت إلى باص عموميّ، قال لي السائق: لقد كنت السائق الخاصّ للرئيس. وهكذا، حتى ظننت أنَّ كلّ الشعب قد ساهم في خدمة الرئيس، بطريقة أو بأخرى.

الشِّيف متزوِّج ولديه طفل، أخبرني بأنّه سعيد مع زوجته، وحين كنت أسأله عن الزواج: «الزواج عن حبّ بيفرق يا نوح، يا ريت لو تزوَّجت من قبل». يمارس اليوغا، ويحبّ السفر، ولا يؤمن بيوم القيامة «الحياة الآخرة قصَّة للأطفال».

تعلَّمت السَّلَطات بأنواعها في غضون أسبوعين، وأصبحت أحضِّرها قبل مجيء الشِّيف عند الساعة الواحدة. وحين كان يدخل المطبخ بنظّارته الشمسيّة السوداء، مرتديًا قميصًا أبيضَ، قصيرَ الكمَّين، كنت أقول له ساخرًا: في هذه الأيّام، أصبحت مهنة الطبخ أكثر أهمِّيَّة من مهنة الطبِّ.

كنت أعمل من الساعة العاشرة صباحًا حتى السابعة مساءً. أغسل الصحون والمعالق التي يأكل بها زملائي في الجامعة، أساتذتي، أصدقائي الصحافيُّون والكتّاب الذين أعرفهم. قلت لنفسي: ها أنا، إلٰهٌ صغير في مطبخ الكون، أَراكم ولا ترونني. كانت تراودني أفكار مثل أن أضع سُمًّا في أطباق الذين أكرههم. بالطبع، لم تكن هذه الأفكار لتخرج إلى حيِّز التنفيذ، لكنَّها كانت تُشعرني بالسُّلطة، التي أصبحت هوس أغلب الفلسطينيين.

في أحد الأيَّام، قال لي صاحب المطعم: أنت العامل الوحيد الذي يظلّ بإرادته بعد الدوام. ابتسمت له ابتسامة جافَّة، وأكملت عملي. الحقيقة أنَّني كنت أُنهك نفسي، كي أنأى بها عن التفكير، على الرّغم من أنّي كنت قبل ذلك من دعاة الكسل والتأمُّل.

في الفترة التي سبقت التحاقي بالعمل، كنت أشرب تقريبًا كلّ ليلة. أشتري زجاجة فودكا أو ويسكي من سوبرماركت في بيرزيت، ثم أجلس وحيدًا طوال الليل في غرفتي. أضع سمّاعات الأذن وأستمع إلى موسيقى كرديَّة. لا أدري لِمَ كنت مغرَمًا بالموسيقى الكرديَّة في ذلك الوقت. رغبت في الوحدة والشرب والحزن. لم تكن لديَّ القدرة على الخروج ولقاء الأصدقاء. حالة غريبة من الشعور بالعدميَّة، إذ عانيت اكتئابًا حادًّا، وأوجاعًا قديمة راحت تتصاعد من داخلي.

الفراغ كان يُحيط بي، من كلِّ الاتِّجاهات. يحاصرني، وأنا أتأمَّله بعينين مذعورتين. لولا هذا الفراغُ، لما تزاحمت أفكار كثيرة في رأسي: الخطر من داخلك، وليس من خارجك. رأسك مليء بأشياء لا لزوم لها. «أفرِغ الوعاء كي ترى التفاصيل». لكنّي كنت أزداد كلّ يوم بالهواجس والأسئلة.

كان العمل وسيلة ناجعة للخروج من قوقعة الذات. عدم إيجاد الوقت حتى للتفكير في الأمور اليوميَّة البسيطة، والالتفات أكثر نحو لقمة العيش التي كنّا نبحث عنها، في كلِّ مكان، نظيفةً وغيرَ مغمَّسة بذلٍّ.

في المساء ذاته، جاء الأستاذ مطر وهو في غاية الحزن. قلت له ممازحًا: ما بال المطر حزين في الصيف؟ لكنّه ظلّ عابسًا، ولم

يبتسم. «أتعلَمْ يا نوح، بأنّني لم أرَ أولادي منذ ثلاثة أيّام، على الرّغم من أنّنا نعيش في بيت واحد. أخرج إلى المدرسة قبل أن يصحوا من النوم، وأعود إلى البيت بعد أن يناموا. لديّ ستّ ساعات، هذا كلّ ما أملكه من وقت. أستحمّ وأذهب إلى السرير، ثم أضع رأسي على الوسادة وأستغرق في الهموم، ثم أحتاج إلى ساعة أو ساعتين لأنام».

بقيت صامتًا لوهلة، ثم قلت عبارات العزاء التي اعتادها الناس: «الله بِعِين»؛ «هاد حال الدنيا».

ـ تعرف يا نوح، أفكِّر في الخطايا التي ارتكبناها، لنستحقّ هذه العقوبة.

كان الأستاذ مطر من المناهضين للكتابة: «إنّها مشروع فاشل. لا أحد يقرأ في هذه البلاد. ابحثْ عن عمل يَعُدْ عليك بالفائدة. الثقافة أصبحت مثيرة للضحك، والكتّاب ليسوا أكثر من مهرّجين. طبعًا مع كامل الاحترام، لكنّهم هكذا في نظر الشعب.

هتفت ضاحكًا وأنا ممتلئ بالأسى: فليحيَ الشعب العربيّ من المحيط إلى الخليج.

سألني وهو يمجُّ من سيجارته المشتعلة: ماذا تكتب؟

ـ أكتب عن نفسي.

أخذ يضحك من جديد ساخرًا: أتظنُّ حياتك على قَدْر كبير من الأهمّيّة! لقد أضحكتني يا رجل. لستَ سوى خرّيج جامعيّ بائس، عاطلٍ عن العمل. ما هي الأحداث العظيمة التي مررتَ بها؟ قصصُ حبّ فاشلة!

مكتبة
t.me/t_pdf

انتبه إلى لهجته العدائيَّة، فأخفض صوته واعتذر.

قلت له: «لا بأس يا صديقي، أنت على حقّ في كلّ ما قلته، لكنَّي سيزيفيٌّ في هذه المسألة. لا أستطيع أن أكفّ عن الكتابة، أفكِّر في شيء أخرج به عن المعتاد؛ أتجاوز به ذاتي. إن اعتزلت الكتابة، فإنِّي أفقد هويَّتي. إنَّها نوع من أنواع التمرُّد وتجاوز الذات».

ألقى عقب السيجارة على الأرض، ثم حطَّمها بحذائه: «عفوًا، نوح، انظرْ أين تقف!» كنتُ متّكئًا على حاوية نفايات، وحولي مجموعة من الصحون والمعالق المتَّسخة. «أنت تعيش في عالم قذر، يعبد المال». هززت رأسي، وخرجت للأكل خارج المطبخ.

كان صاحب المطعم يوفِّر لنا وجبة واحدة يوميًّا، يحضِّرها لنا الشِّيف مصطفى. في إحدى المرّات، ونحن نتناول العشاء، اقتربتُ أكثر من فتاة شقراء، قصيرة، تعمل نادلة. سألتها الأسئلة المعتادة. قالت لي إنَّها من المخيَّم، وقد جاءت إلى رام الله للعمل، بعد أن تركت دراسة التمريض في جامعة أبو ديس. أخبرتني بأنَّها تعشق التدخين والرقص والأبراج. لم أفهم هذا الهَوَس الغريب في معرفة الأبراج، ولم أستطع أن أعرف حدود الصدق من الكذب في كلامها.

طلبتُ أن نتواصل عبر الفيسبوك، كي تعطيني خارطة فلكيَّة. وعندها حاولتُ السخرية من هوايتها قائلًا: إنَّ الأبراج خرافة محضة، كادت تصفعني، لكنِّي تفاديت الموقف بسرعة.

تركت الشقراء العمل، بعد أن تحرَّش بها صاحب المطعم، وهي تقف في المطبخ محاولًا لمس مؤخرتها. همس الشِّيف مصطفى في أذني: «هل تعرف أنَّها هربت من المخيَّم لأنَّ أهلها يريدون قتلها؟»

نظرت إليه باستغراب فاغرًا فمي. سألته: «لماذا يريدون قتلها؟» «لأنَّها شرموطة»؛ انفجرت الكلمة في أذني كقنبلة. ثم أضاف: أعرفها منذ سنة. لقد عملت أيضًا نادلة في مطعم آخر. في أحد الأيّام، جاءت متعَبة، ولمّا سألتها عن السبب، قالت لي إنَّ الرجال يركبونها كأنَّها باص عموميّ.

ـ هذا لا يعني أنَّها عاهرة.

ـ أنا أعلم. لا شيء يَخفى عليّ في هذا البلد. أعرف القحاب من عيونهنّ.

كانت الشقراء صديقة لنادلة أخرى، اسمها جيانا؛ فتاةٌ مسيحيَّة، يتيمة من بيت ساحور. تركت الدراسة لأنَّها مملّة ولا تطيقها. فتاة حلوة، رقيقة، مجنونة، لكنَّها تفقد أعصابها في أوقات ضغط العمل، فتشتم الله وصاحب المطعم، وتُلقي الصحون على الأرض لتشعل سيجارة.

في أحد الأيّام، في أثناء استراحة العمل، وضعتُ سيجارة في فمي وأشعلتها. كانت السماء صافية، وليلُ رام الله هادئًا.

«لماذا أشعر بأنَّك موجوعة؟»

«ماتت أمِّي في أثناء ولادتي، لتحمّلني ذَنْب موتها».

«لا تقولي هذا الكلام».

«هل أُحضر لك القهوة؟» سألتها.

«يبدو أنَّك شابٌّ طيِّب ولطيف».

«ربَّما، هكذا يقولون لي، لكنَّ الناس تستلِذّ بتكسير الزجاج الهشّ».

في مساء اليوم التالي، طلبت من صاحب العمل 500 شيقل. رأيت وجهه قد أخذ بالعبوس، ثم نظر إليَّ بطرف عينه: هذا كثير يا نوح، ما زلنا في بداية الشهر. «أمِّي مريضة، بدِّي أجبلها دوا». أعطاني المبلغ كاملًا، وبهذه الطريقة أخذت حسابي، ثم خرجت من المطعم.

جلست وحيدًا على إحدى العتبات، إلى جانب دُوّار المنارة. دخَّنت؛ شربت زجاجة كولا؛ نظرت إلى وجوه الناس بسأم. متعَب وحزين؛ غريب في مدينة تضيق أكثر بمرور الأيّام. نظرت إلى نفسي، كشخص عديم الأهمِّيَّة، توقّف عن القيام بأيِّ شيء مفيد، لكنَّ ثمَّة شعورًا بالحرِّيَّة ينبعث داخلي. أنا هامشيّ، لا أحد يراني، ورام الله أصبحت لي وحدي، بسمائها وأرضها.

تشرَّدت في ليل المدينة. انتابتني رغبة وحشيَّة، في أن أكون أكثر وَحدة. إمّا أنّ الوَحدة ستدفع بي إلى منتهى العقل، وإمَّا إلى منتهى الجنون، إنَّها عزاءٌ لهزيمتي. ثم إنّ هذه المدينة التي تُسمَّى رام الله، تنهبني عن آخري. أشعر فيها بأنِّي مسلوب.

أخافَني جسدي القذر الذي تفوح منه رائحة عفونة. التصقت الملابس بجلدي الراشح بالعرق، وقحطتْ رقبتي فتجمَّعت أشياء سوداء تحت أظفاري. سمعت صوت أمِّي من بعيد، يأتيني جافًّا وشاحبًا؛ صوتها الذي يطرد الكوابيس والخوف.

في اليوم التالي، بعثتُ إليه رسالة على الواتسآب: أنا مش ماكينة ولا حمار تحرث عليّ، دبِّر حالك.

(2)

شعرت بأنّي منبوذ في هذه المدينة. لا شيء لي، والغربة حاجزٌ بيني وبين الناس. تتشابه الوجوه في الزحام؛ وجوه بهلوانيَّة تتراقص أمامي. عيناي تفترسان المؤخِّرات المكوَّرة. الأصوات تصبح أكثر إزعاجًا في المدينة: صراخ الباعة؛ أبواق السيّارات؛ شتائم الشباب؛ توسُّل المتسوِّلين «صَدَقة يا ولدي». أفكِّر أحيانًا في أنّ ما ينقصني، هو أن أكون على وفاق مع الناس.

أفضِّل الحديث مع الأشياء أكثرَ من البشر: القمر؛ السماء؛ التراب. أحيانًا، أشعر بالقرف من أيِّ علاقة بشريَّة. وهذه الفكرة المصبوغة بالاشمئزاز، كنت أستخدمها للنأي بنفسي، ودفع جسدي إلى أماكن لا روائح بشريَّة فيها.

في المدينة تتوارى الأشياء بسرعة. يختفي القديم ليحلَّ مكانَه الجديدُ. بيوت وشوارع ما عادت موجودة، إلى درجة أنَّ المرء يعجز عن فهم ما يحدث. كلّ شيء خاضع للتغيُّر والتحوُّل، إلّا الإنسان يظلُّ

ثابتًا مثلَ نُصْبٍ تذكاريّ. وعلى هذه الرمال المتحرِّكة أحاول أن أظلّ واقفًا. أثبِّتُ قدمَيَّ وسط الكثبان؛ كثبانِ الأفكار في رأسي.

وليظلَّ المرء حيًّا في هذه المدينة، عليه أن يقول شيئًا اليوم، ويَنقضَه في اليوم التالي، من دون أن يفقد ثقة الآخرين. الوضع لا يثبت على حال، بين سلامٍ وحرب؛ بين بيوت تُهدَم ومبانٍ تُشيَّد. هناك أناس يختفون من المدينة، يتبخَّرون، ليحلّ مكانهم آخرون، يزحفون من الأرياف وبقيَّة المدن أفرادًا وعائلات، يستأجرون الشقق ويلتحقون بالوظائف الجديدة.

رام الله تملأ فراغاتها بالأحلام، تبدو مليئة بالثقوب مثل قطعة جبن، تثير شهيَّة فئران التشرُّد و«البزنس». ليست غامضة، لكنَّها تتعاطى الإشاعات. لا بدَّ للشخص من أن ينزل إلى الشارع، ليتأكَّد بنفسه. وهذا ليس كافيًا، لأنَّ كثيرًا من الأشياء مزيَّفة. في أيِّ حال، أصبح الناس أكثر حذرًا، نائين بأنفسهم عن التورُّط في المشاكل. قد يرون متشرِّدًا أو متظاهرًا ينزف نتيجة الضرب بالهِراوات، أو يسمعون أصوات الرصاص، ويواجهون ذلك كلّه بلا مبالاة.

كانت الليلة التي تركتُ فيها العمل طويلة وشاقَّة. سأستخدم هنا أكثر الكلاشيهات اللغويَّة شيوعًا: تعجز الكلمات عن وصفها. لقد عملت طوال خمس عشرة ساعة متواصلة. كمِّيّات كبيرة من الصحون والمعالق والكؤوس المتَّسخة كان عليَّ غسلها، إضافة إلى أعمال التنظيف في المطبخ. ليلتَها تأخَّرتُ وأنا أتسكَّع في المدينة، فلم أجد سيّارة توصلني إلى بيرزيت. انتظرت عند الموقف ساعة كاملة في عزِّ البرد، وكان جسدي المبلَّل بالعرق يرتجف تحت ملابسي القذرة.

قرَّرت في تلك الليلة التشرُّدَ في شوارع رام الله، والنومَ على أرصفتها.

تمدَّدت على كرتونة أمام بناية الإسراء في شارع الإرسال. حاولت النوم، لكنِّي لم أستطع، فقد تحالف البرد وألم الروح، ولم أعرف ليلتها طعم الإغفاءة. قلت لنفسي: حتى النومُ في هذه البلاد أصبح حلمًا.

على الرَّغم من أنِّي كنت توّاقًا إلى حياة التشرُّد، أنا الغريب حتى عن داخلي، فإنَّه كان ثمَّة رغبة مستترة في بيت وزوجة وحياة مستقرَّة. كنت أعيش في مستودع عمارة سكنيَّة في بيرزيت، الحمَّام فيه من دون باب، ولا يوجد مطبخ، والبابُ ضخم وله دفّات، تنفذ منه الرياح الباردة في الشتاء، والغبارُ والحشرات في الصيف. وكانت هناك مكتبة مليئة بالكتب، خفَّفت من رداءة المكان. سريران مزدوجان، لي وللفراغ؛ أريكة واحدة زرقاء؛ ثلّاجة صغيرة لعبوات الماء والبيرة المتوارية في أكياس سوداء؛ نافذة وحيدة تطلُّ على سكنٍ طلّابي، وعائلةٌ من مخيِّم الجلزون.

كنت أنام كثيرًا في غرف أصدقائي الجامعيِّين. محمود طالب علوم سياسيَّة، من مخيّم الفارعة، خطّاطٌ وفنّان جداريّات. كنّا نُمضي الليل في الحديث عن أشياء كثيرة، وكان عَدَميًّا، يرى أنَّ الحياة مصيدة كبيرة، ولا معنى لها. ذاتَ مرّة، اشتهيت بعض المكسَّرات في أثناء السهرة، فذهبت إلى محلٍّ قريب واشتريت. بعد أن انتهينا، سألني وهو ينظر إلى عينَيّ: ماذا بعدُ؟ أين الجدوى؟ قلت له: المعنى في اللحظة ذاتها؛ أن تستمتع بما تفعله، وتفعل ما تشتهي.

كنّا نفتعل المواقف، لنبتكر الأحاديث.

ذات ليلة ذهبت إلى سكنه من دون أن أتّصل به. كانت لديه صديقة من القدس، ترتدي تي شيرت أزرق وبنطالَ جينز، وتضع على رقبتها كوفية حمراء، وتحمل سيجارة مالبورو بين السبّابة والإبهام. قال لي: «إنّها ناشطة في القطب الطلّابي في جامعة بيرزيت». وأضاف بطريقة مسرحيَّة؛ «إنّها أجمل الثوريّات على الإطلاق».

شعرت بالحَرَج بعد أن وضع يده على ركبتها، ثم مدَّ إليَّ سيجارة وأشعلها. سألتني: ماذا تكتب؟ «عن الأشياء البسيطة، أكتب عن طفل يشعر بالقهر لأنّه يرتدي حذاءً ليس على مقاسه. أكتب عن وردة ذابلة في حديقة منزلٍ مهجور».

ـ لماذا لا تكتب عن فلسطين؟

ـ هل فلسطين ضيِّقة إلى هذا الحدّ، حتى لا تتّسع لكلِّ هذه الأشياء؟

أضفت: «وأنا صغير، ضربني أخي بحزامه الجلديّ، لأنّي تأخّرت عن الباص الذي كان يحملني إلى رياض الأطفال. لم يكلِّف نفسه عناء معرفة السبب. حاولت باستماتة إدخال قدمي في الحذاء الأسود الجديد. أتذكّر شكله حتى الآن. ماذا لو سأل الطفل الصغير عن الأمر الذي يزعجه؟ العالم ليس أكثر من حذاء ضيِّق على طفل، لا يعرف كيف يشرح وجعه».

كانت الرفيقة في الحمّام، حين خرجنا أنا ومحمود إلى الشرفة، لنتحدَّث كالعادة عن معنى الحياة وجدواها، على الرّغم من أنّه أصبح موضوعًا مستهلكًا بيننا.

ـ الحياة لعبة روليت.

همس إليَّ وهو ينظر إلى النجوم.

نظرتُ إلى السماء، ورحت أتخيَّل الله، ينظر إليَّ من مكان ما. أنا التائه، الذي لا يعرف شيئًا، ولا يملك شيئًا. حدَّثته عن صديق لي في المدرسة، كان خَلوقًا وذكيًّا، ينادونه بـ «العبقريّ»، لكنَّه حصل في التوجيهيّ على علامات متدنِّية، فأحرق كتبه ثم شنق نفسه. لقد مات مِيتة تافهة، وهذه من الأشياء التي أصبحت تُخيفني.

في اليوم التالي، اتَّصل بي أحمد ياسين، وهو مشرف في سوبرماركت «flowers» في حيّ الطيرة. أشفق عليَّ حين عرف أنِّي أجلس في السكن من دون عمل. قال لي: تعالَ، مندبِّرها.

اشتغلت في السوبرماركت ثلاثة أشهر على ثلّاجة العصائر. كنت أعمل اثنتي عشرة ساعة في اليوم، أحمل صناديق الكولا والعصائر بأصنافها على كتفيّ، من مخازن السوبرماركت، وأصعد بها درجًا طويلًا. في اليوم الأوَّل، جاء إليَّ شابّ طويل، أحمرُ الشعر. وبعد أن عرَّفني إلى نفسه، أخبرته بأنَّ اسمي كافكا، وقد أطلق عليَّ والدي هذا الاسم، لأنَّه كان مجنونًا بكاتب ألمانيّ، تدور حكاياته عن الكوابيس والحشرات.

عندما تركت العمل في المطعم، أخذت أبحث عن اسم جديد. أردت أن أدخل العالم السفليّ في رام الله، بهويَّة مزيَّفة، فلا أحد يتحرَّى عن اسمي وكنيتي. يكفي أن أقول له «كافكا»، فالعمّال يحملون العديد من الألقاب الغريبة، التي تحيل إلى طبيعة حياتهم. أصبحتُ كافكا رام الله، وشعرت بسعادة غامرة وأنا أكوِّن نفسي من جديد.

أخبرني الشابّ بأنَّه يعمل في السوبرماركت منذ أن كان في

العاشرة، وبأنّه لا يرى عائلته سوى مرّة واحدة في الشهر. قال لي: «هذا المكان هو العالم بالنسبة إليّ. لا أذكر أنّي أخذت إجازة واحدة طوال هذه السنوات» (طبعًا، في كلامه بعض المبالغة). حينها، سألت نفسي: كيف يمكن أن يكون عالمه بهذا الضِّيق؟ مَن الذي على صواب: أنا الذي أجلس في سريري أُنظِّر على العالم، أم هو الذي اختار حياة العمل؟

حيُّ الطيرة هو أحد الأحياء الراقية في المدينة، والسوبرماركت من أرقى المحالّ التجاريَّة الموجودة في الحيّ. صورة الرئيس محمود عبّاس داخل بروازٍ ذهبيّ مقابل الباب، وإلى جانبه راية حركة «فتح». خلال عملي التقيت الكثير من الكتّاب والسياسيِّين الذين يسكنون في حيِّ الطيرة. تساءلت عن زواج المتعة هذا بين الثقافة والسُّلطة، وكيف أنَّ هذه الأخيرة تشتري الأولى بقوّة المال والمصالح. وتذكَّرت أنَّ هؤلاء الكتّاب الأكثرَ حضورًا في الوسط الثقافيّ، هم من المتواطئين مع السُّلطة القائمة.

التقيت روائيًّا فاز بجائزة أدبيَّة مرموقة، قال لي: «لا بأس، يا نوح، في العمل. لقد عملتُ في ورشِ البناء قبل أن أعرف الكتابة. الواقع مادَّة مهمَّة لإغناء النصّ. أتوقَّع أن تكتب تحفة أدبيَّة بعد عملك هنا». في ذلك الوقت، لم أكن أفكِّر في الأدب ولم أكن أعيش لأحكي. كنت أعيش لأنّي وجدتُ نفسي في هذا الفخّ اللعين، الذي يسمُّونه الحياة. لم أكن أعمل لأكتب رواية عن الكادحين، بل لأظلّ في قيد الحياة، ولا أجد نفسي في الشارع، من دون أكل أو مأوًى.

قال لي إلياس، بائع الخضار الشابّ في السوبرماركت: تملَّقْ

أكثرَ، تَتَرَقَّ أكثرَ. قبِّلْ أكثر الأحذية لمعانًا، تزدَدْ نجوم كتفك نجمةً أخرى. على الرَّغم من ديونه المتراكمة، وأمراض زوجته وصعوبات الحياة، فإنَّه يظلُّ مبتسمًا وسعيدًا بين صناديق الخُضَر والفواكه.

كثيرُ المزاح مع الزبائن، وخصوصًا النساء. مثلًا، حين تسأله إحداهنَّ عن حبَّة مانغا ذابلة، يقول لها إنَّها مريضة نفسيًّا، أو إنَّها لم تنم جيِّدًا. كان يغازل الفتيات الصغيرات ويتبادل معهنَّ النِّكات. ذات مرَّة، قال بطريقة مسرحيَّة فيها الكثير من المبالغة والاستعراض: اسمع، النساء مثل الفواكه، عليك أن تتذوَّق وتجرِّب. هناك المانغا والأناناس والخوخ والتفّاح و...

أجبته ممازحًا: أنت خبير بالفواكه، وليس بالنساء.

«المرأة تحتاج إلى أصابع فنّان أو خضرجيّ».

وضحكت: شتّان بين الاثنين.

«المهمّ المهارة والخبرة اليدويَّة»

أبو نسيم موظَّفُ رفِّ المعلَّبات، يُجيد التحدُّث باللغتين الفرنسيَّة والإنكليزيَّة، لأنَّه وُلد في ولاية كاليفورنيا في الولايات المتَّحدة الأميركيَّة، وقد عاش فيها عشرين سنة تقريبًا. حين كنت أسأله عن السبب الذي جاء به إلى فلسطين، كان يقول لي ببساطة: لأنِّي حمار. «لماذا لا تعود إلى أميركا يا أبا نسيم؟»، «لأنَّه يجب إنهاء بعض الأوراق والإجراءات». لم أعرف ماهيَّة هذه الإجراءات التي تحتاج إلى كلّ هذا الوقت، غير أنَّ أحد العاملين في السوبرماركت، قال لي إنَّه طُرد في قضيَّة تحرُّش جنسيٍّ بطفل، ولم أصدِّقه.

حُلمُ أبي نسيم الحصولُ على تصريح عمل في إسرائيل. كان هذا الحلم على شكل ورقة تافهة، ركض وراءها من دون جدوى سنتين كاملتين. قبل أن أترك العمل بأسبوعين، حصل على التصريح فجاء سعيدًا، كأنَّه فاز بورقة يانصيب. أخبر كلّ شخص في السوبرماركت، على حدة، وكان يقول لكلِّ واحد منهم: هذا سرٌّ بيننا. في النهاية، عرف الجميع بمن فيهم مديرُ العمل.

ذات مرَّة قال لي: سأتزوّج امرأة من الطيرة. في رأسي واحدة تملك فيلّا ومسبحًا وسيّارات.

ـ لكنَّك متزوِّج يا أبا نسيم.

ـ لا يهمّ، سأتزوَّج مرَّة ثانية.

عملت في مستودعات السوبرماركت أسبوعًا كاملًا، وفيها تعرَّفت إلى راجح، وهو شابٌّ من مدينة جنين، يعمل في المستودعات منذ ثلاث سنوات. جسده هزيل، وعيناه غائرتان، وظهره منحنٍ إلى الأمام، وكتفاه بارزتان. في المرَّة الأولى حين تعارفنا، سألني: «احزرْ، كم عمري؟ هيّا، قل رقمًا.» رأيته كبيرًا في السنِّ. أردت أن أقول له إنَّه في الثلاثينيّات، لكنِّي خجلت من أن يكون أصغر من ذلك، لذا قلت له: ستَّة وعشرون عامًا. نظر إليَّ بحزن، وأخبرني بصوته المبحوح والعجوز بأنَّه في الثانية والعشرين، أي أنَّه أصغر منِّي بسنتين. قلت لنفسي: يا الله، ماذا يفعل الشقاء بالإنسان!

يعمل راجح من الساعة الواحدة ظهرًا حتى الثانية بعد منتصف الليل. بعد أن ينتهي، يذهب إلى السكن، ينام حتى ظهر اليوم التالي، ثم يعود إلى العمل. روتين يوميّ قاتل. وحين سألته، ونحن نتناول

الغداء: «راجح، ألا تشعر بالملل؟ ألا تريد أن يكون لديك أصدقاء وتسافر؛ أن تعيش حياة طبيعيَّة خارج جدران هذا المستودع؟»

ـ نوح، أنت لا تعلم كيف نعيش. لديَّ إخوة صغار، سيموتون من الجوع، إذا توقَّفت يومًا واحدًا عن العمل. كلّ راتبي يذهب إلى إخوتي وأمِّي المريضة. الأدوية مُكْلِفة وكسرَتْ ظهري.

كنت أنظر إلى السقف، وأظلّ صامتًا لدقائق.

ـ اسمعْ هذه القصّة، ثم أضاف: اكتبْها في إحدى رواياتك، كي يعرف الناس أنَّ ثمَّة مَن يموتون كلّ يوم من الشقاء. هنا، وفي هذه السوبرماركت، مات أبي قبل خمس سنوات. وأشار نحو مكان قريب، وتابع: «كان فيما مضى مصعدًا للبضائع. كان يعمل وينام في هذا المستودع محاولًا أن يجمع أكبر قَدْر من المال، لنستطيع العيش مثل بقيَّة الناس. تخيَّل أنَّني أعمل في المكان نفسه الذي قضى على حياة والدي. كلَّ صباح، حين أنزل إلى هنا، أرى وجهه الغارق بالدم. لقد مات، بعد أن سقط عليه ذلك المصعد اللعين. لم يكن كافرًا أو إنسانًا سيِّئ السمعة، بل كان بسيطًا يبحث عن لقمة العيش».

ـ لماذا لم يُغلقوا السوبرماركت؟ لقد كانت السبب في مقتل والدك.

ـ لديهم علاقات قويَّة ببعض المسؤولين في السلطة، وهم من زبائن المحلّ.

كنت في بعض الأحيان، لأنِّي لا أملك أجرة المواصلات كاملة، أسير على قدمَيَّ من حيِّ الطيرة حتى كراجات بيرزيت. الجسد منهَك بعد نهار عمل طويل، والنعاس يفتك بي في أثناء الساعات الأولى من

الليل، مستمتعًا بالنظر إلى الفنادق والمطاعم والمقاهي المنتشرة على جانبي الطريق، وكان ثمَّة الكثير من الفتيات اللواتي يمارسن رياضة الجَرْي.

راودتني الكثير من الأفكار في أثناء المشي: لست سعيدًا بهذه الحياة؛ أريد أن أبدأ حياة جديدة. هل أكرِّر حياة والدي؛ حياةَ العامل والفلّاح في ورش البناء والأرض؟ أريد أن أبتعد عن حياته حتى لو تشرَّدت في مدينة رام الله.

ذات مساء، جاءني اتِّصال من صديق، تخرَّج حديثًا من كلِّيَّة القانون في جامعة النجاح: «تعالَ نلتقِ في مطعم زرياب بعد نصف ساعة». عندما وصلت إلى هناك، وجدتُ صديقي المتحمِّس لحياة الحرِّيَّة والحداثة في رام الله، يشرب من زجاجة بيرة. قدَّمني إلى صديقته «إنَّها رهف، صديقة كاتبة من سلفيت، وتعمل ممرِّضة».

كانت ترتدي نظّارة طبِّيَّة، وجاكيتًا بنِّيًّا، وتضع على رأسها حجابًا. لم أشرب تلك الليلة، ودخلتُ في حوار ودود مع الفتاة الشابَّة. سُعدتُ بلقائها. مشينا على رصيف شارع ركب متحدِّثين في مواضيع كثيرة: الدراسة؛ العمل؛ الأدب؛ الفنّ التشكيليّ. كانت الفتاة، ذاتُ الوجه الجميل، تطفح بالحزن. قالت لي قبل أن نأخذ آخر باص إلى بيرزيت: حاولتُ الانتحار عدَّة مرّات.

فكَّرت في الأسباب التي قد تدفع فتاة على قدر كبير من الجمال والذكاء، وأنهت الثانويَّة العامَّة بمعدل 97 في المئة، إلى التفكير في إنهاء حياتها.

في الطريق، أخبرتني بأنَّها تقرأ رواية «عالم صوفي» لجوستين

غاردر. «عظيم أن تقرئي نصًّا أدبيًّا وفلسفيًّا بهذا الجمال»، قلت لها. وأخذنا ننظر صامتَيْن إلى الأضواء المنتشرة على جانبي الطريق. بعد شهر تقريبًا، وصلتني منها رسالة على الواتسآب:

ـ مرحبًا.

ـ أهلًا، تذكَّرتكِ في الأيّام الماضية.

ـ هذا مؤشِّر غير لطيف.

ـ لكنِّي لست لطيفًا في كلِّ الأوقات. أنا لطيف فقط في ساعات الليل.

ـ جميل أنَّك تعرف الأوقات التي تكون فيها لطيفًا.

ـ أتريدين أن تتأكَّدي من كلامي؟

ـ كيف؟

ـ أن أراكِ الليلة.

ـ مممم! أمامي كأس شاي أخضر لأنِّي أُعاني صداعًا شديدًا. بعد أن أخرج من المستشفى نحو الساعة الثامنة، سأتَّصل بك ونخرج. اتَّفقنا؟ لكنِّي أحذِّرك! مزاجي سيِّئ.

ـ لا مشكلة، أعرف كيف أُصلح مزاجك.

ـ أنت من تتحمَّل المسؤوليَّة.

بعد أن خرجت من العمل، ذهبت إلى محلّ ورد إلى جانب دُوّار المنارة، واشتريت لها وردة قرنفل بيضاء، وضعتها داخل روايتي «سراب المدينة» من دون إهداء. أعطيتها إيّاهما ما إن رأيتها. قالت

لي: الأبيض جميل ونقيّ. لو كانت الوردة حمراء لرفضتُ قبولها. لون الحبّ بالنسبة إليَّ هو البنفسجيّ. أحبّ ورد التوليب، لكن لا تفكّرْ في أن تهديني إيّاه.

خرجنا معًا، ومشينا في شوارع بيرزيت. جلسنا على رصيف يُطِلُّ على البحر من بعيد، ورأينا الشفق الأحمر وهو يحتلّ مساحة أكبر من السماء. كان الهواء عليلًا، والهدوءُ يعمُّ المكان. أخرجتْ من حقيبتها باكيت سجائر. أعطتني واحدة وأخذنا ندخّن.

ـ لم أضع في فمي سيجارة واحدة منذ أسبوع.

ـ لأنَّكِ كنت في بيت أهلك في سلفيت؟

أومأت برأسها.

بعد أن ارتاحت إليَّ، بدأت بالحديث: ماتت أمّي وأنا صغيرة، ثم تزوَّج أبي بامرأة أخرى. لديّ الآن قبيلة من الإخوة والأخوات. أحمل هذا الفقد في قلبي. كيف تقنع فتاة في السابعة بأنَّ الله أخذ أمَّها لأنَّه يحبّها؟ حين فتحت عينَيَّ ولم أجدها، قالوا لي: إنَّها في الجنَّة. تصوَّرت الجنَّة مدينة صغيرة ومنعزلة كسلفيت، تعيش فيها الأمَّهات الميِّتات. فقلت لوالدي: أريد الذهاب إلى الجنَّة.

بعد أن دخل جسد أمّي في فوَّهة القبر، قفز إليها والدي وحاول إخراجها. أمسك به الأهالي وشدُّوه نحو الأعلى، لكنَّه ظلّ ممسكًا بجسدها، معانقًا إيّاها. لقد كانت حادثة غريبة، أخذ الناس يتناقلونها بمرور الأيّام. أن يقوم رجل بالنزول إلى القبر كي يُخرج جسد زوجته الميِّتة، كان أمرًا مرفوضًا، في قريةٍ تؤمن بقضاء الله، وتحسب لكلام الآخرين ألفَ حساب.

ظلّ يبحث عن أسباب للعيش بعد موتها. كان الشتاء قاسيًا. لم يكن يفعل غيرَ الجلوس أمام النافذة، منتظرًا تلك المرأةَ التي وقع في حبِّها، على حين غفلة من الأهل والناس. يتفقَّد أشياءها: شالَها؛ مصحفَها؛ رداءَ الصلاة؛ عطرَها الرخيص؛ أساورَها «الفالسو»؛ مفاتيحَ البيت؛ آيةَ الكرسيّ المعلَّقةَ في غرفتهما.

كنت أكلِّمها في كلِّ ليلة قبل أن أنام. لا يمكن أن تهجر أمٌّ ابنتَها بهذه السهولة! لا بدَّ من أنَّها موجودة في مكان ما، تسمعني، وتوجِّه حياتي كقبطان سفينة. كان لديَّ هذا الاعتقاد الغريب، الطفوليّ، بسُلطة الأموات على الأحياء.

بدأتْ فجأة تغنّي أغنيات شاميَّة. صوتها جميل، يشوبه الحزن، فأخذ ينساب في العتمة. شعرت بوجيب في قلبي وخشوع في الروح. قلت لها: «أنتنَّ النساء جميلات، لكنْ نفسيّات». أخذت بالضحك، وهزَّت رأسها عدَّة مرّات: «معك حقّ».

ثم أخذت تحدِّثني عن الروايات التي قرأتها، والأفلام التي شاهدتها.

«The Best Offer» فيلم جميل، شاهِدْه في أقرب وقت.

كنت أسير إلى جانب رهف حين التقيت صديقي محمودًا. كان واقفًا أمام حانة قرطبة، فاقترح علينا الدخول. المكان هادئ وحميم. لا شيء فيه متكلِّفًا أو متصنِّعًا. على الجدران لوحاتٌ وصورُ كتّاب وشهداء، ومُبعثَرَةٌ فيه آلاتٌ موسيقيَّة تالفة أصبحت تحفًا فنِّيَّة، وإطاراتٌ باتت أُصُص ورد.

يقدِّمون وجبة يوميَّة، ويستقبلون عددًا من الفِرَق الفنِّيَّة. في تلك

الليلة، كان هناك مجموعة من الشباب والفتيات الجالسين على الأرائك وأمام طاولة البار. يحملون الآلات الموسيقيّة من غيتار وكمان وطبلة ودفّ، ويتهيَّأون للعزف. جلست أنا ورهف على أريكة منفصلة، وأخذنا نستمع إليهم.

نظرتُ إلى الشارع، وأنا أفكّر في أنَّه يشبهني وأتوق إليه، حين رأيت قطّة صغيرة، لها ذيل جميل، تجلس على العتبة. رفعت رأسها، ونظرت إليَّ كأنّها تعرفني. واظبتْ بعدها على ارتياد الحانة مرَّةً في الأسبوع، أجلس وحيدًا، وأنظر إلى الشارع حيث القطّةُ نفسها تجلس على العتبة.

أحيانًا، أسأل نفسي عن هذه الرغبة في الرحيل؛ تلك التي تأصَّلت وازدادت عمقًا بمرور الأيّام. شعرت بالغربة عن كلِّ ما هو حولي. العالم منذ الصِّغَر يربِّي الحزن في صدري كذئبٍ جائع، ورأسي أشبهُ ما يكون بغابة من الأسئلة: كيف؟ لماذا؟ أين؟ متى؟ كانت إشارات الاستفهام، تثير غضب الآخرين. ولأنِّي متمرِّدٌ وعنيدٌ، في طبعي، أصبحت الأسئلة كلابيَ الضالَّةَ التي أُطلقها على كلّ شيء.

حين أوصلتها في نهاية تلك الأمسية، عانقتني في العتمة، فشعرت بأنَّني انكسرت، وتمَّ اغتيالي مرَّة جديدة من الحانة والموسيقى والمرأة الجميلة.

(3)

في خريف بعيد، كانت المدينة حلمَ مخيالٍ فقير، هو مخيالي. كنت وقتئذٍ في عالمٍ أرحبَ من عالم المدينة، يسمُّونه القرية، حيث حكاياتُ العجائز، وقصصُ المجانين والعشّاق الغريبي الأطوار. في تلك الأرياف وُلدتُ عام 1994 م، على طاولة إلى جانب الشارع. تقول أمّي: لقد ولدتُكَ في الشارع قبل أن أصل إلى المستشفى.

من هنا تبدأ الحكاية، حيث الشارعْ، والبساطة، والإحساس بالحرِّيَّة، والجنون إذ ينزع الإنسان نحو التعقُّل. في طفولتنا، كانت الشوارع متنفّسنا الوحيد بعد الظهيرة، فعليها كنّا نجلس ونمشي ونلعب؛ نلاحق الصبايا بالدرّاجات، ونرمي إليهنَّ الرسائل والورد؛ نلتقيهنَّ عند كلّ مفترق طُرُق، وننتظرهنَّ عند باب المدرسة. وكانت الشوارع للمواجهات مع جنود الاحتلال والمظاهرات والأعراس والجنازات.

تعلّمت التمرُّد والثورة في الشارع. تعلّمت الجنس الأُحاديّ

والمثليَّ في الشارع. تعلَّمت الدِّين في الشارع. تعلَّمت الأدب في الشارع. طفولتي، بمغامراتها وجنونها، في الشارع، حين جُرحتُ أوَّلَ مرَّة بضربة سكِّين من أحد مجانين القرية، وفيها جُرح قلبي من أوَّل فتاة أحببتها.

ما زلت أتذكَّر عينيها وأشمّ رائحتها في ملابسي. كنت أظنّني فتاها الوحيد، لكنِّي اكتشفت متأخِّرًا أنّ قلبي كان كرة الصوف التي تركلها، كلَّما غضبت، أو استاءت من العالم.

كانت الفتاة تأتي إلى بيتنا، لتتعلّم الدبكة مع أختي. أنظر إليها من شقِّ الباب وهي تضرب الأرض بقدميها، رافعةً شعرَها في الهواء. ومع كلِّ حركة، وابتسامة، والتفاتة، يتكسّر القلب ويتعلَّق بها أكثر. لطالما سألت أختي: هل ستأتي نبال؟ وبعد أن عرفَتْ بالأمر، صارت تناديني بحرف النون. تعالَ يا «انن»، «يلا يا أبو انن»، وتهدِّدني، كلَّما أخطأت بحقِّها، بأن تُخبر والدي بأمر الحبِّ.

أحببتها أربع سنوات. كنت أركض خلالها في شوارع القرية. أشارك في المخيَّمات والرحلات التي تشارك فيها. المهمّ، أن أمسك ولو بخيطٍ نحيل من خيوط رائحتها. أحببتها كأنِّي العاشق الوحيد على الأرض، لكنَّها لم تكن تأبهُني.

تقرَّبت من ابنة عمِّها، ذاتَ مرَّة، كي أُثير غيرتها. بعثت إليَّ برسالة حبٍّ وقنِّينة عطر وشريط أغانٍ. في الأسبوع ذاته، التقينا على سطح أحد المنازل، أنا وهي وصديقي وأخته. كنّا أربعة، لعبنا الورق. نظرت إليّ بين الفينة والأخرى. فجأة، وجدنا نفسينا وحدنا، فقالت لي: «أحبّك، ابتعدْ عن ابنة عمِّي، إنَّها أنانيَّة ولا تحبّ سوى نفسها».

غير أنّي تركت هذه التي يهمّها أمري، وركضتُ وراء التي لا تأبهُني.

لم أكن أتخيّلها بعيدةً، لأنَّ حياتي كانت متّصلة بها، تدور حولها، ومن أجلها. لا أستمتع بالفصول أو السهرات أو الموسيقى إلّا معها. قد يبدو في كلامي بعضُ المبالغة، لكنّها حبّي الأوّلُ، وهو من ذلك النوع الصاخب، المجنون، الذي قد يدفع مراهقًا إلى الانتحار.

في الصباح، بينما كنت أنتظرها وهي في طريقها إلى المدرسة، رأيت ابن عمّي يعلّق ميداليَّة عليها حرف «N» على حقيبته الجلديَّة السوداء. لم يخطر في بالي أنّه يضع الحرف الأوّل من اسمها. اعتقدت أنَّ هذا الحرف حكرٌ لي.

هُزلتُ؛ تعبتُ؛ انهارت أعصابي، وبكيت طوال الليل، حين علمت بالخبر. حاولت على مدى شهور إخراجَها من رأسي؛ تكسيرَها وتهشيم صورتها، وقتلَ آخر أمل صغير بالحبِّ، إلّا أنّني، بمازوشيَّة عاشق مجروح، بقيت أتابع أخبارها، وأتلصّص عليها ما إن تحينُ فرصة. تزوَّجَتْ وأصبح لديها ولدٌ، وعلى الرّغم من ذلك فإنّني بقيتُ أتلصَّص على صفحتها في الفيسبوك. أنظر إلى صُوَرِها؛ الأطباقِ التي صنعتها؛ الرحلاتِ مع زوجها؛ المطاعم والمنتزّهات التي زارتها.

بعدها بأربع سنوات، وقعتُ في حبٍّ آخر. كنّا حين نلتقي نتبادل النظرات، على الرَّغم من أنّي لم أكن أعرفها. تلتفت إلى الوراء حيث أمشي، وتبتسم تلك الابتسامةَ الساحرة. ما زلت أتذكّر التفاتها وابتسامتها على شاشة الذاكرة: جميلة، جذّابة، وغير قابلة للتقليد.

ولأنَّ زمن الرسائل قد انتهى، بعثت إليها «موبايل» داخل رواية «زمن الخيول البيضاء» لإبراهيم نصر الله. أتيت يومها بالمِشْرَط،

وأحدثت فجوة في صفحاته، حيث يمكن وضع الجهاز، ثم قمت بتغليفه ولصقه. كان ثمنُ التقرُّب إليها، انتزاعَ صفحات من رواية أحبّها، أهداني إيّاها صديق قبل وفاته بيوم واحد. ما زلت أتذكّر الشعور الذي اعتراني حين أخذت بتمزيقها، والدموعُ تسيل على وجهي. بعد انتهاء دوامها في المدرسة، أتاني صوتها غاضبًا. لعنتْ وشتمت، ثم قالت لي: شو بفهم من حركتك؟

«في وسعك إلقاءُ الجهاز في أقرب سلّة مهملات، ونسيانُ الأمر».

اتّصلت بي بعد ربع ساعة، وطلبت إذني في استعمال الموبايل، لتتّصل بصاحب التاكسي، لأنّها نسيت نظّارتها الطبّيّة. في المساء، تحدّثنا طويلًا، تعارفنا، وتبادلنا الغزل. استمرّت الرسائل التي كانت تأخذها من الطريق والبقّالة، حيث كنّا نلتقي قبل ذهابها إلى المدرسة، واستمرّت المكالمات في كلّ ليلة: أستمع إلى غزلها وبكائها وهواجسها وجنونها.

كانت مجنونة تعتقد أنّها مُصابة بالسرطان. تكره أمّها، ولديها عقدةٌ من العالم. قالت لي أكثر من مرّة إنّها حاولت الانتحار بضرب شريانها بقطعة زجاج. قلت في نفسي: كلّ البنات لديهنّ هذا الحسّ الدراميّ فيما يخصّ الانتحار. ذات ليلة باردة من ليالي تشرين الثاني، حين كانت الرياح الشتويّة تعصف بقوّة، صامّةً الآذان، ودافعةً الناسَ إلى إغلاق نوافذ بيوتهم، قالت لي بالحرف الواحد: نوح، تعالَ!

«وين آجي؟» سألتها.

«إلى غرفتي».

خرجتُ قبل طلوع الفجر. فتحت لي الباب، وفي غضون دقائق كنت في الداخل. ثمَّة دَرَج يفصل بين الباب وغرف البيت الداخليَّة. هناك جلسنا، نصفَ ساعة، أحدنا إلى جوار الآخر. أخذت يدها وقبَّلتها، وتبادلنا الحديث. وقبل أن أخرج، سحبتني وشدَّتني إليها، فأحاطت ذراعي بخصرها. قبَّلتْ بهدوء، ثم بدأتْ بالعضّ، صامتةً، متابعةً أنفاسيَ الحارَّة واللاهثة على رقبتها. عشت وحيدًا في أرض غريبة، لكنِّي أدركت لحظتها، ما يمكن أن تفعله امرأة في لحظة عناق. عرفت، وأنا بين يديها، ما معنى أن تكون لي حبيبة؛ رصيدٌ من الحبِّ والدفء، لا ينتهي. تواصلت الهدايا: الملابس، العطور، الكتب. في النهاية، انفصلنا بسبب الغيرة وسوء الفهم واستمرارها بالتهديد بقتل نفسها.

الفتاة ماتت غرقًا. تقول الأمّ إنَّ ابنتها استيقظت مثلَ المجنونة وهي تصرخ. خرجت من باب الدار راكضةً، ثم قفزت في البئر. حين أخرجوها من الماء، كان جسدها شاحبًا وأزرق اللون، وشفتاها ذابلتين، وشعرها مبعثرًا على أرض الساحة. ارتدت القرية ثياب الحِداد مدَّة ثلاثة أشهر، لا أفراح ولا مناسبات. حزنت كلّ العائلات على فَقْدِ بنتٍ في ريعان الشباب.

كنت متلبِّد الإحساس، لامباليا، مقهورًا وممزَّقًا، حين مرَّت جنازتها أمام بيتنا. نظرت إلى نعشها، فتذكَّرت كلّ اللحظات التي جمعتنا. كان صوتها يتردّد في رأسي: «نوح، لا تتركْني، سأقتل نفسي، لا أمزح معك. حملتُ ذنبها كصخرة سيزيف طوال السنوات التالية، عانيت فيها الأرقَ والإرهاق النفسي. كنت أرى وجهها يلاحقني في كلِّ مكان. وإلى الآن، لا تبرحني الكوابيس، فأصحو في

منتصف الليل صارخًا، كأنّي أُصبت بمسٍّ شيطانيّ.

رفضتُ فكرة فقدانها، على الرّغم من أنَّ نعشها كان يسير أمامي، محمولًا على أكتاف الرجال إلى المقبرة. شيء في داخلي، كان ينادي عليها، وهو ينهش نفسه من الألم، لكنَّ الصمت وحده حاضر في المكان. أدركت فيما بعد أنّها لم تُدْفن في مقبرة القرية، بل في قلبي، حيث سأظلّ أحملها إلى الأبد. لقد أغلقتُ كتاب حياتها بالشمع الأحمر، وفتحتُ بوّابة الأوجاع التي لا نهاية لها، وكانت تعذّبني الفكرة: ماتت وحيدة، في بئر مظلمة وعميقة.

منذ ذلك اليوم، بدأتُ بالسقوط في بئر داخليّة. لم أصل إلى القاع، على الرَّغم من أنَّ الرحلة دامت سنوات. كانت الحفرة تتّسع وتتعمَّق أكثر.

يا إلٰهي، ماذا أفعل؟

أفتح سلال الماضي، وأنبش الجراح القديمة من جديد. أتجوَّل في شوارع قريتي حيث الحبُّ والموتُ والجنونُ. وبغُرباتٍ كثيرة في قلبي، تراكمت بمرور السنوات، أعود غريبًا إلى مسقط رأسي.

تختلط الوقائع والأحداث والذكريات والمشاهد في بوتقةٍ واحدة، أنزفها على الورق دفعةً واحدة.

بيت العائلة، والدَّرَج الذي تحوَّل إلى مِصْيَدة تشويه لإناث العائلة.

بيتنا كبير ذو فِناء دائريّ واسع، يتكوَّن من طابقين. الطابق الأوَّل

كان بيتَ جدِّي، والطابقُ الثاني لنا، وفيه حجرات واسعة متلاصقة. يربط بين الطابقين دَرَج إسمنتيّ مسلَّح بالحديد، ينتهي في الفِناء الواسع الذي يجاور أرضًا، فيها شجرةُ تينٍ كبيرة بعلوِّ الطابقين، وشجرُ مشمش ولوز وجوز وبرقوق بأغصانٍ مترامية.

الدَّرج هو أصل المصائب كلّها، يتكوَّن من عشرين درجة غير متساوية الطول والعرض. مقوَّسٌ، وطريقة بنائه تدلُّ على غباء البنّاء. كان هذا الدَّرج سببًا في فقدان أختي الكبيرة حاسَّةَ السمع، بعد أن سقطت عن الدرجة الأولى، وظلّت تتدحرج حتى وصلت إلى الدرجة الأخيرة، بعد أن تركت خلفها خيطًا من الدم على طول الدَّرج، وبركةً حول رأسها عند نهايته.

هذه الأخت الجميلة، الذكيّة، تعلَّمت القراءة والكتابة والحساب والدبكة والرسم والتطريز وصناعةَ التحف الفنِّيَّة والطبخَ وصناعة الحلويات. إنَّها الأمّ وربَّة البيت، بحيث تقوم بكلِّ المهامِّ المنزليَّة، كما ترعى والدَيّ في كِبَرهما، والإخوةَ الأصغر سنًّا.

وقعت أختي الأخرى على الدَّرج نفسه، لكنَّها كانت قد فقدت سمعها وهي رضيعة. تقول أمِّي: إنّ الحرارة هي السبب. لكنَّ السبب، من وجهة نظري، هو الجهلُ في بيئة قرويَّة. كانت الأختان تتبادلان الحديث طوال الليل بلغة الإشارة: الأختُ الكبيرة تسرد القصص من خيالها، والصغيرةُ تنظر إلى حركات يديها وإيماءات وجهها باهتمام كبير. يبدو أنَّ هذا الهَوَس متجذِّر في العائلة. تُمْضيان أغلب الأوقات معًا؛ تخرجان إلى العمل والأفراح والرحلات معًا.

كنت أشعر بالألم حين أسمع صرخات إحداهما: عواءً موجعًا

يحرق الأحشاء. ما أصعبَ أن يظلَّ الإنسان مخنوقًا، لأنَّه لا يستطيع أن يبوح بما يجرحه!

كانت الواحدة منهما تغلق باب الغرفة على نفسها، ولا نسمع سوى نحيبها الذي يمزِّق قلوبنا. محبوبتان من جميع أفراد العائلة، لأنَّهما طيِّبتان، لا تعرفان الكره. لذلك، كنت أحبّ أن أجلس إليهما، وأشاركهما في أفكاري. عندما كنت صغيرًا، ظننت أنَّهما مخلوقتان من أجل خدمتنا. لم يكن لديَّ أدنى اعتقاد أنَّ في إمكانهما الوقوعَ في الحبِّ؛ وأنَّ لديهما جسدين ورغباتٍ، ولهما حياة مستقلَّة عن سائر أفراد العائلة.

الآن، أنظر إلى الدَّرج ولديّ رغبةٌ عارمة في تحطيمه، كما حطّمت الكثير من أصنام الماضي، لكنَّه يظلُّ صامدًا بفضل أفراد العائلة، وخصوصًا والدي، الذي يرى التغيير والتجديد مخيفَين، والثباتَ مقدَّسًا، والقديمَ تراثًا وجزءًا من حميميَّة الذاكرة، حتى لو كان بضع درجات إسمنتيَّة، سيِّئة التشييد.

الفِناء الواسع في طرفه بوّابةٌ تطلُّ على الشارع، وهذه البوّابة دخلها فتياتٌ صغيرات، يحمرُّ وجهي ويسخن عند رؤيتهنَّ. كانت الواحدة منهنَّ حين تلتقيني مصادفةً، تقول لي: نوح، سنسرق شامتك. لأنَّه كانت على وجنتي اليمنى شامةٌ كبيرة، ينجذبن إليها بصورة لم أفهمها. حينها أدخل في دوّامة بكاء، وأتخيَّل الأصابع الناعمة تتحوَّل إلى كمّاشات، تُطْبِق على الشامة لتنتزعها.

ذات يوم وجدتُ صفًّا من الورد الجوري يمتدّ من البوّابة حتى رأس الشارع. كانت الشجرة التي في الفِناء خضراء بأوراقها اليانعة،

لكنَّها من دون ورد. تتبَّعت الخيط إلى أن وصلت إلى نهاية الشارع، ونهايتُه داخل مقبرة مشجَّرة، مليئة بالأعشاب والنباتات كأنَّها حديقة. هناك اغتُصبت من ثلاث بنات، قمن بتكميم فمي، وتثبيتي على الأرض. شعرت بالأشواك تنتزع لحمي، متضافرةً مع الأظفار المطليَّة التي تخرمشُ مثل القطط. أخرجن عضوي من البنطال وتحسَّسنه، داعبنه، لثمنه، كأنَّه كنزٌ ثمين مدفون. يومها نما شيء ساخن ومؤلم في داخلي، راح يكبر مع مرور السنوات. لقد اغتُصبت على مرأى من الله والعالم من ثلاث كائنات جميلات، وأنا في بداية طفولتي.

تحالف كلّ شيء، ليصنع منِّي مخلوقًا يعشق الأدب والنساء والطبيعة.

بعد المقبرة، يقع مسجد البلدة القديم، حيث صلّينا وحفظنا القرآن واغتُصبنا. في ذلك البناء الإسمنتيّ الضخم، الذي تعلوه قبَّة خضراء غير مرئيَّة لصِغَرها، ومئذنةٌ بسمّاعات تتجاوز عدد الأصابع، كوَّنت صداقات في مركز تحفيظ القرآن، الذي دخلته وخرجت منه عدَّة مرّات.

كنت أصل في الحفظ حتى الجزء الخامس، ثم أترك وأبدأ من جديد حين يأتي شيخ آخر. سُعدتُ فقط مع الأوَّل، آذنِ المسجد ومؤذّنه؛ رجل طيِّب. أمّا من أتى بعده، أولئك الذين طردوه بخبثهم وأساليبهم الشيطانيَّة، ثم استولوا على المسجد رافعين راياتِهم داخله، فقد كانوا حزبيِّين، يبحثون عن مصالحهم الشخصيَّة.

كان الشيخ معاوية، معلِّمَ الدين في مدرسة القرية، وعضوًا ناشطًا في حركة «حماس». كان لوطيًّا يتحرَّش بالطلّاب والأولاد الذين

يتردَّدون على مركز التحفيظ. كرهني لأنّي متمرِّد وتظهر عليَّ علامات اللاتديُّن. ذات عصر، حين كنّا نجلس على الكراسيّ الخشبيَّة، نستمع إليه في أثناء أحد الدروس الدينيّة، وكنت أيّامها طالبًا في الصفّ الثامن، نظر إليَّ ثم سألني باستهزاء: كيف تكتب ها؟ هل تتجه إلى القبلة؟ ما رأيك في مفاوضات أبي مازن؟ صرخت به: أتيت هنا لأحفظ «سورة يس». قالت لي أمّي: اذهب إلى المسجد واحفظها، فإنَّها نور في حياتك وبعد مماتك. شو دخّلني بأبو مازن؟

لطالما سخر من القصيدة التي كان يرى فيها تهديدًا للعقيدة والعالم الإسلامي، فقد قال لي أكثر من مرَّة إنَّ الشِّعْر باب المهالك. وهذا النصّ، القصيرُ المفكّك، الذي كنت أسمِّيه قصيدة، لقد انبثق منّي، وشعرت بأنَّه ينتمي إليّ، ولن أسمح لأحد بأن يؤذيه. وعلى الرَّغم من ضَعفه وركاكته فإنّي كنت أحبّه؛ فقد وجدتُ فيه هويَّتي.

كان هذا الشيخ الملتاث بلوثة الكبت الجنسيّ، يمدُّ يده إلى مؤخّرات الطلّاب المصدومين، ويحشرهم أحيانًا بين المقاعد. يحكّ عضوه بأجسادهم الصغيرة، ويعبث بها كأنّها من أملاكه الخاصَّة. ذات يوم، ذهبت أنا وزميلي إلى سكرتير المدير وأخبرناه بالأمر، فجاء الأستاذ معاوية إلى الصفّ بوجهٍ أحمر من الخزي، ثم لم يعد إلى ما كان يفعله، لكنَّه استمرّ في التحرُّش واغتصاب آخرين في المسجد. بعدها نشأت بيني وبين رجال الدين عداوةٌ.

فهمتُ ما هو النفاق والخداع باسم الدين.

منذ صِغَري وأنا أرى أمّي ترتدي الحجاب داخل البيت، لا تنزعه، حتى في عزِّ الصيف. بدا لي الحجاب جزءًا لا يتجزَّأ من

جسدها. وكانت لا تنقطع عن الصلاة، بل تستعدّ لها. قبل رفع الأذان بنصف ساعة، تتوضَّأ وتجلس على كرسيٍّ مستقبِلةً القِبْلة، ثم تكمل القراءة كعادتها في القرآن الكريم، وكانت تذكِّرني بالصلاة عند كلِّ أذان، وفي كلِّ مناسبة، على العكس من والدي، الذي كان يحافظ على صلاة الجماعة في المسجد، لكن نادرًا ما يذكِّرني بها.

في كلِّ حال، كانت عائلتنا محافِظة كأغلب عائلات الريف الفلسطينيّ؛ تحافظ على أداء الصلاة وصوم رمضان، ويشغل بالَها الحلالُ والحرام. وكان لا بدّ من أن ترتدي الفتيات الحجاب قبل بلوغ الخامسة عشرة. تمارس كلّ أساليب الترغيب والترهيب الممكنة. أختي التي تكبرني بعامين، كانت الأكثر عنادًا، إذ رفضت أن تتحجَّب، على الرَّغم من التخويف من جهنَّم وغضب الوالدين، ولم تأخذها رومانسيّاتُ الإسلاميين، وشعاراتهم: «أختي المسلمة، حجابك رمز عفافك»؛ «أختي المسلمة، لا تكوني مثل حبّة الشوكولاتة المكشوفة»؛ «لا تكوني فريسة للذئاب».

ارتاعت أمِّي من فكرة عدم ارتداء شذى حجابَها، وخصوصًا بعد ثرثرات نساء القرية: «حان الوقت لتتحجّب»؛ «لقد كبرت، ولم تعد صغيرة»؛ «لن يتزوَّجها أحد». تناقشت مع إخوتي في الأمر، الذين تحالفوا لإقناعها وإجبارها. وفي النهاية، رضخت وارتدت إيشاربًا أحمر اللون. أتذكّره بأزهاره الملوّنة وشراشيبه المجدولة. كانت حزينة لأنَّها لم تمتلك حقّ الاختيار. ربَّما ارتدته في زمن ما، لو أنَّهم تركوها ترتديه بقناعة. الغريب في الأمر، أنَّ شذى بعد سنوات، أصبحت من أكثر الداعين إلى ارتداء الحجاب. تحوَّل غطاء الرأس بالنسبة إليها إلى امتياز ونقطة تفاضُل على الآخرين.

ذات يوم، عندما احتدَّ النقاش، قلت لها: يبدأ الأمر بالرفض، ثم التقبُّل، وينتهي بالدفاع عنه باستماتة. ثم ذكَّرتها، كيف كانت متمرِّدة على العادات. تلعب كرة القدم وتحبّ السباحة، وتقود الدرّاجات الهوائيَّة، فشتمتني. يومها، انكسر شيء في داخل كلٍّ منَّا. كانت أقرب الناس إليّ، فبدأت الفجوة بيني وبين الدين بالاتِّساع والتعمُّق أكثر.

كانت طفولتي عبارة عن تقلُّبات بين حياة الشارع والمسجد. أين يمكن للمرء أن يذهب في القرية؟ الأماكن محدودة، والمسجد أفضلها، حيث البرودةُ والماء والهواء المنعش والأحاديث التي يتهامس بها المصلُّون قبل كلّ صلاة. لا أدري، لماذا ارتبط الشذوذ الجنسي ـ لديَّ على الأقلِّ ـ بالمسجد، ولم أفهم هذه «البيدوفيليا» المريضة عند بعض المصلِّين تجاه الأطفال الذين يذهبون إلى الصلاة. ذات مرَّة، وأنا خارج من المسجد، رأيت شيخًا طاعنًا في السنِّ، مدّ يده إلى جيب قمبازه، تحسَّس شيئًا ما، ثم أخرج منه خمسة شواقل ودفعها نحوي. أشار إليَّ بإصبعه الوسطى بإشارة، فهمت منها أنَّه يريد أن يمرِّره على مؤخِّرتي، وخصوصًا بعد أن أشار إلى الحمّام، قائلًا: يلّا نروح نلعب، بس شوي.

صرخت به وشتمته، فاندفع نحوي المصلُّون، وطردوني لأنِّي رفعت صوتي في وجه شخص، كانوا يعتبرونه من كبار القرية وشيوخها. وعندما أخبرت أمِّي بالأمر، وكانت حينها ممدَّدة على حصيرة إلى جانب الباب، وقفت فجأة ثم ذهبت إلى المطبخ، وأحضرت سكِّينًا تستخدمه عادة في فرم اللحوم. أمسكت بي وقطعنا شوارع القرية، حتى وصلنا إلى بيت العجوز. طرقت على الباب وحين فتحه، رفعتِ السكِّين في وجهه، وقالت له: إذا وصلني إنَّك مدِّيت

إيدك على الولد، رح يكون آخر يوم في حياتك.

وكان يعرف أنَّها جادَّة، فلم يعد إلى مضايقتي. فيما بعد، قالت لي: لو كانوا عشرة، يريدون تشليحك البنطلون، اضرب واحد واهربْ. كُلْهم بأسنانك، بس ما تخلّي حدا يلمسك.

وقبل أن يحدث الاقتتال الداخليّ، يوم ذَبحَ الأخُ أخاه، كان يسيطر على المسجد أنصار حركة «حماس»، فيرفعون الرايات الخضراء على المنبر، ويوزِّعون المناشير الحزبيَّة بعد صلاة الجمعة. أذكر أنَّهم كانوا يضعون برامج لإحياء ليالي رمضان، وخصوصًا ليلة القدر، تبدأ بعرض فيديوهات للموت، بتنويعاته: الدَّهْس؛ الذَّبْح؛ الموت في أثناء مباراة كرة قدم؛ انهيار قاعة ديسكو؛ تصادم قطارين؛ غرق القوارب المطّاطيَّة في عمق البحر. فنرى أجساد المهاجرين، وهي تطفو فوق الماء بمشهديَّة كاملة. أخيرًا كان يُعرَض لنا اللحظات الأخيرة لاستشهاد المجاهدين في جبال أفغانستان وغابات الشيشان.

فيلم رعب مدَّته ساعة كاملة، تليه فقرة استماع إلى كاسيتات أحمد كشك، الذي يسمُّونه فارس المنابر. وكان الفارس يتحدّث عن عذاب القبر، ترافقه جوقة من النحيب والصراخ والأصوات المخيفة، التي بدت لنا نحن الأطفال، كأنّها قادمة من أعماق الجحيم. فتخيّلت الله واقفًا في وديان جهنّم، يضرب الناس بالسياط. وخطرت في بالي أفلام الكرتون التي كنت أشاهدها على قناة «سبايس تون».

والحقيقة تُقال: كانت الأجواء رهيبة: خطبة عن القبر؛ أصوات مخيفة. وذلك كلُّه حدث في العتمة. وعندما حاول أحد الأشخاص إشعال الضوء، اتّهموه بأنَّه يسعى إلى إشعال الفتنة وشقّ صفوف

المسلمين. لم أفهم كيف يمكن للضوء أن يشقّ صفوف المسلمين!

لم أعد أرغب في الذهاب إلى المسجد، وأصبحت أفضّل اللّعب مع الأصدقاء والخروجَ إلى البرّيّة. ثم عندما عرفت الكتب، وجدتُ آفاقًا أرحبَ. أحسست بأنّ ثمّة أشياء جديدة، متعةً خالصة، لم أجدها في التديُّن.

أصبح الدين بالنسبة إليَّ أمرا ثانويًا. لم يعد يشغل بالي، وما عدتُ أُمارس الشعائر الدينيّة كالصلاة والصوم، إلّا فيما ندر. أكتفي بصيام شهر رمضان والصلاة فيه. تغيّرتُ. أصبحت متمرِّدًا على العادات والتقاليد، وشعرت بملل إزاء الدين وأفكاره.

كانت خُطَب الجمعة مكرورةً، لا جديد فيها؛ مملّة؛ يتحدّث فيها الخطيب عن النساء المتبرِّجات، والشبابِ الذين يُمْضون وقتهم في السهر ومشاهدة المباريات، ثم يُرجع كلّ الهزائم والمشكلات، مهما بلغ حجمها، إلى البُعد عن الدين وعدم الحكم بما أنزل الله. يكرِّر أسطوانة المؤامرة من الغرب، مملكةِ الشيطان، والمغضوب عليهم، نصارى ويهودًا وعلمانيِّين وشيوعيِّين، ثم يكفِّر، من دون إيضاح، سائرَ المجتمع. فأسأل نفسي عن أولئك المختارين إن استثنينا كلّ هؤلاء الشرائح من البشر!

تحدّث الخطيب في الدين والسياسة والاقتصاد والطبّ، موظِّفًا كلّ ما هو سطحيّ وغير موثوق به علميًا، ليعزِّز كلامه. ذات مرَّة، تحدّث عن فوائد الصيام على العيون والمَعِدة والكبد، حتى وصل إلى الخصيتين. وقف له أحد المصلِّين وكان طبيبًا، وقال له إنَّ 99% ممّا تحدّث به خاطئ. وحاول الطبيب إنزال الخطيب عن المنبر، في مشهد

كوميديّ، أضحك أكثر الحاضرين إيمانًا.

ذاتَ مرَّة، سمعت لعنات وشتائم بحقِّ الذات الإلٰهيَّة، في الشقِّ الآخر من المسجد. كان الأمر مخيفًا، والصوت عاليًا، فهرع المصلُّون نحو الرجل، ضربوه، ثم سحبوه من قدميه إلى الخارج. بعدها عرفت أنَّه تقدَّم خلف الإمام للصلاة، فأرجعه أحد المصلِّين إلى الصفوف الخلفيَّة، وكان الرجل من المتعارف عليهم بـ «قلَّة الدين»، وتدور شائعات عن معاقرته الخمرَ، والزنى بالنساء المطلَّقات. ربَّما كان تائبًا، وظنّ أنَّ قربه من الإمام، سيقرِّبه بطبيعة الحال، إلى الله نفسه. ثم بعد ما حدث له، لم أرَه مرَّة أخرى في المسجد. ربَّما لم يجد الله هناك، فذهب يبحث عنه في مكان آخر.

شعرت بأنَّ ثمَّة شرخًا بين النصّ والواقع؛ بين ما نسمعه في الدروس الدينيَّة، وما نعيشه في البيوت والمقاهي والشوارع. وكانت الأجوبة الجاهزة، المبسَّطة، عن أسئلة الوجود والعالم، تُثير في نفسي الشكَّ. إنَّ الأمور أكثر تعقيدًا، من تنظير سطحيّ، في جلسة رجال دعوة، أو شيوخ قرية، أو طلّاب كلِّيّات الشريعة.

وكان التقسيم الحادّ للعالم والبشر يُثير غيظي: خير وشرّ؛ نور وظلام؛ مؤمن وكافر؛ شريفة وعاهرة؛ تقيّ وفاسق. لم أجد رجل دين أو منتسبًا إلى إحدى الحركات الإسلاميَّة، يَفهمني كمراهق، بكلِّ ما أحمله من ضجيج وصخب ومشاعر. وجدت الشعراء والروائيِّين كائناتٍ لطيفةً، تنشد الجمال، وكلماتهم تمسُّ أوتارًا خفيَّة في داخلي. قالوا لي إنَّ الإنسان ملاك وشيطان، وكلّ شيء في الحياة نسبيّ، والإيمان الأعمى مصيبة المؤمن.

ربَّما كنت متحرِّرًا من الدين، على الرَّغم من مُوضة الالتزام الدينيّ، التي بدأت في نهاية التسعينيّات، وبداية الألفيَّة الثانية، لكنِّي لم أكن منتميًا إلى أيِّ حزب سياسيٍّ فلسطينيٍّ، يتبنّى أفكارًا تحرُّريّة بعيدة عن الدين، مثل الجبهة الشعبيَّة أو حزب الشعب، ولم أتَّخذ ماركس إلٰهًا. أردتُ أن أكون حرًّا؛ أحلِّق وحدي، بعيدًا عن أيِّ قطيع.

* * *

يقع قبر جدِّي إلى جانب مسجد القرية. يبدو أطول من سائر القبور، في منتصفه صحنٌ معدنيٌّ مليء بالماء. أتخيَّلُ جدِّي ينهض من قبره، مرتديًا القمبازَ والحطَّةَ البيضاء، يعتلي حصانه ذاهبًا إلى أرضه. هناك، زرع الزيتون واللوز والرمّان، وبنى السقائف، ووضع فيها جِرارًا للنحل. قال لي أبي إنَّ جدِّي قد تنبّأ بمصير أرضه بعد أن سيطر اليهود على قمَّة الجبل المقابل، ووضعوا فيه ثلاثة كارڤانات. كان يعرف أنَّ المستوطنة ستتوسَّع بمرور السنوات، لتلتهم المزيد من الأراضي.

بينما تُنير القريةُ بيوتَها بمصابيح الكاز، كانت المستوطنة مشتعلة بلمبات الكهرباء، ثم راحت أبنيتها العصريَّة، المنظَّمة، بحَجرها الأبيض وقرميدها، تزحف على قمَّة الجبل حتى وصلت إلى قمم الجبال الأخرى. الشوارع النظيفة، البرّاقة، تتوزَّع داخل المستوطنة، وعلى جانبيها صفوف من الأشجار. الأعلام الإسرائيليَّة الزرقاء ترفرف فوق أعمدة الكهرباء وعلى مداخلها وأبراجها.

كنت أقول لنفسي، كلَّما ذهبت إلى أرضنا، ونظرت إلى المستوطنة، إنَّ هذه المستوطنات جزء من إسرائيل، بل هي إسرائيل

الأيديولوجيَّة، حيث السعيُ الدؤوب للتوسُّع في الأراضي العربيَّة عبر احتلالها. غدًا، سنجد مستوطنات في الأردن والعراق وسيناء، كما هي الحال في الجولان.

بعد سنوات، اقتربت المستوطنة أكثر من أرضنا.

ذاتَ صباح، سمعنا طَرْقًا عنيفًا على باب دارنا. أخبرنا أحد الأهالي بأنَّ الجرّافات تقتلع أشجار الزيتون من أرضنا، لإقامة شارع أمنيّ جديد حول المستوطنة. ركضتْ كلّ القرية إلى هناك. وحين رأيت الجرّافة الإسرائيليَّة تجرف أرضنا، مُقتلِعَةً أشجارَ الزيتون، شعرت بأنَّ قلبي اقتُلع من مكانه. رأيت أبي يقف أمامها محاولًا منعَها من الوصول إلى أشجار أخرى، بينما كانت أمّي تعانق الشجر المقلوع. جذورها خرجت فوق التربة، والغصون المكسورة تهدّلت إلى الأسفل. مظهرها، وهي محنيَّةٌ بعد أن ظلَّت شامخة طوال عقود، يدفع المرء إلى الجنون.

منذ تلك اللحظة، أصابت أبي كلُّ الأمراض التي يمكن تصوُّرها: السكَّري؛ ضغط الدم؛ ضَعف في الرؤية والسمع؛ وجع في المفاصل، وأمراض القلب. كان يموت في اليوم ألف مرّة وهو يرى الأرض التي أحبَّها وعاش من أجلها، تضيع سنة بعد سنة. هؤلاء الغرباء القادمون من أوروبا، يستوطنون أرض أجداده، محاولين السيطرةَ على كلِّ شيء. ذات يوم، هجم مجموعة من المستوطنين وأحرقوا جزءًا من أرضنا. حتى أطفالُهم، أمسكوا بحمارتنا الطيِّبة. يا الله، كيف عانقوها وأمسكوا بها من رَسَنها وسحبوها. كانوا يصرخون: إنَّها لنا، إنَّها لنا. حتى الحمير لم تسلم من أكذوبتهم!

في كلِّ مرَّة، يجلس فيها والدي على سطح منزلنا، ويرى فيها أضواء المستوطنة، كان يقول: ماذا تبقّى من فلسطين؟ حينها كنت أنظر إلى أضواء المستوطنات المنتشرة على قمم الجبال وأعدّها، فأجدها أكثر من أضواء القرى الفلسطينيّة، فأقول لنفسي إنَّ المستوطنات، التي لم تكن تُقلقنا، أصبحت أكثرَ خطورة. إنّها كارثة.

ذات صباح، حاول أخي رفع العلم الفلسطينيّ فوق سطح الدار، حين مرّت دوريَّة عسكريَّة من الشارع المقابل. توقَّفت الدوريَّة، ونزل منها خمسة جنود مع بنادقهم. ضربوا الباب ببساطيرهم العسكريَّة صارخين: «افتخ باب، افتخ باب». أمسكت بثياب أمِّي واختبأت خلفها. عندما دخلوا الدار، سألوا عن الشخص الذي رفع العلم. أنكرنا وكذَّبناهم، لكنَّهم على ما يبدو عرفوا أخي من لون ملابسه. أمسكوه وجرُّوه على الأرض. ووسط الصراخ ومحاولة سحبه من بين أيديهم، راحوا يضربونه بأعقاب بنادقهم على كتفيه وصدره، ثم تركوه ينزف، وخرجوا.

ظلَّ أخي منطويًا على نفسه سنواتٍ جرّاء الحادثة، قبل أن يعود إلى الحياة بالتدريج. أحدثت الضربات جروحًا ونزفًا داخليًّا، كما فَقَدَ جزءًا كبيرًا من حاسّة السمع.

(4)

وُلدت أمّي خديجة بعد النكبة بسنتين. درست في مدرسة القرية، ولم تكمل تعليمها كأغلبيَّة البنات في ذلك الزمن، إلَّا أنَّها كانت تختلف عن بنات جيلها، فعوَّضت ذلك الحرمان بشغف كبير للقراءة، فأثَّثت مكتبتها بعشرات الكتب العلميَّة والأدبيّة، قبل أن تُحرَق وتتحوَّل إلى رماد.

وُلدت يتيمةً، ولم يحالفها الحظّ لتنادي «يابا». الفقر وعدم وجود خيارات، دفعاها إلى الزواج في سنٍّ مبكرة. فما إن أنهت الثانويَّة العامَّة حتى تزوَّجت. قالت لي أكثر من مرَّة، إنَّها أحبَّت والدي بعد أن رأت قدميه. كانت أمّي خجولة، ولم يكن للبنت الحقُّ في أن تجلس مع خطيبها، لذلك لم ترفع عينيها إلى وجهه، واكتفت بالنظر إلى قدميه، فوقعت في حبِّه من أوَّل خطوة قدم.

كانت تحلم بأن تكمل تعليمها، وتصبح كاتبة تنشر قصصها في المجلّات والجرائد، لكنَّها أصبحت ربَّة بيت. تزوَّجت من القرية

ذاتها، وعاشت مع زوجها حياة قاسية، لأنَّ أبي لم يكن يثبت في عمل واحد. فما إن ينتهي موسم الزيتون، حتى ينطلق في سلسلة أعمال لا نهاية لها: عامل بناء؛ غاسل سيّارات؛ بائع متجوِّل؛ نادل في مطعم. وكان كثير التنقُّل بين المدن في الضفّة الغربية والداخل المحتلّ.

تعرَّض للاعتقال من قوّات الاحتلال أكثر من مرَّة، فكان يخرج من السجن أقوى شكيمةً، كأنّه رجل آخر. وكان على أمّي أن تُعيد فهمه وبناءَ علاقة مودَّة معه، لأنّه كان من أولئك الأشخاص الذين يَصعُب فهمُهم.

لطالما أحبَّت مساعدة الآخرين، فتشارك في أعراس القرية وأحزانها. تزور المريض وتقدِّم الطعام والمال إلى مَن هم أكثر حاجةً منها. ذات يوم، سمعنا صراخًا يخرج من بيت الجارة؛ عجوز وحيدة، لم تتزوّج، تعيش في بيت حجريٍّ كبير من طابقين. هرعت أمّي إليها، فوجدتها ممدَّدة على أرض الساحة، ترفع قَدَمها اليسرى إلى الأعلى، وتصرخ بأعلى صوتها «ياا نااس، تعالوا رح أموت».

رأت أمّي إلى جانبها عقربًا سوداء بحجم اليد، فتقدَّمت منها وسحقتها بأصابعها، ثم امتصَّت السمّ من قدم الجارة وبصقته على الأرض. كان السمُّ أخضر اللون، لزجًا، أخذ شكل الدودة للحظات قبل أن يتحوَّل إلى بخار، أمّا العقرب فقد تيبَّستْ، وبدت كأنَّها مصنوعة من حديد.

قالت العجوز إنَّ إحدى نساء القرية؛ «المشعوذة»، كما وصفتها، هي التي دبَّرت هذا العمل السحريّ، فأدخلت هذا الكائن الملعون على هيئة عقرب، لينتزع روحها. وذات مرَّة، جاء سامر الشعنون راكضًا من

حقله إلى أرضنا؛ رجل قصير، سمين، أعرج، يعاني حَوَلًا في عينيه. كان مرعوبًا ويرتجف طوال الوقت. بعد جهد، قال إنَّ الشجرة الملعونة، تحوّلت إلى ما يشبه جسد المرأة. أغصانها كانت بمثابة الأذرع، لكنَّها ليست من لحم ودم، بل أفاعٍ سامَّة مرقَّطة بالأصفر، التفَّت حول عنقه، وكادت تخنقه.

تركته أمِّي ممدَّدًا على أرض الصالون، يبحلق في السقف والصُّوَر المؤطَّرة على الحائط. ذهبت إلى المطبخ ووضعت بعض الأعشاب في المقلاة، ثم تركتها خمس دقائق، وعادت بالمقلاة ووضعتها إلى جانب الرجل، وانتظرت إلى أن أصبحت المادَّة باردة، ثم قالت له: أغمض عينيك وردِّد ورائي:

«أمّنا الأرض، إنَّها نعمتنا ونقمتنا، بَرَكتنا ولعنتنا، لكنَّنا نحبُّها من القلب وإليها مصيرنا».

ثم راحت تمسح على رقبته بتلك الأعشاب الخضراء المقليَّة، وهي تردِّد بصوتٍ خفيض كلمات لم أفهمها. في اليوم التالي، جاء الرجل إلى بيتنا، وذبح خروفا عند العتبة، ثم وزّع لحمه على أهالي القرية. أخذ يقول للناس: إنّها امرأة مبارَكة، أنقذتني من الموت.

قالت لي أمِّي، فيما بعد، إنّ حياة الناس مليئة بالأوهام، والجهلُ منبع المصائب. وحين سألتها عن السبب الذي يدفعها إلى مساعدتهم بهذه الطريقة، قالت لي إنّها لو أخبرت جارتنا العجوز بأنَّ العقرب حقيقيَّة، وليست من عمل امرأة أخرى، وقد تسلَّلت من شقوق وحدتها إليها، لرمتها بالحذاء وطردتها من البيت، لأنّها تريد أن تسمع ما يعزِّز فكرتها عن المرأة التي تكرهها.

وسامر الشعنون. إنَّه يُمْضي أغلب وقته في الأرض، فيُخيَّلُ إليه أنَّ أصوات الحشرات هي أصوات كائنات غريبة، ويرى الأشجار على هيئة نساء شرِّيرات، لأنَّه لم يحبَّ، ولم يتزوَّج. المرأة، بالنسبة إليه، أُمّ المكائد والشرور. إذا قلت له إنّ كلّ ما تقوله، يا شعنون، ليس أكثر من أوهام، لقتلنا أنا وأنت بفأسه، وأطعم الكلاب لحمَنا.

«أنتِ تقرئين ولديك المعرفة، لكنّك بهذه الطريقة تخدعين الناس».

«لن أترك لحم أطفالي الصغار طعاما لكلاب الشعنون. إنَّ العلم يتلقّاه مَن لديه رغبة عميقة في التعلّم، وهو لمن يستحقّه. إنَّ العالم غابة، لا أريدكم أن تنتهوا في حفرة».

كانت الجارة العجوز تُكثر الحديث عن المَزار، وهو مغارة في أحد جبال القرية، فيه قبور أولياء الله من أهل التقوى، تقول: المَزار يظلُّ مضاءً بنارٍ لا تنطفئ، لأنّها تستمدُّ نورها من الله مباشرة. وخلال شهر رمضان، يتحوّل إلى واحة غنيّة بالفاكهة والخُضَر: عنب؛ موز؛ خوخ؛ طماطم. تتفجّر في داخله ينابيعُ مياهُها شديدةُ العذوبة، وبذلك يصبح المزار حجرة من حجرات الجنّة، لكن تنقصه النساء، لأنَّهنَّ غير طاهرات، والمكان لا يدخله إلّا المطهّرون.

قال بعض الأهالي إنّ العجوز تعبد الشياطين، وتتعامل مع الجِنّ، إلّا أنَّها تدَّعي الإيمان، وهذا أمر لا يدخل رؤوسهم. يقولون: تتحدَّث عن مَزار لم يرهُ غيرها، وعن حُجرة من حجرات الجنّة، وملائكةٍ على هيئة أطفال بأجنحة بِيضٍ، لكنّنا لم نرَ غير عقارب سُودًا، سُمُّها ذو لون أخضر، لزج، يتحوّل إلى بخار، بينما تتحوّل العقارب نفسها إلى

بلاستيك أو حديد. رأينا كلابًا، بعين واحدة وخمس أرجل، تجلس على عتبة بيتها، ومَعْزًا قليلةَ اللحم، غزيرةَ الشعر على القدمين، لها قرون طويلة، تخرج من الحوش الداخليّ. إنَّها مشعوذة، ستقتل أطفالنا، وتأسر زوجاتنا ليتحوَّلن إلى بغايا، يستمتع بهنَّ الجنّ الأزرق.

ذات يوم، قرَّر أهالي القرية حرق العجوز داخل بيتها، لتنتهي هي وكلّ الأشياء التي تقربها بصلة. بعد منتصف الليل، التقوا في وسط القرية حاملين المشاعلَ، والفؤوسَ، ثم ذهبوا إلى بيت العجوز صارخين باللعنات والشتائم. عندما وصلوا إلى العتبة، خلعوا الباب بفؤوسهم، ودخلوا غرفة نومها، ثم سحبوها على الأرض وهي في قميص نومها، ورموها في حوش الدار. ضربوها، وسكبوا عليها الكاز، ثم أحرقوها فامتدَّت النار ملتهمةً نصفَ الحيّ.

قيل إنَّ ما حلَّ بالقرية بعد ذلك، من جفاف وموت المواليد وخطفِ العذارى وانحباسِ النعاس، كان بسبب العجوز الملعونة، بحيث إنَّ الأهالي لم يعرفوا طعم النوم طوال أسابيع، إضافة إلى الفواكه والخُضَر التي كانت تتعفَّن في الأرض وهي في بذورها، والنارِ التي لم تعد تُدفئ أو يُستفاد منها في الطبخ وتسخين الماء، الذي أصبح هو الآخر ملوَّثًا، ولونه أسود.

* * *

كانت أمِّي تقرصني في منطقة البطن، حين تريد معاقبتي. ذات مرَّة، قرصتني في بطني بقسوة، وهي تصرخ: كيف بتعمل الوساخة مع بنت الجيران؟

كنّا نلعب الألعاب المعروفة لدى الأطفال: لعبة العريس

والعروس؛ الطبيب والمريضة، لنكتشف أجسادنا خلسةً بعيدًا عن الأهل. أدركنا ببراءة أنَّ في وسعنا أن نحتال على أكثر الأشياء خطورة، حين لا نأخذها على محمل الجدّ، فنتسلَّل إليها ونعبث بها باللعب والهزل. أحد المارِّين بالمكان، رآني ألتصق بها من الخلف، وأنا أؤدّي دور الدكتور، بينما كانت تقول: ضع الإبرة يا دكتور في مكانها.

عادت أمِّي وسألتني مرَّة أخرى: من وينتى بتقرّب على بنات الناس؟

«فقط لعبنا»، قلت لها.

«شو بدّك يحكوا عنّا الجيران؟» وعادت تضربني هذه المرَّة بفردة حذائها.

جلستُ ليلتها حزينًا على سطح الدار، وأنا أفكِّر في الأجساد التي لا يجوز الاقتراب منها. أخذت أتخيّل الجسد يتحوَّل، مع مرور الوقت، إلى شيء طريٍّ وليِّن في صندوق، والصندوق داخل ألف صندوق، وعلى باب كلّ صندوق قُفلٌ معدنيّ، والصناديق كلّها في قبر مغلَق بإحكام.

رأى أبي الحزن على وجهي، وكان كثير الترحال، يعرف الجسد وآلامه. ضمَّني إلى صدره، فسألته: ألن ألعب مع مَيس بعد اليوم؟ «لا، انتهى اللعب مع البنات، يا ابني. لقد كبرت، وأصبحت رجلًا».

سمعت أمِّي تقول له في غرفة النوم: «ستُفسد الولد بدلالك. لا أريده أن يصبح زِير نساء». لن أنسى هذه الكلمة «زير نساء» التي رحت أبحث عن معناها، سائلًا مَن هبَّ ودَبّ. قال لها: إنَّه ولد، لا تكبِّري الموضوع.

قالت له: «أعرف لماذا تذهب إلى تلّ أبيب ونتانيا، للعمل ها! بينما الآخرون يعملون أنت تكون مشغولًا بنكاح اليهوديّات. أعرفك، لم ننتهِ بعدُ من فضائحك مع منظِّفة المراحيض». بعدها، سمعت صوت صفعة، دوَّت في أنحاء الغرفة، وصراخًا وسُبابًا، ثم رأيت أبي يخرج من الغرفة ببطّانيَّة ووسادة. نام تلك الليلة في الصالون. لم أفهم يومها ماذا تعني تل أبيب، أو نتانيا، أو منظِّفةُ مراحيض. لم أفهم شيئًا، لكنِّي شعرت بأنَّ ثمَّة مشكلة كبيرة قد وقعت.

في الصباح، رأيتها تدور حوله، تحاول أن تراضيه. جهَّزت له قهوته الصباحيَّة، وأدارت له المذياع على صوت فيروز، ثم أخيرًا جلست إلى جانبه، وأخذت تمازحه حتى ضحك. قال لها معاتبًا: أذهب إلى إسرائيل وأتعرَّض للإهانة على المعابر، من أجل لُقمة العيش، وأنتِ تقولين كلامًا لا يجوز أن يُقال.

«إنَّها لحظة غضب، يلعن الشيطان».

كانت تحبّني وتنظر إليّ عبر نفسها التي لم تتحقَّق. في اليوم الأوَّل من دخولي المدرسة، اصطحبتني حتى البوّابة. وضعت قُبلة على جبهتي وقالت: أريدك في أعلى المراتب. لم أكن أحبّ المدرسة، لأنِّي كنت أراها سجنا كبيرا، بقوانين وأنظمة صارمة؛ مبنًى مسوَّرًا بجدران عالية، تعلوها أسلاك شائكة. كان الأستاذ أبو حنون، لا يترك الخيزرانة أبدًا، ولا تمرّ حصّة واحدة من دون أن يستعملها. ذات يوم، سألني: كم يساوي 4 × 4؟ عندما لم أعرف الجواب، كانت النتيجة 16 ضربة بالخيزرانة على رأسي. في المرَّة التالية، أنزلني إلى مخزن مظلم ومليء بالفئران، يقع مباشرة تحت غرفة الصفّ.

نجوت من الإصابة بالجنون، نتيجة الضرب والتصرُّفات غير الإنسانيَّة، لكنَّ ثمَّة طالبًا أُصيب بما يشبه البلاهة العقليَّة، لا أدري ماذا يسمُّونها. أصبح يفتح فمه مثل الكلب واللعابُ يسيل من أطراف فمه، مُصدرًا نباحًا مخيفًا.

عندما دخلت الصفّ السابع، بدأت علاقتي بالمدرسة تأخذ منحًى آخر، فقد أحببتها، وأصبحت حياتي تتمحور حولها. عشقت رائحة الكتب، وتلطيخ أصابعي بالحبر. كان الحبر سائلًا ذا تأثير سحريّ، تتوالد منه الكلمات والحكايات والألغاز الغامضة.

كان أبي يفتخر بالكتب التي أقتنيها، ويتحدَّث إلى ضيوفه عن شغفي بالقراءة، وموهبتي في كتابة القصص القصيرة، التي تدور أحداثها في أجواء غرائبيَّة، تتميّز بالغموض. شخصيّاتهُا أقزامٌ وساحرات ورجالٌ غريبو الأطوار وقاتلاتٌ محترفات وجنِّيّات وشياطين.

لمّا عرفت أنَّ البلديَّة افتتحت مكتبة صغيرة في مبناها، أصبحت أذهب إلى ذلك المعبد الصغير، الذي تفوح منه رائحة الكتب، معتكفًا طوال اليوم على قراءة الروايات ودواوين الشعر.

شعرت بالأمان والطمأنينة، ولم تكن لديَّ الرغبة في الخروج، حتى يقوم أمين المكتبة بإغلاقها. أقف على عتبات القصص؛ أركض وراء أحداثها؛ أجسُّ نبضها؛ أتخيّل عوالمها، وأرسم شخصيّاتها في خيالي. كنت أشعر بأنَّ الكلمات تتحوَّل إلى أشياء أخرى غير مرئيَّة، ما إن تخرج من فمي، فأقرأ بصوت مرتفع، حتى أستمتع بمذاق الحروف على شفتيَّ، وأسمع وَجيبها الذي يتردَّد في قلبي.

في طفولتي، صادقت الطبيعة، فكنت أُمضي أغلب أوقاتي بين الجبال، وكان الربيع أحبَّ الفصول إليَّ. أمَّا في ساعات المساء، فقد كنت أبتعد عن ضجَّة الحياة اليوميَّة، وأختلي بالأوراق وأقلام الحبر. أكتب على دفتر ذي غلاف جذّاب، مُصغيًا إلى الموسيقى المنسابة من الراديو.

ضيّعتُ نفسي في الحياة لأجدها من جديد. اعتقدت أنَّني، بهذه الطريقة، سأفلت من مصيدة الحياة، وأُولد أكثر من مرَّة؛ أتجدَّد وأنهض من تحت الرماد. عندما يكون العالم شديد الازدحام، أجدني وحيدًا ومنغمسًا في سؤال الذات. وعندما أشعر بأنَّ العالم أصبح ضيِّقًا ومنعزلًا، أفتح أبواب روحي على كلِّ التجارب والمغامرات الجديدة.

أردتُ الفوضى والحرِّيَّة؛ بمعنى آخر: أن أفعل الأشياء التي أحبّها. أصحو وأنام وآكل وأقرأ وقتما أشاء، وأعتنق الأفكار التي اقتنعت بها، من دون سلطة عُليا أو وصاية من خارجي. هكذا، أشعر بأنِّي كائنٌ حرُّ الإرادة، وغيرُ قابل للتدجين.

* * *

في طفولتي، كنت كثير الأسئلة؛ كلّ سؤال يودِّي بي إلى سؤال آخر. العالم عجائبيّ وساحر، وأمِّي المعلِّمة الأولى التي توجَّب عليها أن تُجيب عن كلّ أسئلتي. ذات يوم، سألتُها عن معنى اسمي، وكنت حينها في التاسعة.

ـ إنَّه اسم نبيّ.

ـ ماذا كان يعمل؟

ـ لا أعلم، لكنَّه صنع سفينة.

ـ كيف صنعها؟ هل هي كبيرة؟ أين ذهب بها؟

ـ كان نبيًّا في قوم لا يريدون الإيمان بما يؤمن به. وبعد أن قطع الأمل من ذلك، صنع هو وأصحابه سفينة عملاقة، على ظهر جبل. يُقال إنَّهم قطعوا بمناشيرهم نصف غابة. عندما انهمرت السماء بأمطار غزيرة بأمر من الله، وانفجرت الأرض بالينابيع، تحرَّكت السفينة وعبرت الماء، بينما غرق قوم النبيّ وبيوتهم وحيواناتهم وكلّ ما يملكون. غرقت الأرض بالماء، حتى لم يبقَ شبر واحد من اليابسة.

ـ هل أصبح النبيُّ سعيدًا بعد هلاك قومه من الأشرار؟

ـ لا أحد يصبح سعيدًا بهلاك الآخرين سوى الأشرار أنفسهم.

ـ لماذا أراد أن يؤمنوا بما آمن به؟

ـ أنت تُكثر من الأسئلة يا نوح، ستُتعبك عندما تكبر. لا تفكّر كثيرًا، هيّا، اذهب ونَمْ.

في إحدى الليالي الشتويّة، ونحن نتحلَّق حول كانون النار، أخبرتني أمّي عن كيفيَّة اختيار اسمي: عندما كنتُ أحملك في بطني، قبل مولدك بيوم، اشتعلت النار في البيت، ملتهمةً مكتبتي ونصفَ الأثاث. كانت شمس تمُّوز حارقة، والناس في بيوتهم يأخذون القيلولة. عندما سمعوا صراخي، ركض الأهالي إلى البيت، ثم تعاونوا، رجالًا ونساءً، على إخماد الحريق. كانت المياه المحمولة في دِلاء، من الآبار والمستنقع، تزيد النار اشتعالًا كأنَّها نفط، لذا تراجع الناس ولم يملك أحد الجرأة على سكب قطرة ماء. كانت النيران تلتهم البيت، ونحن لا ندري ماذا نفعل: ننظر إلى الحريق بعيون مليئة بالدموع.

نسيت أمّي إطفاء النار تحت وعاء الطهو، ويبدو أنَّ ألسنة اللهب ارتفعت حتى وصلت إلى الستارة المعلّقة تحت المجلى، ثم امتدّت إلى النافذة الخشبيّة، وبدأت ترتفع أكثر حتى التهمت بقيّة المطبخ. تقول أمّي: ونحن في عمق الحريق، رأينا الشيخ نوح، ينزل عن حصانه، ويتقدّم نحو النار بخطوات بطيئة. ابتسم لنا ودخل في عمق النار. اجتاز الغرفة الأولى، ثم الثانية، حتى وصل إلى المطبخ. عندما عاد كانت النار تنطفئ تدريجيًّا وراء عباءته الرماديّة. قال لنا: لقد احترقت المصائب باحتراق البيت.

نظرت أمّي إلى الشيخ ممتنَّة، وهي تمرِّر يدها على بطنها. في اليوم التالي، عندما كانت مشغولة بتنظيف البيت مع الجارات، بدأتُ أطرق على باب رحمها. هكذا، وَلدتني في الطريق قبل أن أصل إلى المستشفى، وسمَّتني باسم الشيخ نوح.

«هل الشيخ نوح مخلوق من ماء؟» سألتها.

«مثلما هناك مخلوقات لله من النار والتراب، لا بدَّ من أن يكون هناك مخلوقاتٌ أخرى لا نعرف عنها، مصنوعةٌ من الهواء والماء».

رحت أفكّر في الرجل المائيّ، الذي يتحوَّل جسده في ساعات الليل، إلى ذرّات ماء تختلط في مياه الأنهار والبحار، قبل أن تتجمَّع مرَّة أخرى. ثم ذهبت مخيِّلتي بعيدًا، فتخيَّلت أنَّ على الأرض أربعَ ممالك خفيَّة: مملكة النار؛ مملكة الماء؛ مملكة الهواء؛ مملكة التراب. وعلى رأس كلّ مملكة، ملكٌ مخلوق من المادَّة التي ينتمي إليها، وأنَّ ثمَّة صراعات تدور بين هؤلاء الملوك، لكنَّنا لا نراها، فالصراعات موجودة في كلّ مكان.

«ولهذا تدعونني بالنحس؟»

لم أفهم إن كانت أمّي تبكي أو تضحك. مسحتْ على رأسي وهي تقول: اذهب يا نوح إلى الدكّان، هذا شيقل لك.

كان لدى أمّي ماكينة خياطة، ترتق بها ثقوب ملابسنا، وتُفصّل بها ثياب نساء القرية، فأصبحت غرفة الخياطة مجلسًا لالتقاء النساء، حيث يتبادلن الأحاديث التي لا تنتهي، عن الأزواج والأبناء والأعراس والأوضاع السياسيَّة في البلد.

«ولدك جميل، يا خديجة، سيسرق قلوب البنات عندما يكبر».

فتركض أمّي إلى غرفتها، تُحضر البخور، وتصلّي على النبيّ، وهي تحرّكُ يدها كأنَّها تطرد كائنات غير مرئيَّة. «ابني سيصير كاتبًا، اسم الله عليه، مُولَع بالحكايات. ذكيّ وأحلى من القمر، الله يحميه من حسدكنَّ يا كلبات». فيما بعد، أغلقت أمّي غرفة الخياطة، موصدةً البابَ في وجوه الجارات ونساء القرية. قالت: أخاف عليك يا ولدي من الحسَد.

انشغلتُ عنها بالحكايات والألوان، بينما كانت تحرسني كملاك. أصبحَت مادّة سخرية لأعمامي وأهل القرية، لأنَّها أخذت تلاحقني في كلِّ مكان، باحثةً في ثيابي عن رائحة امرأة مجهولة «خذ حذرك من بنات الحرام، سيأكلن قلبك وعمرك». ذات يوم، زرعَت شجرة لوز في حاكورة الدار، وعلّمتني كيف أملأ الدلو بالماء، وكيف أسقيها وأحافظ عليها. قالت لي: «هذا درس أهمّ ممّا تأخذه في المدرسة. امنحْ يا بُنيّ، من دون مقابل. اصبرْ، تعلّم العطاء كهذه الشجرة. وستمنحك الحياة فيما بعد كثيرًا من الثمار الحلوة». أتت لي بصيصان صغيرة

وأرانبَ وعصافير وقطط، لتعلّمني الحبّ والخير بطريقة عمليَّة. كنت أُطعم الحيوانات وأسقيها؛ أراقبها حين تلعب وتتعارك وتتزاوج؛ أدرس حركاتها؛ أتخيَّلني عصفورًا أو قطَّة، فأنظر إلى الأشياء والعالم عبر عينيها.

توسَّعت مخيِّلتي، وتدفَّقت دماء كثيرة في قلبي. لم أعرف جدَّتي، لكن أمِّي كانت كلَّ الجدّات اللواتي لم أعرفهنَّ.

أخبرتني أمِّي بأنَّ جدَّتي كانت زعيمة في قريتها؛ امرأة قويَّة وعنيدة، يخافها أقوى الرجال. لذلك، كانوا يسمُّونها «الزعيمة»، على الرَّغم من قامتها القصيرة، إذ إنَّ طولها لا يزيد على قدم واحدة، وتملك شكلًا هزليًّا، يثير الضحك في أشدّ العابسين.

كان لديها قبيلةٌ من الأولاد، فقد كانت امرأة وَلودًا، تُنجب ثلاثة توائم دفعة واحدة. قالت لي إنَّها أنجبت أطفالًا غريبي الأطوار: طفلًا برأسين؛ طفلًا بعين واحدة؛ طفلًا له ثلاث أرجل، لكنَّهم كانوا يموتون ساعةَ الولادة. كائنات هشَّة، لا تملك أجهزة التكيُّف مع العالم، فانسحبت إلى العدم مبكِّرًا. كان «اللاشيءُ» مصيرَهم المحتوم، لأنَّهم ضعفاء وقوانين الطبيعة أكثر قسوة ممّا كانت تتصوَّر جدَّتي.

ما أثار استغراب أهل القرية، أنَّ بنيتها الجسديَّة كانت قويَّة، فكان من المتوقَّع أن تُنجب أطفالًا أقوياء. هناك الكثير من الحكايات التي تدور حولها، منها ما هو حقيقيّ، ومنها ما هو خُرافيّ. ذات مرَّة، سمعت أحد شيوخ القرية يقول إنَّ جدَّتي في شبابها، ذهبت برفقة خمسة رجال إلى الأحراج. وفي ساعات المساء، عاد الخمسة منهَكين، صارخين، ومصابين بالهستيريا، ثم انتشرت شائعة تقول إنَّها

إحدى ربّات الجنس، والنوم معها نعيم لم يَرَه أو يشعر به إنسان. فمن يَطَأُها ساعة الغرام يَطِرْ لبُّه ويُصَبْ بالجنون، لأنَّ ما يحظاه من المتعة يفوق أيّ تصوُّر بشريّ.

في إحدى المرّات، ربطت جدَّتي أحد أبنائها بشجرة كينا، ثم جَلَدَته بخيزرانة غليظة، لأنَّه سرق دجاجة من الجيران. بعد نحو أسبوع، كسرت جرَّة فخّار، أخرجت من جوفها قطعتين ذهبيّتين، واشترت خمس دجاجات وبقرة وغنمتين، ثم أوكلت إليه مهمَّة الاعتناء بها. كانت تغنّي لها «الشلاعيّات» كلّ مساء، وهي أغنيات حزينة تعود إلى فترة «السفر برلك»، خلال العهد العثمانيّ، حين فُرض فيها التجنيد القسري، فذهب الرجال إلى الحرب من دون أن يُعرَف مصيرهم، وسُمِّيت «الشلاعيّات» لأنَّها تشلع القلب.

تكاثرت الحيوانات بسرعة، فارتفع ثغاء الغنم وخوار البقر، في سماء القرية. كانت تتزايد كأنَّها أرانب، فأصبح لدى عمِّي ثروة هائلة، امتلك بها أراضيَ وماشية. لكنَّه أصبح طاغية، أعاد إلى القرية أساليب الإقطاعيِّين في التعذيب، فأقام بقلعة القرية، وهي قلعة ضخمة، فيها غرف للسجن والقتل بالخوازيق والمشانق. بدأ بجبي الضرائب من الفلّاحين. ثم بعد اشتداد ظلمه على الناس، ثار عليه أهل القرية والقرى المجاورة، فهجموا على قلعته بالسكاكين والفؤوس. قادت جدَّتي الثورة ضدَّ ولدها. وعندما أمسكته، قطّعته إربًا بسكِّين ذبح الماشية، ورمت لحمه للكلاب.

(5)

سبتمبر ٢٠١٣ م

كنت طالبًا في جامعة بيرزيت، التي كانت مدرسة، ثم أخذت تكبر وتتوسَّع حتى أصبحت أهمّ جامعة فلسطينيّة. تعتلي تلَّةً متواضعة الارتفاع، مسيَّجة بالأشجار، وأبنيتها تتكاثر بمرور الأيّام. قال لي أحد الأساتذة، بداية السنة الأولى: أحسنت الاختيار يا نوح، إنَّها البيئة المناسبة كي يتفتَّح عقلك. بعد ذلك، أدركت أنَّ هذا التفتُّح ليس بالأمر الهيِّن، حتى في جامعة، مثل بيرزيت.

في اليوم الأوّل من الدوام، ذهبت إلى مكتبة الجامعة، ودخلت قسم الآداب. مشيت بين الرفوف المليئة بالكتب، باحثًا عن رواية لاستعارتها، وخلال بحثي بين الرفوف، تقدَّمت نحوي طالبة تعمل في المكتبة في أثناء وقت فراغها. سألتني إن كنت أحتاج إلى مساعدة، ونصحتني بكتاب «الضوء الأزرق» لحسين البرغوثي.

خلال الفصل رأيتها بالصدفة في إحدى المحاضرات. كانت الأمطار تتكسَّر على نوافذ القاعة. مُحاضِر مادَّة العلوم الحياتيَّة أصلعُ، قصيرُ القامة. وعلى الرَّغم من ابتسامته التي عرفته بها، فإنَّه بدا عابسًا منذ ساعات الصباح الأولى. لا أدري؛ هل هو الطقس، أم مزاجه المتقلِّب؟ في العادة، لا أحبِّذ الجلوس في الخلف، لكنَّ وجهًا رأيته في المحاضرة السابقة، دفعني إلى المجيء قبل بدء الدرس بنصف ساعة، والجلوس في مكان يمكنني من خلاله أن أراها من دون أن تراني. إنَّها هي فتاة المكتبة.

رأيتها تدخل بقامتها الطويلة، قلت لنفسي: «هذه لاعبة كرة سلَّة، أو عدّاءة مسافات طويلة». جلستْ من دون أن تلقي عليَّ تحيَّة الصباح. أخرجَتِ الدوسيه من حقيبتها، وأصغت السمع إلى أستاذ المادَّة.

أنا كسول وخامل، لا أبذل أيّ جهد في تكوين العلاقات الاجتماعيَّة. إلٰهي، إنَّه أمر قميء أن أستبدل هدأتي وعالمي الذي أثَّثته بالموسيقى والكتب، بتفاهات الآخرين، إضافةً إلى أنِّي مقتنع جدًّا بمقولة جان بول سارتر: «الجحيم هو الآخَر».

لذلك، جرَّبت حظِّي الذي كنت أظنُّه سيِّئًا على الدوام:

ـ ممكن أوراق الامتحان؟

التفتت نحوي. رأيتُ في عينيها الاستغراب وقلق الأسئلة، ثم ما لبث السؤال أن قفز من طرف لسانها:

ـ ليش أنا؟

كأنَّها نسيت أنَّنا تقابلنا. في المرَّة الماضية، كانت أكثر جرأة. أخذت تتلفَّت حولها، ثم أعطتني الأوراق بتردُّد. عند مجلس الطلبة في وسط الجامعة، حيث يقوم الطلّاب بتصوير كتبهم وأوراقهم، ذهبتُ لتصوير الأوراق. كانت واقفة عند باب الكلِّيَّة تنتظرني. تعمَّدت أن أتركها تنتظر دقيقة إضافيَّة، فقد كنت أختلس النظر إليها. رأيت فيها مزيجًا غريبًا من الملامح المتضادَّة، والتصرُّفات التي تتوزَّع بين الجِدِّيّ والعبثيّ، وبين الناضج والطفوليّ.

دينا في ربيع عامها العشرين، وُلدت ونشأت في قرية من قرى نابلس. حصلت على أعلى الدرجات في المدرسة، واختارت الدراسة في بيرزيت، لأنَّها «قريبة من القلب»، كما قالت لي. تعرَّضت للتنمُّر من زميلاتها، لأنَّها كانت مختلفة، وتسأل أسئلة بعيدة عن المألوف، ولأنَّها كانت تعاني «التأتأة».

مَرِحة وتحبّ الضحك. عاديَّة، ذات شعر قصير، ترتدي نظّارة سوداء حتى في الأماكن المغلقة، لكنَّها تملك سحرًا خاصًّا، يجذبك إليها ما إن تبدأ بالحديث. ترتدي ملابس بسيطة، أحيانًا تكون متَّسخة ببقع القهوة والحبر. وكان دائمًا ثمَّة كتاب يختبئ في حقيبتها، تُخرجه عند الانتظار أو الشعور بالملل. تضع سمّاعات الهيدفون في أذنيها. قد تسمع موسيقى صاخبة، لا يهمّ، كأنَّها تندمج في العوالم التي تقرأ، إلى درجة أنَّها لا تعود تشعر بما حولها.

حسّاسة، قد تبكي لأتفه الأسباب، لأنَّها تملك أطيب قلب في الدنيا، وأرهفَ إحساس خُلق لفتاة. في أحد الأيَّام، كان صديقي يلعب بكرة فرو، ربطها بهاتفه على شكل ميداليَّة. انتزعتها فجأة من

يده، وأخذت تلعب بها. عندما عرفت أنَّ كرة الفرو تعود إلى أرنب مسكينة، تمَّ تشريحها خلال أحد الدروس في كلِّيَّة العلوم، أصابتها نوبة بكاء، وتعكَّر مزاجها بقيَّة اليوم.

كان أسلوبها غريبًا في الحياة: مدمنة على الأفلام الوثائقيَّة والأبراج، ولديها هَوَس في قراءة مذكَّرات مدراء المخابرات، والكتب التي تتحدَّث عن الماسونيَّة والحكومات الخفيَّة التي تحكم العالم. كما أنَّها تحتفل بالهلويين، وعيد النيروز، ولديها أحلام مثل أن تتحوَّل إلى قاتلة محترفة، لتتخلَّص من أشرار المجتمع، ومن أولئك الأشخاص الميؤوس من إصلاحهم، كالرجال الذين يضربون زوجاتهم.

التحقت بإحدى دورات التايكوَندو في أحد مراكز التدريب في رام الله. ذات يوم، التقيتها بعد التدريب، وسألتها:

ـ ماذا تعلَّمتِ؟

ـ الركلَ على الخصيتين. إنَّها ضربة واحدة وسيرى الرجل الحقير أبواب جهنَّم، وقد فُتحت على مصراعيها.

فسألتني: كيف تشعر حين تأتيك ركلة هناك؟ فقلت لها ضاحكًا: شيء أشبه بنهاية العالم.

وأضفت: لم أكن أعلم بأنّك تحبِّين رياضة التايكوَندو. كيف كنتِ في أثناء المدرسة؟ مشاغبة؟ تضربين زميلاتك؟

ـ كنت فتاة مسالمة، من ذلك النوع من الفتيات اللاتي اخترن حياة الهدوء والوحدة. كانت مَرَّة واحدة، ضربت فيها إحدى زميلاتي في الصفِّ العاشر. في كلِّ حال، كانت تستحقّ اللكمة. لم أتمالك

أعصابي، وجدت يدي تسبقني. حينها كان الوقت قد فات.

ـ ما الذي حدث؟

ـ كانت فتاة مغرورة، متغطرسة، تحصد أعلى الدرجات في الصفّ. محبوبة من معلّماتها، وزميلاتي كنّ ينافقن من أجلها. أمّا أنا، فكنت أكرهها؛ لا أطيق وجهها، ولا صوتها، ولا كبرياءها. لا أفهم كيف استطاعت أن تخدع الجميع! أعتقد أنَّها موهبة، أن تُقنع الآخرين بدور البريء والضحيَّة، في حين أنَّك عكس ذلك. المهمّ، يبدو أنَّ الكره كان متبادَلًا، لذلك أخذت تَحوك المكائد وترسم الخطط، وتنشر الإشاعات في الصفّ، حتى تفاجأتُ ذات صباح، بأنّي أصبحت مكروهة من جميع زميلاتي. لا أحد يبادر بالكلام معي. وحين كنت أسأل إحداهنَّ عن شيء ما، تدير وجهها أو تردّ ببرود.

ـ لماذا تؤذيك من دون سبب مقنع؟

ـ أعتقد أنَّها مريضة، تحبّ السلطة، ولا تريد أن يعارضها أحد. في داخلها رغبة عميقة في تحطيم حياة الآخرين.

ـ وماذا حدث بعدها؟

ـ التقيتها في الاستراحة، وسألتها عن السبب الذي دفعها إلى الكلام عليّ، وماذا تريد، ولماذا تكرهني إلى هذا الحدّ؟ لكنَّها لم تُجبني، بل حرَّكت شفتيها وحاجبيها باشمئزاز. ثم رأيت يدي تطير نحو وجهها. كانت اللَّكمة قويَّة وغير متوقَّعة، فسقطت على الأرض وسال الدم من أنفها.

* * *

في صباح أحد الأيّام، صعدنا في أحد الباصات التي جلبها مجلس الطلبة. كانت الأوضاع متوتّرة في الأراضي الفلسطينيَّة بسبب اقتحامات المستوطنين للمسجد الأقصى، كما تزامن ذلك مع إضرابٍ للأسرى. وقفنا، أنا ودينا، في وقفة احتاجيَّة أمام مجلس الطلبة، واستمعنا إلى الكلمات التي ألقاها ممثّلو الكتل الطلّابيَّة. كانت شعارات رنّانة، خطابيَّةً، عاليةَ النبرة؛ تطرق أسماعنا، وتدفع دمنا إلى الغليان.

في الباص، ألبستُ دينا الكوفيّة وربطتها على وجهها كلثام، وهي فعلت معي الأمر نفسه. حين نزلنا، كنّا ملثّمين وجاهزَين للمعركة. دينا إلى جانب مجموعة من الفتيات تقدّمن الصفوف، ووصلن إلى المكان قبلنا. كانت نقطة المواجهة هي مستوطنة بيت إيل.

هكذا أصبحت بيت إيل ميدانًا للاشتباك اليوميّ. كان الاشتباك في الروح قبل أن يكون على نقاط التماسّ، «إنَّه زمن الاشتباك، لا التصالح»، قلت لنفسي، وأنا أحمل الحجارة التي كانت تأتيني بها دينا، في دلاء بلاستيكيَّة. كانت تتلثّم بالكوفيَّة، وتشتم الجنود: خ... خ... خدوا يا أولاد الـ كلب.

اشتبكت مع رأسي. شَرَعْتُ في ميثاق جديد بين الدم والتراب. يومها رأيت الأرض امرأة واشتهيتها. أردت لي ولادة جديدة. غزوت الحياة جسدًا وروحًا. ولأنّي أحبُّها جدًّا، وليس لديَّ رجاءٌ في حياة أخرى، وجدتني أستهلكها، أباركها، وأرتق بها شهواتي الممزَّقة.

استقبلونا بالقنابل المسيلة للدموع والرصاص الحيّ. تلوَّث الهواء بالغاز ودخان الإطارات. رأيت الأطفال يرجمون الجنود بمقاليعِهم،

والموت يتقدَّم نحوهم على هيئة جنديّ قميء. لا يهابونه. يتمترسون خلف أعمدة الكهرباء وحاوياتِ القمامة التي يدفعونها إلى الأمام، زاحفين نحو الجيبات العسكريَّة.

تعجَّبت من امرأة فلسطينيَّة، كانت تتَّجه نحو الصفوف الأماميَّة، لتمدَّ يدها بحجر إلى أحد شبّان المواجهات، غيرَ خائفة من القنابل أو الرصاص، تقول له: «اضرب يمّا، يا بطل». تشدُّ من عزائمهم، بينما الموت يحلِّق بجناحيه فوق المكان.

فكَّرت: ليس في وسعي أن أُوقف الرصاصة المتوجِّهة حثيثًا نحو صدر الشهيد، أو أن أجمع حظوظ العالم لأصنع منها متراسًا يحميه. والعبارات الركيكة التي أكتبها في رأسي، ليست سوى بصقات في وجهَي العالم والتاريخ.

فكَّرت بكثافة. سرتُ داخل غرفة رأسي، وحاولت فتح إحدى نوافذها. تسلَّلت صرخةٌ، أو هتافٌ، أو صوتُ طلقة. ومن غير أن أرتاب أو أقلق، جعلت من وحدتي ملعبًا لكلِّ هذه الأصوات. هذه الكتلة، العديمة النفع، التي اسمها جسدي، تخيَّلتها تتحوَّل إلى بندقيّة، أو قنبلة مولتوف.

في بيت إبل، أي بيت الربّ، واجه طفل، في الثالثة عشرة، جنودًا مدجَّجين بالحقد وشهوة القتل.

أساطيرهم تلك تهاجَم بشراسة من الوعي الفطريّ للمجروح، الذي لا يهمُّه زخم التاريخ والجغرافيا، والسياساتُ الدوليَّة، وأحاديثُ المثقَّفين وروّادِ المقاهي وركّابِ الباصات العموميَّة الصامتين.

في تلك المواجهات، استشهد هذا الطفل من مخيَّم الجلزون.

تركَنا متماهين مع اللعبة، في الوقت الذي وضَّب فيه التفاصيل والذكريات للرحيل. استراح، ليترك لأمّه مهمَّةَ سرد حكايات بيت إيل، لإخوته الصغار وأولاد الجيران.

أُصيبت دينا برصاصة مطّاطيَّة في قدمها. حين رأيتها تسقط على الأرض وتنادي عليّ بأعلى صوتها، تركت الحجر الذي كان في يدي، وركضتُ نحوها. حملتها وركضت بها حتى آخر الشارع حيث كانت تقف سيّارة إسعاف. في السيّارة، قالت لي: «نُ... نوح، إذا متُّ اكتبْ عنّي». كدت أضحك، لولا جدِّيَّةُ الموقف. قلت لها: «دينا، لا أحد يموت من رصاصة مطّاطيَّة في قدمه». أمسكت يدها وشددت عليها. كانت ساخنة ومتعرِّقة. فكَّرت في قسوة فقدانها. حتى الفكرة لم تكن تُحتمَل.

ذاتَ يوم، سألتها ونحن نجلس على أحد المقاعد في الجامعة: لماذا لديك هذه الرغبة في الكتابة عنك؟

«نُ... نوح، شيء جميل أن أن ت... تكتب عنّي في ك... كتابك».

«حسنًا، أعدك بأن أكتب عنك ذات يوم».

كانت نشيطة، وذات طبيعة اقتحاميَّة. تريد أن تشارك في النشاطات الحزبيَّة والطلّابيَّة والأعمال التطوُّعيَّة. كثيرًا ما دعتني إلى المشاركة في هذه الفعاليّات، لكنّي كنت منطويًا على نفسي، أكتفي بقراءة الكتب وكتابة بعض النصوص.

قالت لي: نحن هكذا، لدينا صورة خاطئة عن أنفسنا.

ـ ماذا تقصدين؟

ـ لن تصبح كاتبًا كبيرًا، وأنت تحبس نفسك في غرفة. العالم أوسع من الكتب.

كانت شديدة الغيرة عليَّ، على الرَّغم من أنَّ علاقتنا لم تتطوَّر إلى أكثر من صداقة. لم تصل في حدودها القصوى إلى الحبّ. ذاتَ مرَّة، كنت جالسًا مع فتاة في مقهًى، فدخلت علينا فجأة غاضبةً. عرفت بعدها أنَّها كانت قريبة من المكان، وأخبرتها بالأمر إحدى صديقاتها. قدَّمتُ دينا كطالبة نجيبة، وقدَّمتُ الفتاة كرسّامة موهوبة. لم يعجبها هذا التقديم، فأخذت تفتعل المشكلات. قالت بسخرية: «ط... طبعًا موهوبة م... مع هذا الصدر المنتفخ ك... كالبالون». نظرت إليَّ الفتاة مصدومةً، وخرجت غاضبة من دون أن تدفع الحساب.

ـ لماذا فعلتِ هذا، يا دينا؟

ـ لأنِّي لم أطقها. ألم تلاحظ أنَّها مغرورة؟ تدخِّن السجائر لتظهر لنا أنَّها «أوبن ماينِدِد؟»

ـ لا، إنَّها بسيطة ومتواضعة.

«وتدافع عنها!» قالت منزعجة. ثم سألتني مباشرة، ومن دون خجل: هل نكحتها؟

ـ ماذا؟ إنَّها مجرَّد صديقة.

دعوتها إلى فنجان قهوة. أخذنا نتحدَّث عن الامتحانات والروايات الجديدة، وآخر الفعاليّات التي شاركت فيها، ثم تطرَّقنا إلى السياسة وعمل الأُطر الطلّابيَّة في الجامعة. قالت لي: «أحزابنا منحطَّة

ومثيرة للغثيان. الجميع يعمل لمصلحته الشخصيَّة. أمّا الوطن! فـ: طزّ بالوطن»! ثم أكملت: «تخيَّل لو أنّي متُّ في تلك المظاهرة، لكان موتًا عبثيًّا؛ مجرَّدَ موت مجّانيّ». ثم قالت بسخرية: طيِّب، طزّ بالمظاهرات.

ضحَّت دينا بسنة دراسيَّة، أمضتها بين الاجتماعات الحزبيَّة والتحضير للانتخابات وتنظيم المعسكرات. كانت تعمل بإخلاص منقطع النظير، ونموذجًا للرفيقة المكافحة، ذاتِ الإرادة الصلبة، إلى أن انتقدت موقف اليسار من الأزمة السوريَّة. حينها، أصبحت بالنسبة إليهم عميلة للأمن الوقائيّ والمخابرات والقوى الإمبرياليَّة في العالم، فهاجموها بشراسة، وحاولوا التضييق عليها وتشويه سمعتها، هادفين إلى طردها من الجامعة.

«طزّ بالأحزاب الفلسطينية كلّها»، كانت تقول.

خرجنا من المقهى ونزلنا إلى رام الله التحتا. فجأة، توقَّفتْ لوهلة ثم ركضت نحو سوبرماركت قريبة، بعد أن قالت لي: «توقَّفْ هنا لحظة». بعد دقائق، عادت ومعها شابٌّ طويل، وسيم، أشقر الشعر، يرتدي ملابس ممزَّقة، وينتعل حذاء «زنُّوبة». قدّمته إليَّ: «فؤاد، مخرج مسرحيّ». كنت أرغب في أن أسألها: هل نكحك؟ لكنّي بقيت صامتًا، أنظر إلى هذا التناقض العجيب. لم أكن أشعر بالغيرة عليها، في حين أنَّها كانت تستميت لتُثير غيرتي. قد يوحي سلوكها بوقوعها في الحبّ، إلّا أنَّه حبّ أموميّ، أي أنّها كانت كالأمّ التي تغار على ابنها من امرأة أخرى.

طوالَ الوقت وأنا أنظر إليها صامتًا. كانت تبتسم له كلَّما تحدّث،

وتهزّ رأسها إشارةً إلى موافقتها على كلّ ما يقوله.

قال لي إنَّه كان يكتب الشعر في الإعداديَّة، وعندما اجتاز التوجيهيّ حصل على منحة لدراسة المسرح في تونس. لم يكن مهتمًّا بالمسرح. كان لاعب كرة قدم، ولديه اهتمام بشكل خاصّ بالأدب. جذبه السفر أكثر، لكن مع مرور الوقت أحبّ المسرح، وأخذت حياته تدور حول التمثيل.

أخبرني عن دورة مسرحيّة في لندن، استمرَّت ثلاثة أسابيع، وكان عنوانها «مارسِ المسرح كأنَّك تمارس الجنس»، ووجَّه إليَّ النصيحة الآتية: «مارسِ الجنس مع الكتابة». وأصرَّ على اصطحابنا إلى أحد المهرجانات الفنِّيَّة، التي تقيمها بلديَّة رام الله في فصل الصيف.

هناك، رقصت دينا وحرَّكت كفلها الجميل. كانت منتشية بالحرِّيَّة التي تمنحها رام الله للعابرين. في تلك الليلة، وللمرَّة الأولى، أخذت من صديقها المسرحيّ سيجارة ودخّنتها. كان منظرها مضحكًا وهي تسحب الدخان. جلست على الأرض وفتحت رجليها على وسعيهما. أرخت شعرها وأخذت تمصّ من عقب السيجارة. في تلك الليلة، وللمرَّة الأولى أيضًا، شعرتُ بأنّي أخوها الكبير، فانزعجتُ من تصرُّفها. سحبت السيجارة من فمها، وأمسكت بها من يدها وسحبتها بقوَّة. كانت سعيدة بغيرتي عليها، واهتمامي بها. وأنا الذي كنت أقول إنَّ الغيرة والتملُّك هما من الصفات الذميمة التي يجب على المرء التحرُّر منها، وجدتُ نفسي أندفع نحوها وأنا ممتلئ غيرةً ورغبةً في تملُّكها.

أوصلتها إلى سكنها في بيرزيت. قالت لي، وأنا واقف أمام

الباب: ألا ترغب في فنجان قهوة؟ رأيت في عينيها ثلاثة أنواع من الدموع: دموع الرغبة، ودموع الخذلان، ودموع الخوف من الخسارة. كانت الأثمان المترتِّبة على الإجابة بـ «نعم»، أقلَّ من الأثمان التي ستُدفَع بعد الإجابة بـ «لا». وعلى الرَّغم من ذلك، أجبتها من دون تردُّد: «لا».

بعد ذلك، ستسوء علاقتي بها، وسأشمُّ رائحة كراهية تسود بيننا. انشغلت فترة بالامتحانات والأبحاث، التي كان عليَّ أن أسلِّمها قبل نهاية الفصل، إلى أن رأيتها بعد شهر تقريبًا، وكان اللقاء رسميًّا، باردًا، كأنَّنا تعرَّفنا للتوِّ.

أخرجَتْ سيجارة من علبة «LM»، وأشعلتها.

ـ منذ متى وأنت تدخِّنين؟

ـ هذا لا يعنيك.

ـ أنت لا تعملين. هذه السجائر تشترينها من مصروفك الشخصيّ.

ـ بدأت العمل في سوبرماركت في البيرة.

ـ ماذا تعملين؟

ـ أعمل في المحمص.

نظرت إلى هيئتها. كانت تلبس بلوزة «قطّ» وفيزونًا يُبرز أطراف كيلوتها، كما تركت شعرها فوضويًّا على كتفيها، ووضعت على وجهها الكثير من المكياج. قلت لها مبتسمًا: «لقد تغيَّرت كثيرًا يا دينا». «كي... كيف؟ ح... حلوة؟» سألتني.

«أنت جميلة في كلِّ الأوقات».

اقترحتُ أن نتناول طعام الغداء في مطعم الجامعة. أخبرتني، ونحن نتناول الأرزّ مع اللحمة والبازيلّاء، بأنَّها قرَّرت الانضمام إلى الماسونيَّة. لم أستطع أن أمسك نفسي عن الضحك. قهقهت بصوتٍ عالٍ، فالتفت نحونا الآخرون.

ـ هاد آخر نهفاتك.

ـ إنَّها نقلة نوعيَّة: إثارة؛ سرِّيَّة؛ سلطة؛ تغيير؛ مال.

ـ أنتِ لا تدرين ماذا تفعلين. أين تجدين نفسك؟ ما هي هويَّتك؟

وكان السؤال في ذلك الزمن، خارج الهويَّة الوطنيَّة، سؤالًا مستغرَبًا. كانت الهويَّة الفرديَّة شبه غائبة، أو غير مكتَشَفة. قلت لها: أنا مثلًا، أجد هويَّتي في الكتابة. بمعنى، أنِّي أتحوَّل إلى كائن هلاميّ إن لم أكتب.

في اليوم التالي، رأيتها سعيدة، وتنطنط أمامي كطفلة:

«نُ... نوح، ل... لقد دخلت فرقة لد... للدبكة الشعبيَّة».

ـ هذا عظيم. سعيد من أجلك.

أصبحت دينا عضوًا في فرقة للرقص الشعبي في رام الله. تذهب ثلاث مرّات أسبوعيًّا، وهناك كوّنت صداقات جديدة. قالت لي: «لم أكن أعلم بأنَّ للجسد هويَّة». في السنة الثالثة، افتقدتها، إذ لم نعد نلتقي كثيرًا. اختفت تقريبًا، فلا أثر لها على الفيسبوك أو على أرض الواقع. ثم عرفت من صديقاتها أنَّها تعرَّضت لصدمة، أدخلتها أزمةً نفسيَّة حادَّة، ودخلت في إثرها المستشفى، وزارت العديد من الأطبّاء.

كان حديثهنَّ مبهَمًا، وتعدَّدت الروايات: صدمة؛ أزمة نفسيَّة؛ مصعد؛ جنون.

لم أستطع أن أصل إليها، لأعرف أخبارها مباشرة. بعد أن مرَّ على الحادثة سنةٌ، أخبرتني بالقصّة كاملة. وأنا سأحاول هنا أن أسردها، بأسلوب أدبيّ مغاير عن الطريقة التي أخبرتني بها.

تقول: في تلك الليلة، كنت مدعوّة إلى حضور حفل ميلاد إحدى صديقاتي. عندما نظرت إلى ساعتي، كانت عقاربها تشير إلى العاشرة مساءً. توقَّفت أمام البناية. وجدتها هادئة على غير العادة، والشقق كان أغلبها مطفأً، باستثناء شقَّتين أو ثلاث.

بدت لي الأسئلة في منتهى العبث، لذلك اجتزت البوّابة ودلفت إلى حجرة المصعد، ثم ضغطت على لوحة المفاتيح. نظرت إلى هيئتي في المرآة: صدر جميل، ومؤخّرة جذّابة. كنت أرتدي كنزة صيفيَّة تُظهر مَفرِق النهدين، وجينزًا ضيِّقًا أزرق اللون. كان تصرُّفًا طبيعيًّا، لفتاة شابَّة، شخصيًّا على الأقلِّ. لم يكن في وسعي ألَّا أنظر إلى هذه الأشياء حينما أصادف مرآة. أستطيع أن أقول إنَّه شيء في الدم. أشعر بالزهو لأنِّي أملك جسدًا جميلا: قوامًا رشيقًا؛ عُنُقًا رقيقًا؛ ذراعين ناعمتين؛ شعرًا طويلًا. كنتُ فتاة مغرَمة بالمرايا، وأعشق جسدي وأهتمّ به، لذلك كنت أتأمَّله حتى في مرايا المصعد.

في أيِّ حال، بينما كنت غارقة في تأمُّل تفاصيل جسدي، فجأة ومن دون سابق إنذار، شعرت بشيء مثل... كان الأمر مخيفًا إلى درجة أنِّي لا أجد الكلمات المناسبة. شعرت بألم في مؤخّرة رأسي، كأنَّ إبرة اخترقت الجمجمة، أو ضربة عصا بيسبول. لا أستطيع أن

أحدِّد ماهيَّته، لأنَّه لم يأخذ شكلًا، لكنَّه كان حادًّا وعميقًا في الوقت نفسه، فانطفأ العالم من حولي، وغرقت في ظلام دامس.

سقطت على أرضيَّة المصعد، ثم بدأت الحرارة تتسرَّب من جسدي، كأنَّ ثمَّة جهازًا كان يعمل بكفاءة عالية. شعرت بأنَّ الجسد الذي كنت أنظر إليه بإعجاب قبل ثوانٍ، أصبح جثَّة باردة في تابوت معتم وفارغ.

حاولت أن أجمع طاقتي وأدفعها صوب نقطة وهميَّة. كانت محاولة لتجميع الانتباه، لأنَّني شعرت بأشياء غامضة تدفعني نحوها؛ أشياء من العمق والقوَّة بحيث يستحيل عليَّ مقاومتها، أشبه ما تكون بالجاذبيَّة، لكنَّها تقبع هناك في الداخل. تشظَّيتُ في عالمين: عالم واسع وغريب، يذهب في اتِّجاه الأسفل، كدت أستسلم له؛ وعالم آخر، صغير وبسيط، كان يقاوم كأنَّه نملة أمام فيضان، أو سفينة محطَّمة أمام اكتساح بحر هائج.

عندما استيقظت، رحت أتحسَّس ما حولي. أوَّلُ ما خطر في بالي أنَّه بسبب انقطاع الكهرباء. وقفت على قدمَيّ وأخذت نَفَسًا عميقًا. أخرجت منديلًا من بنطالي، وأخذت أمسح العرق البارد الذي كان يرشح بغزارة. مرَّت دقيقة واحدة، ثم بدأت الأشياء تعود إلى أماكنها، وتدفَّق الضوء من جديد داخل الحجرة، فاعتقدت أنَّ الأمر قد انتهى.

تنفَّست الصعداء، وغمرتني فرحة عارمة، إلَّا أنَّ الفرحة لم تكتمل، إذ إنَّ لمبات السقف انطفأت مرَّة أخرى، ما عدا لوحة المفاتيح التي أخذت تتوهَّج باللون الأحمر. أخرجت الآيفون لأُنير الملصق الذي يحمل أرقام الطوارئ، حينها تحرَّك المصعد وسقطت

الحجرة نحو الأسفل. وقعتُ وارتطم رأسي بالأرضيَّة. حاولت أن أرفعه بصعوبة، ثم حدَّقت بعينين مرعوبتين نحو لوحة المفاتيح. كانت الأرقام تتسارع تنازليًّا بسرعة خياليّة: ـ 1، ـ 2 ـ 20، ـ 30، ـ 50.

وضعت يدي اليمنى على عينَيّ؛ وضغطتُ عليهما بقوَّة. «ماذا فعلت لألقى هذا المصير؟ لا أريد أن أرى شيئًا».

كنت خائفة، وشعرت بأنّي ورقة خاسرة، عديمة القيمة، تُركت وحدها. حاولت الصراخ، لكن صخرة ثقيلة كانت تغلق حَنجرتي. استلقيت وبكيت بحرارة داخل تلك المتاهة. أخذت التفاصيل الصغيرة، والتافهة في بعض الأحيان، تتزاحم في الذاكرة، لتتحوَّل إلى جنود في خدمة فكرة واحدة: الخلاص.

وجدت أنَّ أفضل طريقة للخلاص من تلك المعاناة، هي اعتقاد عميق، غير قابل للدحض، بأنّي في حلم. ومن أهمِّيَّتي في تأثيث هذا العالم، على الرَّغم من بشاعته وضيقه، تنبع أهمِّيَّتي، لذلك أخذت أستجمع قواي. «عليّ الخروج من هذا العالم الغارق في العتمة. أمِّي في انتظاري، لا بدَّ من التحرُّر»، رحت أردِّد في نفسي. بالذكريات والتفاصيل، إلى جانب الشعور بالقيمة، تسلَّحت وواصلت الطَّرْق على الجدران.

شعرت بيد طفلة صغيرة ـ لأنَّها كانت ناعمة ورقيقة ـ حطَّت على كتفي وأخذت تهزّني. استيقظت وفتحت عينيَّ، ثم انسللتُ بخفَّة عبر شقّ الباب.

حين خرجت من باب المصعد، وجدت صديقاتي ينظرن إليَّ بعيون مذعورة. كانت ساعة الحائط تشير إلى العاشرة والنصف. أين

ذهبت فترة نصف الساعة؟ هل غفوت داخل المصعد طوال هذا الوقت؟ كنت منهارة، ولم أستطع الوقوف على قدمَيّ، وفقدت القدرة على الكلام. خفت من النظر إلى المرآة. ظلّت كابوسي طوال أسابيع، وحين تجرَّأت على النظر إلى نفسي، وجدتُ شعري ابيضَّ كأنّي عجوز، وظهرت تجاعيد في وجهي، ونفرت عروق من تحت جلدٍ شمعيّ باهت.

بعد سنة تقريبًا، عدتُ إلى هيئتي الطبيعيَّة، وحدث ذلك بالتدريج. كأنَّ ما مررت به ليس أكثر من حلم طويل بشع للغاية.

مكتبة
t.me/t_pdf

(6)

كانت غرفتي، في الفترة الجامعيّة، تقع في الطابق الأوّل من بناءٍ للسكن الطلّابي، وتبعد مسافة خمسين مترًا عن الجامعة. وهذا يعني أنّي لم أكن أعاني بشأن مسألة استيقاظي صباحًا للذهاب إلى المحاضرة. الأمر بأكمله، من لُبس وأكل ومسافة الطريق، لم يكن يتجاوز نصف ساعة.

زميلي في الغرفة كان في السنة الرابعة، لذلك كان ينادينني بـ «السنفور» في بداية تعارفنا، وكان يرى في نفسه الأكثرَ خبرة بأمور الحياة والسكن والجامعة. عندما دخلت الغرفة، في المرَّة الأولى، شعرت براحة ممزوجة بشيء من الرهبة: الدخول في تجربة جديدة واستقبال المجهول. كانت الغرفة خالية من الأثاث، لذلك أتيت من البيت بفرشة ووسادة وشرشفٍ قطنيٍّ. وراكمت الحقائب المليئة بالملابس في الزاوية، ووضعت سجّادة على الأرض. هذا هو أثاث الغرفة كلُّه.

في الشتاء، عانيت البرد، إذ لم يكن لديَّ مدفأة، كما انتشرت رائحةُ عفونة في الجوّ، بسبب الرطوبة. وبسبب تراكم الثلوج عند أسفل الشبّاك، كنت أشعر بأنَّ أرضيَّة الغرفة تسبح في الماء. كنت أقتصد محاولًا التخفيف عن أهلي، بحيث إنَّ المصروف الشهريّ كان قليلًا، ولا يكفي لسدّ احتياجاتي الأساسيَّة.

في هذه الغرفة الفقيرة الأثاث، والسيِّئة الإضاءة والتهوية، سأحصل على التميُّز الأكاديميّ لأربعة فصول متتالية. ومن هناك، ستخرج نصوصي ومقالاتي المنشورة في كبرى الصحف العربيَّة. كنت أتذكَّر ما قاله الروائيّ التركيّ أورهان باموق عن تجربته في العيش داخل غرفة منعزلة في إسطنبول، وكيف كان يقول في نفسه إنَّه سيخرج بعد سنوات عزلته بشيء مهمّ وعظيم، لكنِّي في الوقت نفسه، كنت خائفًا من المغامرة غير المحسوبة بالعمر؛ هذه المغامرة التي دخلتها بأكملي.

خشيت من الموت في تلك الغرفة، غير أنَّ الأدب كان يوسِّع تلك الزنزانة، حتى حسبتها العالم. قلت لنفسي إنَّ الأدب طوق نجاة، فأخذت أبني عالمي الصغير بقراءة الكتب. اتَّخذت الغرفة للقراءة، والكتابة، والتفكير. كانت معبدي للعزلة عن المجتمع، لغاية العيش كما أريد، باحثًا عن السلام الداخليّ. ربَّما كنت ساذجًا وطوباويًّا أكثر من اللازم، لكنِّي هكذا بدأت أنعزل عن العالم شيئًا فشيئًا، إلى أن وجدت نفسي وحيدًا.

في السكن شرفةٌ خارجيَّة تطلّ على جبال بيرزيت، كنت أجلس فيها للقراءة والسهر مع الأصدقاء، نُمضي عُطَل نهاية الأسبوع في

تدخين النرجيلة والحديث عن الحياة وأمور الجامعة. نمزح كثيرًا، ونتبادل النكات الجنسيَّة البذيئة، ونفتعل المشاجرات.

كان زميلي في السكن، ضخمَ الجثَّة، طويلًا، أسمرَ، ومن مدينة الخليل. فمه لا يقفل من كثرة الحديث والأكل، مُغْرَمًا بالبطاطا المقليَّة ووجبات البروستد. لم يمرّ يوم واحد من دون أن نتشاجر. على الرَّغم من أنِّي كنت صَبورًا، وأرغب بصدق في أن أبتعد عن المشاكل، فإنَّه كان شخصًا مستفِزًّا إلى درجة لا تُحتمَل. إذا أكل، أخرج أصواتًا مقزِّزة. وإذا نام، أصدر شخيرًا مقزِّزًا. كنت أشعر بأنِّي أعيش داخل غابة من الأصوات المقزِّزة. وكان يفتِّش في أغراضي الشخصيَّة، يستخدمها كأنَّها من أملاكه، وهذا أمر كان يُثير أعصابي.

كنّا نأكل وجبة واحدة في اليوم. إمَّا نأكل البندورة المقليَّة والأفوكادو، وإمَّا نذهب إلى مطعم بيرزيت، حيث يقدِّم وجبة تتكوَّن من قطعة دجاج وبطاطا مقليَّة، إضافة إلى الحمّص والسَّلَطات بأثمان زهيدة. نتناول كلّ هذه الأطباق بـ 12 شيقلًا فقط. نكتفي أحيانًا بالزيت والزعتر طوال اليوم، مع كوب شاي، ونخرج في نهاية الأسبوع لتناول الكوكتيل، أو الكنافة النابلسيَّة، ثم نعود إلى السكن لنؤرغل ثلاثة رؤوس من المعسَّل الرخيص.

ذات يوم، كنت جالسًا مع أصدقائي، ففتح باب غرفتهِ بعينين نصف مغمضتين، ووجهٍ عابس، وصرخ بي: هيّا، رافقني إلى السوبرماركت.

كانت الساعة الحادية عشرة ليلًا.

صرخت به: اللعنة عليك، هل تظنّ أنِّي «بادي غاردك» الشخصيّ؟

يومها، خرج غاضبًا، بعد أن صَفَقَ الباب بقوَّة. لم أتحدَّث معه طوال شهر كامل، على الرَّغم من محاولاته الحثيثة لمصالحتي، فتحوَّل السكن إلى حظيرة حيوانات، فالأوساخ التصقت بالأرض، ولم نكلِّف نفسينا عناء تنظيفها، لأنَّنا لم نعد نلتقي.

قبل أن يخرج من السكن، تعاركنا بالأيدي.

كنت أحمل كتابًا ومستغرقًا في قراءته، حين قال لي: اللعنة عليك، وعلى كتبك يا معقَّد.

ـ اللعنة على أمّك. ما شأنك فيما أفعل في حياتي؟

وأخذت أتحسَّس بيدي أيّ شيء صلب، يمكنني أن أضربه به. وجدتُ كوب الشاي فألقيته نحوه، لكنَّه استطاع أن يتفاداه. كنت غاضبًا، وهو كالثور هجم وضربني على رأسي بقبضته. لم أدرك ما حدث، سقطتُ على الأرض متألِّمًا والدم ينزف من أنفي. وضع قدمه اللعينة على صدري، ويده على رقبتي، ثم ثبّتها على الأرض. لم أستطع أن أردّ اللَّكمة.

ـ أَبْعِدْ قدمك عن صدري، يا خنزير.

لم يستجب، وواصل مستمتعًا بإهانتي. عندها، أخرجت من جوفي كلّ الشتائم واللعنات التي يمكن تصوّرها: أيُّها اللعين؛ القذر؛ الحيوان؛ الغبي. بقيت ممدَّدًا على الأرض، وهو يواصل اللكمات حتى شعر بالتعب. كنت أسمع صوت لهاثه وأنا غارق في عالم شديد السواد.

نهض من فوق صدري، وذهب إلى غرفته وأغلق خلفه الباب.

زحفت نحو الحمّام ضاغطًا على أنفي، وبحثت عن أيِّ فوطة لأمسح بها وجهي. ضغطت على مفتاح الضوء، وعندما نظرت إلى نفسي في المرآة، رأيت الدماء على وجهي وملابسي.

صعدت إلى صديق لي يسكن في الطابق الثاني. تلمَّست الجدران وزحفت على الدرج حتى وصلت إلى الباب. وحين فتح لي، وكان على ما يبدو نائمًا، رأيت علامات الذهول على وجهه.

ـ يا الله، شو هاد؟! كلّك دم، فووت، فووت.

حاول صديقي وقف النزف حتى نجح في ذلك.

«مَن الذي ضربك؟»

«الحيوان الذي في الأسفل»

«ما سبب عراككما؟»

«إنَّه أقبح كلب على وجه الأرض».

في تلك الليلة، نمت في غرفة صديقي. وضع لي فرشة إلى جانب سريره، وأعطاني شرشفًا. لم أستطع النوم لساعات. شعرت بالذلّ والألم في كلِّ أنحاء جسدي. كانت رائحة غرفته كريهة، فجواربه المتَّسخة يتركها في الغرفة، إضافة إلى الطعام المتعفِّن وأعقاب السجائر. وعندما رفعت رأسي نحوه، وجدته يضع الكمبيوتر في حُجره، ويشاهد أفلام سكس.

ـ اللعنة عليك.

كنت أسمع صوت يده وهي تعمل بإخلاص، على حكّ قضيبه، ثم سمعت صرخة تأوُّه عالية، كأنَّه سيموت.

ـ هيي، توقّفْ.

بعد دقائق، جاءني صوته:

ـ هل ضاجعت فتاةً في حياتك؟

ـ إذا ابتُليتم بالمعاصي فاستتروا.

ـ حسنًا، نحن اثنان والشيطان ثالثنا. أنت لا تعلن هذا الأمر في إذاعة أجيال أو راية.

ـ لقد فقدت عذريَّتي وأنا في السابعة، على أيدي ثلاث بنات من قريتنا.

ـ أنت تمزح! وبسبب هذا، قضيبك لا يتوقَّف عن الانتصاب؟

ـ ربَّما.

ثم ارتفع شخيره، فنهضت ووقفت قبالة النافذة. رحت أنظر إلى أضواء بلدة بيرزيت. فكَّرت في حياتي، وما يجب عليَّ فعله. في الصباح، اتَّصلت بإحدى الشاحنات، وبمساعدة بعض الأصدقاء قمت بنقل أغراضي على الرَّغم من قلّتها، وانتقلت إلى سكن جديد في البلدة القديمة.

(7)

٢٠١٧ م

أخذت إجازة من العمل. قلت لهم: عيني منتفخة وحمراء. بقيت أفركها طوال الليل، ووضعت فيها بعض العطر، ولوَّنتها، ثم صوَّرتها، وأرسلت الصورة إلى مشرفي في السوبرماركت.

اقترحت على محمود الذهاب إلى السينما لمشاهدة أحد الأفلام، ووافق ما إن علم بأنَّ ثمَّة صديقة ستأتي معنا. التقيناه، أنا ورهف، أمام برج فلسطين. كانت السينما حديثة، والرؤية فيها جيِّدة، إضافة إلى الصوت النقيّ والواضح. لم تستطع رهف إكمال الفيلم، وعندما خرجنا، شتمتني: غبيّ، ما هذا الفيلم اللعين!

كان الفيلم يتحدَّث عن فتاة في التاسعة من عمرها. بعد خروجها من المدرسة، دفعها إلى سيّارته رجلٌ في الخامسة والثلاثين. سجنها

في قبو عازل للصوت ومن دون نوافذ. استخدم معها أسلوب الترغيب والترهيب في أثناء اغتصابها، لتُطيعه. كان يضربها بشدَّة، ويهدِّدها بأنَّه سيقتلها إن حاولت الهرب. كبرت الفتاة الصغيرة وأصبحت في الثلاثين من عمرها، أي أنَّها بقيت في ذلك القبو من دون أن ترى الشمس، أكثرَ من عشرين سنة. حبلت خلالها وولدت ثلاث مرّات. وفي هذا القبو القذر، نشأ أولادها وكبروا. بعد أن استطاعت الهرب، انتحر الخاطف، بينما اكتأبت الضحيَّة حزنًا على مغتصبها، فيما يعرف بـ «متلازمة ستوكهولم».

اشترينا «بوشار» من أمام البرج، ثم مشينا على الأقدام في شارع الإرسال.

سألني محمود: كيف لم تقرأ عن الفيلم قبل أن تدعونا؟

«لم أكن أعلم. اعتقدت أنَّه فيلم دراما أو أكشن». ثم قاطعتنا رهف محاوِلةً تغييرَ الموضوع: ماذا تكتب في هذه الأيّام؟

«أكتب رواية».

«هذا عظيم»، قال محمود، ثم أضاف: ما موضوعها؟

«نحن، المهمَّشون في هذا البلد، حيث المأساة والملهاة في كلِّ جملة نقولها. حياة مسخرة، لكنّها تستحقّ أن تُروى بطريقة فكاهيَّة. عمودها الفقريّ هو الحوار في الفضاء العامّ. تخيَّلْ يا رجل! كلّ مَن يعرف قصَّتي يقول لي: «إنت شفت في حياتك، حتى شاب شعرك!»؛ أو «واااال من هالبلد، إنت مكانك مش هون»؛ أو «شكلك عانيت». أقول لنفسي: أنا لست ابن رشد، ولست المهاتما غاندي، أو نابليون بونابرت، إلَّا أنَّني أستحقّ حياة أفضل.

كلّ يوم، أنظر إلى المصعد الذي أحمل فيه البضائع، أو الدرجِ الحديديّ الطويل، الذي وقع عنه أحد زملائي في العمل، وانكسر ظهره، وأُناجي الله في سرّي: أرجوك، لا أريد أن أموت مِيتةً تافهة.

«إنَّنا نسقط في المأساة كلّ يوم، يا نوح. إنَّه سقوط بطيء، وليس سقوطًا مدوِّيًا كالنهايات التراجيديَّة في كتابات شكسبير»، قالت رهف.

«قادة السلطة والفصائل، على حدٍّ سواء، يتحدَّثون بلهجة المنتصرين في خطاباتهم ولقاءاتهم التلفزيونيَّة. يُشعرونك بأنَّ فلسطين قد تحرَّرت من البحر إلى النهر. منذ الخروج من بيروت، في إثر الحصار الإسرائيليّ للمدينة، وحتى حرب غزة 2014 م، وهم يَرْكَبون لغة الأمجاد والانتصارات التي ليست في حقيقتها سوى هزائم. إنَّنا نسقط في هاوية التراجيديا، وهم يواصلون التصفيق. يا إلٰهي، ما هذه المسخرة؟»

«أيوة، اسأل السيناريست العظيم، عن هذا الفيلم الرديء»، صاحت رهف.

«لقد سألته يا كافرة، لكنَّه لا يُجيب».

عندما مررنا بجانب المقاطعة، رأينا سيّارة سوداء تقف على جانب الشارع. بعد لحظات، فُتح الباب وسقط منه شابّ في مقتبل العمر. كان من الواضح أنَّه تعرَّض للضرب والركل. أخرجت رهف من حقيبتها علبة مياه صغيرة، وأنا أخرجت من جيبي الموبايل واتَّصلت بالإسعاف. عندئذٍ، قال محمود: هذا يكفي، لا نريد أن نورِّط أنفسنا في المشاكل.

بعدها، قالت لي رهف: اكتب عن واقعنا. هناك عشرات

القصص المُضحكة والمبكية والتي تحتاج إلى من يكتبها. لماذا نستورد الفانتازيا والأكشن والدراما من الرواية الأميركيَّة أو اليابانيَّة؟ لدينا كلّ الموادّ التي يمكن أن تصنع من روايتك، روايةً ناجحة.

إحدى القصص المضحكة المبكية التي مررت بها، كانت في الفصل الجديد، من السنة الدراسيَّة الثانية. في ذلك الوقت، كنت متحمِّسًا لإقامة علاقة جديدة بإحدى الفتيات. في مركز الحاسوب، رأيت فتاة من إحدى قرى رام الله، ذاتَ ملامح هادئة، ترتدي عباءة وتضع على وجهها مكياجًا خفيفًا، ولديها شامة على خدِّها الأيمن. ممتلئة، وذات بشرة سمراء، وعينين بنِّيَّتين ساحرتين. جلست إلى جوارها، وأخذت أنظر إليها. عندما أحسَّت بي أتطلَّع إليها، التفتت نحوي وابتسمت لي قائلة: أحتاج إلى مساعدتك.

كانت تعمل على تلخيص أحد الكتب. وكزميل طيِّب ووديع، أخذت أحرِّر النصّ، وأُعيد كتابته وتنسيقه، وأضيف إليه علامات الترقيم. نظرت إلى يدَيّ وهما تضربان على لوحة المفاتيح، فسألتني: يبدو أنَّك معتاد الكتابة.

«أعمل على كتابة رواية»، قلت لها من دون تفكير.

«آه، والله، شو اسمها؟»

«أبو قتادة يرقص التانغو في رام الله».

قلت لها إنَّ الرواية تتحدّث عن فتاة من مدينة رام الله، تقع في حبِّ شابٍّ من مخيَّم الأمعري. إنَّها قصَّة حبٍّ تراجيديَّة وُلدت من موقف تافه، إذ إنَّها ساعدته حين وقع على الأرض في إثر ضربة شمس، فأخرجت من حقيبتها علبة مياه معدنيَّة. قال لها: «شكرًا لله

الذي بعث إليَّ فتاة مثل خديجة أو عائشة. إنَّها أشبه بمعجزة في هذه الأيّام، وأدعو الله أن يهديك إلى ارتداء الحجاب». كان الشابُّ متديِّنًا، وناشطًا في الكتلة الإسلاميَّة، لكنَّها ردَّت عليه، وقد استبدَّ بها الغضب، بأنَّها مسيحيّة، واسمها ماريّا. بعد ذلك، تطوَّرت العلاقة. وعندما يرفض الأهل تزويجها الشابّ، تهرب معه. وقبل أن تصل إلى الحدود يتمكَّن إخوتها من قتلها.

كان في وسعي أن آخذ رقم هاتفها أو حسابها على الفيسبوك، لكنِّي خرجت من مركز الحاسوب بعد أن صافحتها. لم تكن غاضبة أو متفاجئة، بل نظرت إليَّ بتلك النظرات المتعبة، التي كانت ترجوني أن أعود. التقيتها بالصدفة في أثناء امتحان «تاريخ القدس»، فأشرقت ضحكتها، وأشارت إليَّ بيدها. جلست إلى جانبها، وقالت لي مباشرة: هل درست؟

في أثناء الامتحان، كانت نظراتها مزروعة في الفراغ. نظرات فارغة من أيِّ معنى، وهذا الفراغ كان جذّابًا إلى درجة أنِّي أخذت أتأمَّلها ونسيت ورقة الامتحان. شممت رائحتها، وشعرت بدفئها، وأحسست ببراءتها. أدركت بعد ذلك، أنَّنا أحببنا أحدنا الآخر في أثناء امتحان، وأنَّنا سنفترق أيضًا في أثناء امتحان في السنة الدراسيَّة الأخيرة. سيودِّع أحدُنا الآخرَ ونحن صديقان: صديق عازب لامرأة متزوِّجة وحامل!

في الليلة التالية، اشتقت إليها، وأخذت أفكِّر فيها، وأتخيَّلها إلى جانبي، فتشمّمت الوسائد والبطّانيّات، وحين نمت، حلمت بها.

التقينا عدَّة مرّات في الجامعة، وتحدَّثنا على الفيسبوك والهاتف.

كانت خائفة، خوفَ القرويّات من الغرباء. وكنّا نتحدَّث طوال الوقت، عن الروايات التي قرأناها، وعن الأغنيات التي سمعناها، وعن العادات والتقاليد، وأفكاري بشأن الزواج. عندها، كانت تنشب الخلافات بيننا، فتقول لي: أنت تتسلّى. وكنت أجيبها: أحبّك، لكنّي أكره الزواج.

افترقنا وانقطعت أخبارها، حتى جاءت فجأة من دون دعوة إلى حفل توقيع روايتي الأولى. كتبت لها في الإهداء كلمات قاطعة وحاسمة، لا تقبل التأويل: قطعًا، حتمًا، دائمًا، أنت في القلب.

بعد دقائق، عادت حيث كنت أجلس خلف طاولة التوقيع. جلسنا جنبًا إلى جنب هادئَين، ورحنا نتحدَّث بعد عام كامل من الفراق. كانت تضع يديها في حجرها، وتنظر إلى الأمام، حيث الطلّاب يجيئون ويروحون، ثم نظرت إليَّ وسط حزنها. كان ينبغي لي أن أحضنها، لكنّي لم أستطع. قالت فجأة: «نوح، أنا أيضًا، لم أعد أؤمن بالزواج». حينها، شعرت بالذنب، فأجبتها: «لا، ليس كذلك، الزواج أمر جميل، لكنّي لا أصلح له. في إمكانك أن تعيشي حياة سعيدة إلى جانب زوج يحبّك، وستكوّنين عائلة ناجحة».

رفعت يدها أمام وجهي لتُريني خاتم الخطوبة. «أعرف ذلك يا إسراء، هل تحبّينه؟» نظرت يومها إلى بوّابة الكلّيّة، وظننت أنّها لن تجيب. استدارت إليَّ وحدجتني بنظرة باردة، ثم لوت فمها وعقدت حاجبيها: «لا يهمّ»!

«لقد قرأت كلّ الكتب التي تحدَّثت عنها، كما قرأت الرواية الفائزة بالبوكر، لم تعجبني كثيرًا. لم أعد أؤمن بالله، وصرت أشكّ

في كلِّ شيء. أليس أنت من كنت تقول: الشكّ أفضل من اليقين، والبحث عن المعنى هو المعنى ذاته؟»

لا يمكنني وصف كم كنت حزينًا وأشعر بالذنب. ببساطة، فهمت أنَّها كانت تحاول إرضائي، وأنِّي لوَّثتها وزرعت في رأسها الأسئلة، ثم تركتها وحيدة. هل آذيتها؟ إنَّها الحقيقة المرعبة. لقد عبثت بحياتها وبعقلها، حتى إنَّها انصرفت عن التفكير في الزواج، لتفكِّر في الله والوجود.

تزوَّجت إسراء في العطلة الصيفيّة، وأصبحنا نلتقي كلّ يوم تقريبًا، لأنَّنا درسنا معًا مَساقين في الجامعة. كنت أعرف ماذا ستطبخ لزوجها، وماذا ستلبس له في المساء. وكلّ صباح، أنظر إلى بطنها، وأخاف أن تكون حاملًا. كنت أرى السعادة في عينيها، عندما يحين وقت المغادرة، فتخرج مسرعة كي تحضِّر الغداء لزوجها، فأرافقها حتى باب الجامعة وأودِّعها.

افترقنا في الامتحان الأخير، تصافحنا باليدين وذهب كلٌّ منّا في طريق. بعد شهور، في حفلة التخرُّج، رأيتها تأتي نحوي ضاحكة. سألتها: يبدو بطنك أكثر تكوُّرًا. فأجابتني: حامل. هنَّأتها، وسألتها عن اسم المولود، فقالت لي سأسمِّيه باسمك، حتى لو رفض زوجي. شعرت حينها بانتصار تافه وسط الهزائم والخيبات.

لقد أحبَّتني وتزوَّجت آخر، ثم أنجبت، ونحن في الجامعة. هل هناك حياة مسخرة أكثر من هذه!

* * *

أكثرنا، أنا ورهف ومحمود، التردُّد على رام الله التحتا. اجتزنا

دُوّار المنارة، ثم مشينا على رصيف شارع ركب، ونزلنا إلى أحد المقاهي. كان هذا المقهى لامرأة مسيحيَّة، غير متديِّنة، في الستِّين من عمرها، تُدعى سارة. لم تتزوَّج، وكانت في شبابها تمارس الجنس في مقابل المال، إلى أن كبرت وتقاعدت.

عقدت كلّ الصفقات تحت الطاولة وفوقها. لم تخسر في حياتها مرَّةً واحدة. لها ماضٍ مشرّفٍ بالفتوحات، خلافًا للذين يجلسون إلى طاولتها من الثوّار القدامى. ربحت في جميع الملاعب الوطنيَّة، وجمعت أموال المانحين الأجانب بجدارة.

امرأة سليطة اللسان وكذّابة، لديها تاريخ طويل في الاحتيال والنصب على الزبائن. ذات مرَّة، جاءت إلى طاولتنا، وقالت لأحد أصدقائي إنَّه ابن شِيْن، تاء مربوطة. وكانت تقول للزبون الذي لا يدفع الحساب: «إذا بترجع لهون، بدِّي أشري بيضاتك ع الباب». وأشري هنا، بمعنى أنشر. فيقشعِرّ جسدي، عندما أتخيَّل خصيتَيِ الزبون معلَّقتين عند باب المقهى.

لم أحبّ الذهاب كثيرًا إلى هذه المقاهي، حيث يسود مناخ التصنُّع والمشاعر المفتعَلة. كان يحيط بنا كتّاب على قدر كبير من الأناقة، يرتدون ملابس مهذَّبة، لحاهم مشذَّبة، عطورهم فاخرة. وآخرون بملابس رديئة، وأحذية قديمة، أغلبهم شعراء وصحافيُّون، إضافة إلى النساء المتحرِّرات، اللواتي لا يتوقَّفن عن إشعال السجائر والرغبات.

كان يوسف من أولئك الكتّاب، الذين يكتبون نصف كتاب ولا ينجزونه، وتجدهم ينشرون نصًّا على الفيسبوك كلّ نصف ساعة،

ويُمضون وقتهم في شتم الذائقة العامَّة، وانحدار الأدب، وفساد المؤسَّسات الثقافيَّة. في الحقيقة، لم تكن لي علاقة مباشرة به، وعلاقتنا سطحيَّة، لم تتجاوز بعض الرسائل الإلكترونيَّة. أمّا وليد الكايد، فهو شاعر مغمور، له ديوان «الخائنات أجمل»، تدور قصائده حول الخيانة الحقيقيَّة، ليس مَجازًا أو استعارة، بل الخيانة باللحم والدم، يمدحهنَّ لأنَّهنَّ أجمل عندما يخنّ أزواجهنَّ.

في إحدى قصائده المعنونة بـ «ذكر النحل»، يقول إنَّ وظيفة الرجل تلقيح الأنثى، تمامًا مثل ذَكَر النحل، والمرأة العظيمة هي التي تحافظ على البذرة في رحمها؛ إنّها سيِّدة مملكتها. أمّا الذَّكَر الملعون والمطرود، فهو لا يستحقّها. عليه أن يطأ النحلة تلو النحلة، يزرع الأطفال في أرحامهنَّ ثم يرحل. وفي قصيدة «السائل الأبيض»، وهي ملحمة شعريَّة في مديح الحبِّ المباح، منذ الإغريق حتى عام 2017، يرصد تحوُّلات الجسد من القُبلة حتى الجنس أونلاين.

بعد منتصف الليل، كانت تدور أحاديث المثقَّفين عن الحبِّ والجنس وأفكار الشرق المتحجِّرة. في البدء، ثمَّة الخروج الأوَّل، بحيث يخرج كلّ زوج من جلسة المثقَّفين، وينفرد إلى طاولة خاصَّة. تجري الخطوات نفسها، كأنَّ ثمَّة تواطؤًا بين الطرفين. يبدأ الرجل بالحديث عن الجنس، فعلى سبيل المثال، يقول: المضاجعة هي مفردة ذكوريَّة ورجعيَّة، الأصحّ استخدام مصطلح ممارسة الحبّ. ثم يتواصل الحوار حتى يصل إلى تفاصيل العمليَّة الجنسيَّة: «ماذا تحبِّين في النيك؟» يقولها هكذا، صريحة ومباشرة ومدوِّية. الأنثى، في المقابل، تهزّها الكلمة وتتخيَّل نفسها في السرير. بعد دقائق، يبدأ الخروج الثاني، بحيث يخرج كلّ رجل برفقة امرأة. وكنت أسأل محمودًا: إلى

أين يذهب هؤلاء؟ فيجيبني ساخرًا: إلى التطبيق العمليّ للثقافة.

ـ كلّهم رجال أعمال، في إمبراطوريَّة الذكور العظيمة، وعندهم صاحبات من كلِّ الأعمار. وللأمانة، لا يخدعون ولا يكذبون في علاقاتهم، لكنَّ لديهم أساليبهم الثقافيَّة، في اصطياد البنات.

ـ البنات المتعطِّشات إلى الأدب والحرِّيَّة؟

سألني محمود بجدِّيَّة.

ـ نعم، الفراشات التوّاقات إلى نار المعرفة وفضاء الحرِّيَّة، لكنَّهنَّ يسقطن ويحترقن سريعًا، لا يتركن في المقاهي سوى روائحهنَّ وحكاياتهنَّ.

حدَّثته عن البنات اللواتي تركنني مهمَلًا مع كتبي الجامعيَّة، ليجرين خلف من لديه سيّارة فخمة أو رصيد في البنك. هذا زمن ابن كلب، لا تريد فيه البنت حبًّا ولا علمًا، بل تريد وجهًا وسيمًا وجيبًا عامرًا بالمال. مدينة لا تقدِّس سوى النقود والجسد الجميل، يكثر فيها الصيّادون والطرائد.

روّاد المقهى يثرثرون وعيونهم على أجساد البنات. النَّهم في الفلوس والسرير يلمع في العيون. أُناس لديهم أجساد، وأرقام بنات على هواتفهم، يحكون عن الوطن والثقافة وعيونهم تلتهم الأجساد الأكثر بلاغة من أحاديثهم، وهنّ أيضًا يدركن بلاغة أجسادهنّ. أصبحن أكثر ذكاءً. يعرفن كيف يسحبن النقود من الجيوب في منتهى البراءة.

سرحتُ قليلًا في حال الدنيا، ثم طلبت من محمود أن يُسمعنا بعضًا من حكايات المخيَّم.

ـ على الرَّغم من أنَّ المأساة واحدة، فإنَّ لكلٍّ مخيَّم نكهتَه الخاصَّة: حكايات وأحداث ومواقف متفرِّدة. أذكر أنَّه كان ثمَّة مجلس في المخيَّم، يجتمع فيه «الختياريّة»، وكلّهم من المهجَّرين الذين عايشوا النكبة. يتحدَّثون عن الحياة والأفراح والأتراح؛ عن العنب والفواكه والخُضَر. يصفون لك تِينة أبي محمَّد، ورمّانة أبي سليم، كأنَّهما أمامهم. تشعر بطَعم ثمارهما، وتشمّ رائحتهما. كنت أجلس معهم يوميًّا طوال ساعات. حكايات تندرج في خانة العجائبيّ والواقعيّ السحريّ، لو سمع بها غابرييل غارسيا ماركيز لكتبها في رواياته.

كانوا يتحدَّثون عن شخص سقط في بئر، وبقي فيها شهرًا كاملًا من دون طعام. وحين خرج، كان أكثر شبابًا وجمالًا، و«فتح الله عليه» فأصبح يتحدَّث «الإنكليزيّ» بطلاقة. وتحدَّثوا ذات مرَّة، عن امرأة تزوَّجت بجنِّيٍّ، فأنجبت طفلًا، بدأ المشي على رجليه، بعد ثلاثة أشهر؛ وعن عجوز قال له الأطبّاء إنّ عظامه أقوى من الفولاذ، إذ لم يمرّ عليهم إنسان بصلابة عظامه، فكان يكسر الصخر بقبضة يده. وحين انفجرت به قنبلة في أثناء مهاجمة العصابات اليهوديَّة لقريته، قام كأنَّ شيئًا لم يحدث. يتحدَّثون بجدِّيَّة كاملة، تجعلك تشكّ في قواك العقليَّة: «تقول إنَّه سحر يا أبا خالد، فَرّ قدّامي مثل النمر»، قال أحدهم: «لأنَّه كان يشرب كوب زيت يوميًّا». وقال آخر: «لأنَّه لم يتزوَّج، ولم يقرب امرأة».

وأخذنا بالضحك.

انضمَّت إلينا سارة صاحبة المقهى، وقالت من دون تمهيد: هل تعرفون مَن قابلت اليوم؟

سألناها في وقتٍ واحد: مَن؟

ـ محمود عبّاس.

ـ فيمَ تباحثتما؟

ـ قلت له، يا رئيس، شعبنا ممحون، ويجب إنشاء مواخير على وجه السرعة.

تلقَّفتنا حولنا وشعرنا بالخوف. كان محمود قد قال لنا، إنَّ جزءًا كبيرًا من مثقَّفي المقهى من مؤيِّدي السّلطة، وتربطهم علاقات قويَّة بجهاز المخابرات.

شعرنا بضرورة تخريب كلّ شيء، قبل أن تسقط المصائب على رؤوسنا. قلت لها: «هذا خراء، لديك مخيِّلة جبّارة، ومن الظلم أن تبقي في هذا البلد، الذي تنعتينه بالماخور». ثم أضاف محمود: «هذا الكلام كلّه تلفيق ومحاولة تشويه لصورة الرئيس». خرجنا مطرودَين ملعونين، والشتائم المبتكرة من مخيِّلة سارة، تتساقط علينا كزخّات المطر.

عندما وصلنا إلى الشارع المزدحم بالناس وأكشاك الباعة، رأينا جَماله وسحره بعد أن أمضينا نصف ساعة، في مقهى هجين بأضواء اصطناعيّة، وقصائد استغلّها تجّار الثقافة.

رأينا سحر البيوت القديمة في رام الله التحتا. قلت لمحمود: «انظرْ ما أجمل الحياة في الخارج. إذا بقيت هكذا تُمضي وقتك في الحانات والمقاهي، فإنَّك ستشنق نفسك في الصباح. وفي هذا الوقت الذي تكون فيه مشغولًا بربط حبل المشنقة حول رقبتك، تكون رهف في صالة الجيم تمارس الرياضة».

«وأيّ رياضة تمارسين؟» سأل محمود.

ـ رفع الأوزان.

ـ ثمَّة إشاعة تقول إنَّ المرأة التي تمارس رياضة كمال الأجسام، يصبح جسمها رجوليًّا.

ـ «هذه خرافات نابعة عن جهل»، ثم أضافت بحماسة: ممارسة هذه الرياضة أفضل من ريجيمات التجويع والأدوية، ثم إنَّ جسد المرأة يصبح أكثر جمالًا وتناسقًا. رياضة رفع الأوزان، هي رياضة فرديَّة، وتناسب الأشخاص الذين يميلون إلى العزلة.

ـ هل النادي الذي تذهبين إليه مختلط؟

ـ «نعم». حينها أشرقت ابتسامة خبث على وجهه، وسال لعابه: «سآتي معك في المرَّة القادمة».

أضفت قائلًا، وأنا أنظر إلى عيني رهف: «محمود سبّاح ماهر»؟

ـ والله، أين تسبح؟

ـ ثمَّة مسبح صغير في بيرزيت.

ـ هل المسبح مختلط؟

قلت في نفسي إنَّ رام الله أصبحت مصنعًا ضخمًا لإنتاج الأجساد النموذجيَّة: مؤخّرات ممتلئة؛ صدور مندفعة مشدودة؛ خصور نحيلة. فصالات الـ «GYM» مشاريع ناجحة لخلق الجسد الحلم؛ جسد الفلسطينيّ الجديد.

ونحن نجلس على أحد أرصفة رام الله التحتا، باريس الشرق، كان الحديث حميميًّا وجدّيًّا. قالت رهف إنَّها تطمح إلى كتابة نصّ عن

الموسيقى. رواية كاملة عن المقطوعات الموسيقيَّة الكلاسيكيَّة والجاز، سيكون هناك شخصيّات قليلة. ستكتب عن إحدى صديقاتها، موسيقيّة تعزف على البيانو، من مواليد مدينة نابلس، وتسكن في رام الله. تقول رهف: كانت صديقتي مدمنة أدوية وعزلة، وتخاف من المستقبل. كنت أكره أنانيَّتها وجبنها، فأصرخ بها: اخرجي من ذاتك، واقتحمي العالم. لكنَّ المسكينة، لم يكن لها يدٌ في الأقدار التي رُسمت لها.

رفضت أمّها، وهي صغيرة، الاعتناءَ بها، فتربَّت مشرَّدة بين بيوت عمّاتها وخالاتها. وكانت، لكثرة تشرُّدها في الشوارع، تصادف وجه الله. قالت لي أكثر من مرَّة: «إنِّي أرى الله في كلِّ مكان». لقد عاشت طفولة بائسة، تعرَّضت فيها للتحرُّش الجنسيّ. في هذه الرواية، سأتطرَّق إلى موضوع التحرُّش بالأطفال، إنَّه أمر مؤلم ولا يجوز السكوت عليه.

وقال محمود إنَّه يطمح إلى كتابة رواية عن المخيَّم، وقد وضع خمس سنوات سقفًا زمنيًّا لكتابتها. «أشعر بمسؤوليَّة عظيمة تجاه المخيَّم»، أعلن بالحرف الواحد. «أريد أن أكتب معاناة تسعة آلاف إنسان وحكاياتهم».

قلت لهما: أصبحتما روائيّين. لقد باتَ الروائيُّون في هذا البلد أكثرَ من القرّاء.

(8)

قالت: «هل رأيت رجلًا بلا ظلّ؟ لقد رأيته ظهيرةَ هذا اليوم، يسير في شارع الإرسال. كان يبدو في الخمسينيّات من عمره، يرتدي خمسة أو ستَّة معاطف، وتحتها مجموعة من القمصان. وعندما خلع حذاءه، رأيته ينزع أربعة أزواج من الجوارب».

تمعَّنت في وجهها، وقلت لنفسي إنَّ فيها بوادرَ جنون، وإلَّا فما معنى أن ترى رجلًا بلا ظلّ، وتتكلّم على ذلك كأنَّه حقيقيّ.

ـ أعرف هذا الرجل من الحكايات التي تتردَّد على ألسنة الناس. أصبح حديث المدينة منذ سنة. يُقال إنَّه من شماليّ الضفَّة الغربيَّة، متشرِّدٌ يعيش في الطرقات، وكثيرٌ التجوال في مدينة رام الله بعد الظهر.

ـ ولماذا ليس له ظلّ كالآخرين؟

ـ لا أعلم. هذا شيء لم أسمع به من قبل. الأسئلة التي لا أجوبة لها، تدفع الإنسان إلى الخبل والجنون، وقد علَّمتني الحياة ألَّا

آخذ كلّ شيء على محمل الجدّ. من ينتبه اليوم إلى هذه التفاصيل؟

أمسكتني من ذراعي، وقادتني إلى حديقة الاستقلال. كانت الحديقة واسعة، كثيرة الأشجار، تنتشر فيها الطرق الضيِّقة المبلَّطة بالحجارة، وتضيئها الفوانيس المعلَّقة فوق الأعمدة. ثمَّة بقع مضيئة وأخرى معتمة. في المناطق المضيئة، كان الناس يجلسون على المقاعد، يدخِّنون النرجيلة، أو يأكلون اللحم المشويَّ على الفحم، أو يكتفون بالحديث والنظر إلى الأطفال الذين يلعبون في الساحات، وعلى المراجيح.

اشترينا قهوة ساخنة، وحبَّتي شوكولاتة، ورحنا نبحث عن مكان نجلس فيه، لنكمل حديثنا. جلسنا على مقعد، في مكان هادئ وبعيد عن ضجَّة الناس. فجأة، بدأ الضباب يزحف نحو الحديقة، حتى بتنا لا نرى أمامنا.

مالت نحوي، وقالت: «نُ... نُوح، هذا مُ... مخيف».

ـ طبعًا، لأنَّه لا يوجد أفق.

ـ حدِّثني عن ذلك الرجل.

ـ ذاتَ مرَّة، وجدناه جالسًا على الأرض، تحت شجرة صنوبر، يشرب من علبة كولا، وينظر إلى السماء. الوقت بعد الظهر، والشارع المؤدِّي إلى بيتونيا مزدحم بالسيّارات. كنت أمشي مع صديقٍ لي من طولكرم، جاء لزيارتي مدَّة يومين، وعندما رأيناه، اقترحت على صديقي، أن نهديه علبة كولا باردة، لتمهيد الحديث معه. ظلَّ صامتًا قبل أن يتكلَّم بسرعة، كأنَّه مضخَّة ماء وانفجرت.

قال لنا «عندما كنت صغيرًا، أخذني والدي مرَّتين إلى مستشفى المجانين في بيت لحم». قال له الأطبّاء، بعد أن أجروا مجموعة اختبارات لفحص قواه العقليَّة، إنَّ طفله شديد الذكاء، وليس مجنونًا. يقول عطيَّة إنَّهم رسموا خطًّا بطبشورة على أحد الجدران، وأمروه بالمرور تحته، فرفض وطلب منهم أن يمرُّوا قبله، ليلحق بهم، فأخذ فريق الأطبّاء بالضحك، ثم رسموا سلَّمًا وطلبوا منه الصعود، فرفض وطلب منهم أن يصعدوا قبله. أخيرًا أعطوه غربالًا، وأمروه بأن يملأه بالماء. قال لهم إنَّ الغربال لا يُملَأ بالماء من ألف عام، وإنَّه يُستعمل للقمح والعدس والشعير. أخذ يحسب لهم عدد الدقائق والثواني في اليوم والأسبوع والشهر والسنة، ثم ذكر لهم كلّ أنواع الخُضَر والفواكه التي خلقها الله، من دون أن ينسى أو يتلعثم.

عندما عدتُ أنظر إلى دينا، وجدتها تبحلق فيَّ بعينيها وهي في غاية الانتباه، كانت أرنبتا أذنيها مرتفعتين، وبشرتُها مشدودةً. ثم راحت متحمِّسة تطلب منِّي إكمال القصّة، والإكثار من التفاصيل، لأنَّها أرادت أن تفهم لماذا وصل عطيَّة إلى هذه النهاية القاسية، متشرِّدًا ومجنونًا، يلاحقه الصِّبْيان في المدينة.

قلت: «ثمَّة نقطة انعطاف في كلِّ قصَّة، بحيث لا تعود الأشياء نفسها، وتأخذ منحًى آخر».

نظرتُ إلى المشاة وأنا أشعر بالحزن. لا أحد يدقِّق في تفاصيل هؤلاء الأشخاص. لا أحد يلحظ التفرُّد والعبقريَّة في حياتهم. إنَّهم منسيُّون ومهمَّشون؛ الضحايا الذين نضحك منهم ومن جراحهم. أخبرني أحد الأصدقاء كيف ضرب أحدُهم عطيَّةَ على ظهره بعصًا

خشبيَّة، وكيف سقط على الأرض وأخذ يئنّ ويزحف من الألم. وحدَّثني عن الصِّبْيان الذين لاحقوه بالحجارة في الشوارع، وهم ينادونه: عطيَّة المجنون، عطيَّة المجنون.

وأضفت: «لقد قال الأطبّاء إنَّ عطيَّة شديد الذكاء، لذا يجب أن يدخل المدرسة، لكن والده رفض، وأصرَّ على أنَّه مجنون. كبر عطيَّة، وأصبح يرتدي الجاكيتات والمعاطف الشتويَّة في الصيف. كان متمرِّدًا حتى على الطقس. تخيّلي، كيف كان يرتدي كلّ هذه الملابس في أثناء موجات الحرّ التي تضرب البلاد؟»

رحت أفكِّر: لا بدّ من أنّه واحد من لامنتمي كولن ويلسون، لم يَخَفِ الجوعَ أو الجنون أو الموت، وكان هو ذاته تجسيدًا لفكرة الحقيقة، حيث لا حقيقة: عبثيَّة الحياة وتفاهتها.

ما زلت أتذكَّر كيف وضعتُ رأسي بين يدَيّ، وأخذت أبكي. اقتربت ومسحت على رأسي بيدها. «وأنا صغير ضربت فتاة مجنونة من قريتنا، كانت دائمًا تحمل وردة في يدها، وعندما تجوع تأكلها. تغنّي أغنيات حبّ، وتجلس على عتبة بيتها تنظر إلى المشاة بنظرات شاردة».

سمعت أنَّها كانت تعشق شابًّا من شباب القرية، مات في ورشة بناء بعد أن سقط من الطابق السادس. كانت غادة تعطيني كلَّما رأتني كيس شيبس أو حبَّة شوكولاتة، وتقبِّلني. ذات يوم، ضربتها بعصًا من خشب الرمّان، ولحقت بها حتى باب بيتها، وهي تصرخ وترجوني أن أتوقَّف.

برهنت لنفسي يومها أنّي قاسٍ كالآخرين. لم أكن كما ظنَّت،

بريئًا ولديَّ قلب طيِّب. ضربتها لأنَّها بصقت عليَّ، حين قلت لها: «يا مجنونة، مات إلي بتحبِّيه من زمان». وأنا الآن، يأكلني الندم والشعور بالذنب. لا يمكنني أن أنسى صراخها وبكاءها. إنَّهما أشبه بأنشودة موجعة ينبغي لي الإصغاء إليها.

أخبرني أخوها، الذي أصبح من أعزّ أصدقائي فيما بعد، بـ «أنَّها تحتفظ في صندوق لها بعشرات الرسائل، مكتوبةٍ على الوجهين، وقد استلمتها من فتى أحلامها بمساعدة صديقاتها. كما أنَّها كانت في الليالي الطويلة تهذي باسمه، من بين شفتين متحجِّرتين، وهي تَرْشَح عرقًا باردًا. تهذي حتى الفجر، وعيناها جفَّتا من كثرة البكاء. وعندما تصحو، أجدها متيبِّسة، ولسانها قد تخشَّب من شدَّة العطش. لم يكن في وسع أمِّي أن تفعل غير أن تدثِّرها بالأغطية الصوفيَّة عندما تصيبها القشعريرة، وتصنع لها بعض المشروبات الساخنة. كانت في أثناء النهار تحضن كلّ الأشياء التي تذكِّرها بذلك الزمن: مريولها وحقيبتها المدرسيَّة؛ الهدايا؛ دفتر الأشعار الذي كتبه لها. أمّا في شهر نيسان، فقد كانت تتدثَّر بأزهار اللوز، وهي تنظر إلى السماء، وتغنِّي بصوت حزين، أغنياتٍ تخلع القلب».

نظرت إلى الوجوه والسماء المرصَّعة بالنجوم. تمنَّيت أن أتلاشى في الفضاء. قالت لي دينا: ليس لك ذنب فيما حدث.

«يحفظ عطيَّة آلاف الأبيات من الشعر العربيّ، ويتحدَّث في الشارع بصوت مرتفع، بلغة عربيَّة فصحى، سليمة من الأخطاء اللغوية، عن الأوضاع السياسيَّة في الوطن العربي».

لماذا؟ لماذا كلّ الأشياء التي كانت تُضحكنا في الماضي،

صارت تُبكينا الآن، وتحوَّلت إلى آلام أبديّة؟ يقول بورخيس: بعد فترة، تبدأ بتقبُّل هزائمك برأس مرفوع، وليس بحزن طفل. تزرع حديقتك بدلًا من انتظار أحدهم ليهديك وردة؛ وتتعلَّم، مع كلّ وداع تتعلَّم.

سألتها عن ماضيها، فكانت أجوبتها مجتزَأة وضبابيَّة. فهمت أنَّها عانت في صغرها فقدانَ أمّها، وكانت العلاقات في عائلتها معقَّدة. والدها تزوَّج بامرأتين، وأنجب منهما، وأهمل عائلته، لأنَّه كان مشغولًا بالشُّرب والنساء. حدَّثتني كيف رأته ذات مرَّة، عائدًا إلى البيت بعد منتصف الليل وهو مخمور، وكيف حاول الاعتداء عليها.

ثم أخرجت صورة من محفظتها. رأيت طفلة صغيرة، لها شعر طويل أشقر، وفم ناعم، وخدَّان ورديَّان، ترتدي ملابس البحر، وتقف إلى جانبها على الشاطئ. قالت لي إنَّ أختها، في اليوم نفسه الذي التقطت به الصورة، كادت تموت غرقًا، لولا أحد الرجال الذي كان ماهرًا في السباحة، واستطاع إخراجها من هناك، قبل أن تلفظ أنفاسها. «نوح، هاد البنت مش بس أختي، هاد حبيبتي وحياتي كلّها، أخذت نصّ روحي، أنا إلّي ربَّيتها، بعد ما ماتت أمّي. كنت أعمل طول فترة الجامعة، حتى أساعدها بمصروفها، عشان ما تحسّ إنَّها محرومة من إشي.

هي سعادتي في الحياة، لا أتصوَّر أنَّ ثمّة أختًا تحبّ أختها، كما أحبّ عبيرَ. إنَّها طفلة ملاك، جذّابة، عذبة، شاركت في العديد من المسابقات العلميَّة في المحافظة، ثم تأهَّلت على مستوى الوطن، وفازت في الكثير منها. قبل مرحلة الثانويَّة العامَّة، كانت تُسِرُّ إليَّ

برغبتها في الدراسة خارج البلاد. قالت لي إنَّ دراسة الجراحة في الخارج أفضل من دراستها في فلسطين، لكنَّها كانت تعلم في داخلها، بأنَّ السفر قد يزورها فقط في الأحلام. كوَّنت آراء في الدِّين والزواج والمجتمع وحقوق المرأة، وكان لديها هذا النزوع نحو الممارسات الجنونيَّة، مثل الجلوس على طرف السُّور الذي يحيط بسطح بيتنا، تاركةً رجليها متدلِّيتين إلى الأسفل تحت الأمطار الغزيرة.

ذاتَ ليلة بعد غروب الشمس، دخلتِ البيت وهي ترتجف من الخوف؛ لم تستطع نطق حرف واحد طوال الليل. في الصباح، عندما حاولتُ فتح الستائر في غرفتها، لتتمكَّن أشعَّة الشمس من الدخول، انتفضتْ بطريقة يصعب وصفها. صرخت مرعوبة، واختبأت تحت أغطية السرير، وهي ترجوني أن أغلقه.

زارها في البيت كثير من الأطبّاء والمعالجين النفسيِّين، لأنَّها كانت ترفض الخروج. قالوا لنا إنَّها تعرَّضت لحادثة مريعة، فأصبحت تخاف من العالم الخارجيّ. رهاب شديد، يحتاج إلى فترة طويلة من العلاج، ورغبة قويَّة من المريض في الخروج من الحالة».

حدَّقت فيها، وسألتها: كيف أصبحت الآن؟

ـ لقد تحسَّنت، لكنَّها أصبحت فتاة أخرى، أقلَّ ذكاءً وشجاعة. تزوَّجت بمهندس يعمل في إحدى شركات البترول في الإمارات، وهي الآن، ربَّة منزل وأمّ لطفلين.

ـ هذه القصص الحزينة لا نهاية لها. تشعرين بأنَّ الإنسان قد خُلق ليتعذَّب ويعاني في حياة لم يخترها. كأنَّ المعاناة هي القاعدة، والسعادةَ هي الاستثناء، في عالم لا يرحم.

تعبت من الحديث والجلوس على المقعد، فاقترحت عليها المشي في الحديقة. قادتني بين الممرّات والأشجار إلى أن وجدتُ نفسي، واقفًا أمام صخرة ذات هيئة غريبة. بدت الصخرة سقفًا لغار صغير، فيها تكويناتٌ غريبة الشكل أحدثتها الطبيعة، وتظهر تحتها فوّهةٌ معتمة لمدخل لا يُعرَف أين نهايتُه.

وقفت أمامي، ثم راحت تتقدَّم نحو الصخرة. كنتُ كلَّما تقدَّمت خطوة، شعرت بشعور غريب، يشبه شعور شخص ينزل في مدينة غريبة لأوَّل مرَّة: مزيج من الخوف والرغبة في الاكتشاف. بدأت ألهث كأنِّي أصعد قمَّة جبل. قالت وهي تشير إليّ بيدها: توقَّفْ.

قلت لنفسي: ما هذه الورطة؟ لماذا لا أرافق سوى المجانين؟

راحت تلمس الصخرة بأصابعها، ثم تمتمت بكلمات غير مفهومة، تشبه التهويمات أو التعويذات الشيطانيَّة. عندما اقتربتُ وحاولت لمس الصخرة، رفعتُ يدي بسرعة، لأنَّها كانت ساخنة مثل جمر مشتعل.

قالت لي: هل سمعت في حياتك صخرة تتكلَّم؟

ـ هذه الأحاديث غير مناسبة في الليل. لا تقولي إنَّها جنِّيَّة تحوَّلت إلى صخرة. أنا لا أؤمن بكلِّ هذه الخرافات.

سألتني إن كان قد لفت انتباهي أنّ فوّهة المدخل لا تتَّسع إلَّا لشخصٍ واحد.

«وماذا يعني هذا؟» سألتها. «عندما ذهب عطية إلى مستشفى المجانين في بيت لحم، ورسموا له خطًّا بالطبشورة على الحائط، ثم

أمروه بأن يمرّ تحته، ماذا قال لهم؟ مُرُّوا تحته، وأنا ألحق بكم. هذه التجربة الجنونيَّة لا تسمح إلَّا لشخص واحد بدخولها، شخص يحمل بذور الجنون داخله. وبما أنَّك شعرت بحرارة الصخرة، فهذا يعني أنَّك تستطيع دخولها».

وعندما تقدَّمتُ أكثر، رأيت حجرًا يغلق المدخل.

«هذا الحجر يتزحزح وحده ما إن تلمسه».

تذكَّرت روايات الخيال العلميّ والفانتازيّا، والحديث عن العوالم الموازية. قلت لنفسي إنّ في هذه الأرض الكثيرَ من الأشياء غير العقلانيَّة. كان عليَّ أن أختار بين العقل والوهم؛ الوهم الذي يصبح واقعًا لفرط التخيُّل. عوالم، كلّ عالم يوازي آخر، يسير إلى جانبه، وقد يحدث أن يتشظَّى المرء بين عالمين؛ أن يكون هنا، وينتمي إلى هناك. ليس هناك عالم وحيد كما يعتقد البعض، بل عدد لامتناهٍ من العوالم.

قلت لها: لقد أصبحت أميل إلى الفكاهة والسخرية، ولن آخذ شيئًا على محمل الجدّ، بما فيه حديثُك عن الصخرة التي تتكلَّم. ربَّما سأكتب عنها في رواية، فيدفع الفضول قارئًا، فيه بذورُ الجنون ذاتُها التي نحملها، إلى البحث عنها، وربَّما يجدها، ثم يدخل من ذلك المدخل الذي يشبه الموت. سيذهب ولن يعود ليحكي لنا ما رأى وما حدث.

ـ صحيح، على الأغلب أنَّ الحجر يُغلَق بمجرَّد دخول الشخص إلى الفوَّهة. تبتلعه الصخرة في جوفها مثل حوت يونس.

«حينها ستظلّ الصخرة وما وراءها، مثل الموت وما وراءه، أمورا

غيبيَّة، لا يمكن البتّ فيها أبدًا»، قلت لها.

ـ لذلك، ستظلّ الصخرة خرافة محضة؟

ـ نعم، على الأرجح.

ـ تخيَّل لو أنَّ هذا المدخل يؤدِّي إلى عالم آخر، فيه الأحجار تتكلَّم أكثر من لغة، والغاباتُ تتحدَّث؛ حيث الأشجار مقلوبة، والأنهارُ تجري من البحر إلى قمم الجبال، والأحلامُ تتمازج مع الواقع، فلا تدري أأنت في أحد أحلامك أم في واقعك. تخيَّلْ أن تحلم بأنَّك تقتل أحد الأشخاص بمسدَّس، وعندما تستيقظ تجده غارقًا بالدماء، في إثر رصاصة في رأسه. تخيَّلْ أن تحلم بامرأة تشتهيها، فتجدها صباحًا في سريرك، ناضجةً ودافئة.

ـ أنا لا أثق بشيء، وربَّما أعيش في عالم لا وجود له. لا أستطيع أن أجزم. قد يكون كلّ ما نراه ليس أكثر من حلم!

ـ ماذا يمكن أن نسمِّي هذا العالم الذي لا وجود له؟ كيف في وسعنا أن نفرِّق بين الحقيقة والوهم؟

ـ صحيح، لا بدَّ من وجود علامات للتمييز بين العوالم، أليس كذلك؟ لكنَّ المشكلة إذا تقاطعت، وتقلَّصت المسافة الفاصلة بينها، فسيغدو الأمر مستحيلًا.

ـ سوف يفتح الباب لكلِّ الأشياء غير العقلانيَّة. في أيِّ حال، تشعر بأنَّ ثمَّة خللًا أصاب العالم، وأن لا منطق فيه.

حاولت أن أفسِّر الأشياء؛ أن أتخيَّلها؛ أن أشرحها. ولمع سؤال في ذهني: هل ما يقع أمامي ماضٍ متخيَّل لمستقبل لم يتحقَّق؟ أيّهما

سيكون الماضي الحقيقيّ؟ لا أعرف في أيِّ عالم أعيش، لكن ما الفرق؟ سواء كنت أعيش في الواقع، أو في الحلم، أو في أيِّ عالم آخر، المهمّ أنَّني أنا نفسي نوح، لا أعرف كيف صُمِّم هذا العالم، ولا أعرف ماذا أفعل فيه. وإن عرفت أشكّ في جدواه. كلّ ما أعرفه أنَّه قاسٍ وظالم.

قلت لها: «ربَّما أفضل ما يمكن القيام به هو مواصلة الحياة، وهذا ما أحتاج إليه: حياة على هيئة نوم طويل، من دون أن أستيقظ منه مرَّة أخرى، فلا أُدرك ما يحدث حولي، وأتوقَّف عن التفكير في أيِّ شيء، منغمسًا في فراغ بلا معنًى».

كانت دينا تتحدَّث كأنَّها تقف على خشبة مسرح: تخيَّلْ، تخيَّلْ، تخيَّلْ... ونحن نقف وسط رام الله التي أصبحت تضيق علينا يومًا بعد آخر. أشارت فجأة إلى برج فلسطين الذي يبعد عنّا بضعة أمتار، وقالت: «هذه الخوازيق التي تنتصب كأيور الرجال، هي من تلفت الانتباه. أمّا هذه الصخرة اليتيمة، فلن يلتفت إليها أحد، إلَّا إذا مرَّ بها وبال عليها نبيٌّ جديد، حينها قد تصبح مَزارًا أو معبدًا».

أخذت أضحك من فكرتها. «في وسعنا أن نخترع حكاية عنها. نقول على سبيل المثال: إنَّ أحد الأنبياء جلس وصلَّى عليها، وشكلها الغريب حيث ترتفع عن الأرض، يوحي كأنَّها تسعى لأن تُعانق السماء. ستدفع حكايتنا إلى دائرة إيمان البعض، ثم تتَّسع مع مرور الوقت، لتصبح جزءًا من العقيدة. أليس هكذا تجري الأمور؟»

أشارت مرَّة أخرى إلى البرج. قالت وهي تهزّ رأسها: يقول حسين البرغوثي «إنَّ رام الله تعيش في زمن الأبراج، حيث المباني

الإسمنتيَّة تتوغَّل في القبح والعنف البصريّ». هل لاحظتَ الذكاء في التعبير يا نوح «تتوغَّل في العنف البصريّ»؟

خرجنا من الحديقة ودخلنا البرج، ثم أخذنا المصعد الخارجيّ، الذي قادنا إلى الطابق الأخير. كان المصعد زجاجيًّا، واستطعنا أن نرى رام الله من الأعلى: الفيلل الكثيرة الأضواء؛ العمارات، والشوارع المُضاءة بأعمدة الإنارة التي امتدَّت في كلِّ الأحياء، كأذرع الأخطبوط. صرخت وهي تنطنط داخل المصعد: «انظرْ إلى رام الله بعد أوسلو، إنَّها تشبه ضربات ريشة رسّام مبتدئ». قلت لها ضاحكًا: «هذا تشبيه جميل ومتقَن يا بربريّة؛ يا عدوَّة الحداثة. لكنْ، ماذا لو قلنا، إنَّها مساحة تعرّضت لتخريب متقَن، من جرّافة تدَّعي أنَّها الله».

«تقصد السلطة؟» سألتني.

«أقصد كلّ أولئك الذين يعتقدون أنّ لهم الحقّ في العبث بكلِّ ما ترينه. المدن أيضًا كالبشر. هناك استبداد وفرض لوجهات نظر معيَّنة. المفروض أن تُترَك المدن في حال سبيلها؛ أن تنمو في مُناخ صحّي، وألَّا تلوَّث بأطماع الداخلين إليها».

ضحكت وهي تدفع باب السطح بيدها. لم يكن الباب مغلقًا بقُفل كما تصوَّرت. كان يكفي أن تَدفع الدفَّة إلى الخارج. وقفت فوق أعلى السطوح وأكثرها حداثة؛ فقيرِ التاريخ والذاكرة، لا يشبه سطح دارنا. أخذتني الأفكار، وقلت لنفسي إنَّ هذا السطح الحديث سيكوِّن ذاكرته وتاريخه الخاصَّين به. هناك، تذكَّرت أبيات شعرٍ لمحمود درويش يقول فيها:

«وطني ليس حقيبة

وأنا لست مسافر

إنّني العاشق والأرض حبيبة»

التفتت إليَّ، ونحن ننظر إلى رام الله: تخيَّلْ، لو أنِّي قفزت من هنا.

شعرت بالخوف. «ممنوع تخيُّل مثل هذه الأشياء، هل فهمتِ؟ لا تعودي إلى التفكير في هذا».

ـ دائمًا يوجد سؤال عن القيمة والجدوى: الدراسة؛ العمل؛ الزواج؛ الهوايات؛... حتى نصل إلى سؤال وجودنا ذاته. لنفترض أنِّي رميت نفسي من هذا العلوّ، فسيتحدَّث الإعلام وسينشغل الفيسبوك فترة، ثم «تُنسى كأنَّك لم تكن»، كما يقول محمود درويش.

ـ هذا شيء طبيعيّ، كلّ إنسان يظنّ أنَّه الكون، وفي الحقيقة إنَّه كائن تافه محض في نظر الكون. تخيَّلي أنَّك الكون. انظري إليَّ.

نظرت بطرف عينها، وقالت ممازحة: أين أنت؟ لا أراك.

بدت دينا رقيقة ذلك المساء. شعرتُ بأنَّها قريبة إلى درجة أنِّي أستطيع لمسها. زحفت يدي عبر ذرّات الهواء إلى يدها، لمستها، وكأنَّ اللمسات دغدغتها. أخذ جسدها يتحرَّك بدلال.

ـ نوح، حاسَّة اللمس هي أصدق الحواسّ، أليس كذلك؟ العالم كلّه يبدو وهميًّا إلَّا عندما نلمسه.

الرياح عاتية، وسماء رام الله تبدو أكثر انخفاضًا. مدينة ضيِّقة، لا غموض فيها، واضحة ومحدَّدة: أُناسها؛ طرقاتها؛ أزقَّتها، محالُّها.

وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّها تظلّ قريبة من القلب. تتذكَّر كلّ جنونك فيها.

فكَّرت في الرقص. أخذت قدماي تضربان الأرض على إيقاع موسيقى وهميَّة؛ عزف قيثارة انبعث من زاوية ما في رأسي. رفعت يدَيَّ في الهواء، كراقصٍ إسبانيّ في العصور الوسطى. أخذتُ يدها المتعرِّقة، وقلت في نفسي: أداء دور المجنون، والتنكُّر بعالمه، هما الطريق الوحيد إلى النجاة من الجنون.

الرقص يجعلنا نتماسك، يُدخلنا في انسجام موقّت مع المكان، ويجعل حياتنا قابلة للاحتمال.

«فيمَ تفكِّر؟» سألتني.

ـ أقول لنفسي، فلسطين أصبحت ضيِّقة على الذين يفكِّرون ويحلمون.

ـ لا تكن متشائمًا إلى هذا الحدِّ.

ـ لديَّ صديق اسمه حنّا من بيرزيت، دخل السجن لأنَّه حاول تصنيع صواريخ كان من المخطَّط لها أن تسقط في تل أبيب، لكنَّ الاحتلال كشف الرسالة التي وصلته عبر البريد الإلكترونيّ، من رفاقه في غزَّة. حُكم عليه بالسجن ثماني سنوات، وعندما خرج كان عليه أن يبدأ من جديد: درس تخصّص إعلام في جامعة بيرزيت. بعد أن تخرَّج لم يجد عملًا، مثلي، فاضطرّ إلى العمل في المطاعم والمناجر وورش البناء. قال لي: «تخيَّل أنَّ مطاعم رام الله رفضت طلبي للعمل، بحجَّة أنَّ شخصيَّات سياسيَّة تأتي إليها، وأنا أمثِّل خطرًا أمنيًّا عليها. وضحكت يومها، كما لم أضحك في حياتي. شرُّ البليَّة ما يُضحك.

هل هذا جزاء تضحياتي؟ يعاقبني المجتمع لأنّي كنت مناضلًا. لا أريد مساعدة، أريد فقط أن يرحموني».

«هل نضالنا كان عبثًا؟» سألتني.

ـ ليس عبثًا، لكنَّه خضع لسياسة التسليع. كلّ شيء قابل للبيع، بما فيه الوطن ودماء الشهداء.

تلك الليلة، بعد أن عدت إلى السكن، وقفتُ عند نافذة غرفتي لأدخِّن سيجارة، فرأيت بومة صغيرة الحجم وهي تهبط على السور المقابل. حدَّقت نحوي بعينيها الواسعتين، ثم حرَّكت رأسها حركةً شبه دائريَّة، قبل أن تعود مرَّة أخرى إلى مراقبتي. كان الأمر غريبًا، فأنا لم أَرَ في الواقع بومة واحدة. ثم من أين جاءت؟ لماذا وقفت على السور المقابل؟ ربَّما تكون في مهمَّة تجسُّس، لمصلحة أناس في عالمٍ آخر، يبدو أنَّ تحرُّكاتي بدأت تُغضبهم. كلّ شيء يجب أن يبقى على حاله، والروابط التي توثِّق الأشياء، وتضمن عدم تداخل العوالم، عليها أن تظلّ سليمة من دون تلف. أظنّ أنَّني عبثت بعشّ الدبابير، وأدخلت نفسي في ورطة كبيرة، وهذه البومة ليست أكثر من نذير شؤم، لتلك الأشياء المرعبة التي لم تقع بعدُ. أخذت البومة بالنعيق عدَّة مرّات، قبل أن تفرد جناحيها وتطير بهدوء، من دون أن تترك خلفها أيَّ أثر.

(9)

خرجتُ في صباح اليوم التالي، وأخذت سيّارة «فورد» إلى رام الله. كانت ممتلئة بالعمّال من إحدى القرى، أصواتهم خشنة، وأصابعهم جافَّة ومصفرَّة، وسجائرهم رخيصة. كلّ تلك الأشياء، ذكَّرتني بأنّي واحد منهم. كانوا ذاهبين إلى إحدى وُرَش البناء في المدينة. ملابسهم المتَّسخة بالغبار والباطون، وشَت بهم.

رأيت صديقي سالم الديك، الدائم الابتسام والمزاح. يعرفه أهل المدينة بعربته التي يزيِّنها بورود بلاستيكيَّة، وراديو صغير، يصدح منه صوت فيروز.

ـ صباح الخير يا سالم.

ـ صباحك، وصباح صديقنا جمال.

ـ الله يرحمه.

ـ قلتُ له إنَّ الناس في بلادنا تعرف الحقيقة، لكنَّها تدَّعي عدم

معرفتها، إلّا أنّه لم يسمع نصيحتي. عنيد ورأسه كالحجر. قتلوه ومشوا في جنازته، ثم زفّوه بالخطابات التي تخفي وراءها أطنانًا من الكذب.

كان جمال صحافيًّا، كثيرَ النقد، يكتب في صحيفة عربيَّة مرموقة. فضح أكثر من مرَّة رجال أعمال وسياسيين، سرقوا أموال الناس، يصفون أنفسهم بالمناضلين والشرفاء، في حين أنَّهم صعدوا على أكتاف المناضلين الحقيقيين. كان يقول إنَّ علينا أن نعرِّي هؤلاء من الألقاب الكاذبة وأقنعة الشرف لنفضحهم أمام الناس. ما جدوى الكتابة إن لم تترك حرائق خلفها. إنّها قنبلة موقوتة وأداة للتغيير.

في أحد الأيّام، وجده عامل نظافة جثَّةً هامدةً إلى جانب عمارته السكنيَّة، ثم أُغلق التحقيق بحادثة انتحار. قالوا إنَّه كان مريضًا نفسيًّا، وحاولوا تشويه سمعته في الفيسبوك والإعلام، لكنَّ اللعبة كانت مكشوفة أمام الناس.

جلست في مقهى الحرِّيَّة، الذي بدأت ألوانه تبهت بشكل ملحوظ. عقودًا من الزمن يفتح أبوابه للناس، يحتسون القهوة ويتبادلون أطراف الحديث على كراسيِّه الخشبيَّة، التي قاومت فرص تحطُّمها لسنوات.

على أحد جدران المقهى المطليَّة بدهانٍ أبيض، والتي راحت تتهافت بفعل الرطوبة، صورةٌ كبيرة للجدِّ الأوَّل الذي أسَّس المقهى، بملامحه القاسية والمشدودة، يتّكئ بكوعه على عصًا خشبيَّة، ومن بين أصابعه تتدلَّى مسبحة مذهَّبة بحبّاتها الثلاث والثلاثين. والطربوش الأحمر الذي يلبسه أهل الحَضَر على رؤوسهم يزيد في جماله وهيبته، فيتوسَّط الصورة كأنَّه ملك، وعلى رأسه تاجٌ وليس طربوشًا.

الطاولات التي يتحلّق حولها الرجال للعب النرد والورق، تتوزّع في كلّ ركن، فتشغل أغلب مساحة المقهى، في آخره تصطفّ النراجيل بأحجامها المختلفة على الرفوف منتظرةً مَن يطلبها.

جلستُ إلى إحدى الطاولات، ورمقتُ المارّين عبر زجاج المقهى المتّسخ. الأوضاع في البلد تسوء، وتسقط في أكُفّ حثالة من السارقين الذين يقتاتون على دم الفقراء وعرق جبينهم.

كان أبو نضال جالسًا إلى طاولته، في زاوية قصيَّة، يبصق على الأرض شاردًا في الجريدة. يحرق سيجارة تلو الأخرى مقاتلًا الفراغَ وأشباح الماضي. أعوام وهو على هذه الحال، يعيش وحيدًا لا يُؤنس وحدته سوى رفاق قدماء، يعيشون على رواتب التقاعد التي تمنحها السّلطة.

عاد الثوّار إلى رام الله بعد أن أمضوا أعوامًا في تونس، منذ الخروج من بيروت عام 1982 م. أصبح أغلبهم وزراء ومسؤولين وأصحاب فنادق ومطاعم. أمّا البقيَّة، بقايا المناضلين وبقايا الثوّار، فقد أُهملوا بعد أن انتهت خدماتهم، وتُركوا بلا عمل.

كنت أسمعه يقول بعد أن يسحب نَفَسًا من سيجارته، ويرفع قبضته عاليًا في الهواء: الثورة لن تموت. قاتلنا في بيروت، والآن نقاتل هنا. نكافح بالسياسة؛ بالمفاوضات؛ بالكلام؛ فوق الطاولات وتحتها، وأمام كاميرات التلفزيون. لا يهمّ. سنظلّ نناضل ما دامت حناجرنا بخير.

سنوات طويلة من القتال في الأردن ولبنان وداخل الأراضي المحتلَّة، وفي مطارات العالم، لم يعرف سوى البندقيَّة، ولم يسمع

سوى أزيز الرصاص، ولم يرقص إلّا على هدير الطائرات.

يتذكّر العمليّات في مستوطنات الشمال، وكيف كان يعبُر البحر بالزوارق المطّاطيّة مع رفاقه الثوّار، ليصل إلى حيفا وتل أبيب. أمّا الآن، وقد تغيّرت الوجهة، فَقَدْ صار المناضلُ القديم، مناضلَ لسان من طراز رفيع، وراقصًا من الصفِّ الأوّل، لا تضيع منه مناسبة أو ندوة. ينقضُّ على المايكروفون برغبة عاشق، يعانقه، ويضمّه إلى يده كأنّه بندقيّة، مسترجعًا أيّامَ الثورة التي استحالت إلى كلمات.

ذاتَ مرّة كان يلعب الورق مع آخرين، وهو يشتم المنظّمة وما وصلت إليه حال الثورة. سمعته يتحدّث عن أحد رفاقه في الكفاح؛ عن حسابه في البنك، وأولاده الذين يدرسون في أميركا على حساب السُّلطة، ورحلات زوجته إلى باريس ولندن وبرلين، وعن الهدايا والعطور التي تجلبها.

بعد أن أنهيت قهوتي، خرجت ومشيت في الشوارع. فتّشتُ في الوجوه عن شيءٍ يُضيء ما في داخلي. حاولت تفسير هالة المشاعر التي ترتسم على خرائط الوجه. بحثت في عيون الفتيات عن دفء يبدِّد البرودة التي راحت تتكوّر في أحشائي، ونظرت بحزن إلى صُوَر الشهداء المعلّقة على الحيطان.

سرت صوب دوّار المنارة، ثم واصلت السير حتى قصر الحمراء، وعدت من جديد إلى الدوّار.

رأيتُ فلّاحةً بملابسها المطرّزة، تعبر الشارع متعَبةً في اتّجاه بسطتها قرب دوّار المنارة، تحمل في يدها حزم النعنع والزعتر البلدي. كانت رائحتها قويّة تعبق في الشارع، تمشي بهدوء من دون أن تتحدّث

إلى أحد، كأنَّها شاردة في مكان آخر؛ تمشي في حلمها، خفيفة على الرَّغم من الأحزان ومشقَّات العمر.

قلت في نفسي إنَّها ممتلئة بالأسئلة والصرخات، على الرَّغم من الهدوء والاتِّزان الظاهرين؛ صبورةٌ، تعلَّمت كيف تشدّ على جراحها، وتتجاوز لحظات انكسارها.

توقَّفت وراحت تمسح المكان بعينين حزينتين. ربَّما تذكَّرت لحظات وقوعها في الحبِّ أوَّلَ مرَّة، في أوَّل شارع ركب مثلًا؛ بنت قرويَّة تقع في حبِّ شابٍّ من المدينة: كيف أحبَّته من النظرة الأولى، وكيف كانت تلتقط رسائله من الشارع خفيةً؛ أو أنَّها تذكَّرت اعتقال ابنها في ذلك المكان، قبل أن يُزَجّ به في السجن، وقد يكون مكان استشهاده.

على الرَّغم من أنَّها لم تفتح فمها بكلمة واحدة، ولم تتحدَّث إلى أحد، فإنَّ نظراتها الحائرة كانت تشي بعمق الحكاية وحدَّة الألم.

بعد أن أنهيت جولتي، ذهبت إلى العمل في السوبرماركت. لن أنسى هذا اليوم طوال حياتي، لأنَّه كان صعبًا وقاسيًا، وترك جروحًا داخلي. بدَّلت ملابسي. ارتديت البسطار العسكريّ، وتي شيرت السوبرماركت. ثم جاءني المشرف، وقال لي إنَّه يجب عليَّ النزول إلى المخازن للعمل. وعند وصولي تفاجأت بأنَّ المدير كان حاضرًا، يُلقي الأوامر على خمسة شبّان صغار في العمر، لا يتجاوز أكبرهم السادسة عشرة، وجدتهم ينقلون البضائع على أكتافهم من مكان إلى آخر، ويسيرون على شكل سرب من النمل، بينما المدير يصرخ ويقول: «إذا ما اشتغلتوا اليوم وينتى بدكم تشتغلوا!!»؛ «يلّا يا أولاد القحبة»؛ «قيم هاد الكرتونة يا كلب». حينها عرفت أنّي لن أتحمَّل هذه الشتائم

والإهانات، على الرَّغم من حاجتي الملحَّة إلى العمل. سأضربه، وربَّما أقتله إن تطاول عليَّ. لا يمكن أن آكل لقمة مغمَّسة بالذلّ «لكلّ شيء حدود»، قلت في نفسي، وتذكَّرت كلام والدتي «لا تترك حقَّك يمّا، الضعيف ما إلو مكان في هالحياة».

سمعت، في أثناء عملي، صراخًا آتيًا من الساحة الخارجيَّة للمخازن. ركضتُ إلى الخارج، فوجدتُ حمزة على الأرض، ويتجمهر حوله مجموعة من العمّال. كان يتلوّى من الألم، ممسكًا بقدمه النازفة، فاقترب نحوه أحد العمّال وهو يحمل عصًا خشبيَّة، وبدأ يضرب على قدمه بعد أن نزع المسمار. كان المدير ينظر إليه بنظرات لامبالية، وبدا لي أنّه ابتسم، ثم أحضر أحد الموظَّفين سيّارته، ونقل حمزة إلى المستشفى.

بعد ذلك، طلب منِّي المدير أن أعمل في الساحة الخارجيَّة. دائرة الأرصاد الجوِّيَّة، صرَّحت بأنّ شهر تمُّوز لذلك العام، كان من أكثر الشهور ارتفاعًا للحرارة منذ ثلاثين عامًا. تحت تلك الشمس الحارقة، عملتُ طوال ساعات، أنقل كمِّيّات كبيرة من البضائع على كتفيَّ إلى داخل المستودعات. وعندما حاولت الجلوس لدقائق في ظلّ إحدى الأشجار، وجدته يقف أمامي ويصرخ بي: «قوم يا كلب؛ نوح الزفت»، ثم ضربني على وجهي بقبضته.

احتجت إلى لحظات حتى استوعبت الصدمة والتقطتُ أنفاسي. رأيت قضيب حديد على الأرض، حملته ثم رحت أضرب به ظهر المدير وذراعيه. ما زلت أتذكَّر، كيف كان يتلوّى تحت رجليّ من الألم، صارخًا بي أن أتوقَّف، لكنِّي لم أتوقَّف حتى جاء سائر العمال وأبعدوني عنه.

طردني من العمل، ولم يعطني الأجرة. وباتِّصال واحد زجّ بي في السجن، ليتكفَّل الباقون بمهمَّة تأديبي. تعرَّضت للضرب طوال الليل، وفي صباح اليوم التالي ألقوا بي في الشارع. بعد ثلاثة أيّام، ذهبت إلى منزل صديق لي في طولكرم. هذا الصديق له جنونٌ خاصّ، وموقف من الحياة والعالم، سعادته تتلخَّص في أمرين: الفَرْج والنرجيلة.

شكوت إليه، ونحن نحرق المعسَّل الرديء: أشعر بأنَّني عجوز، لقد هرمت من الداخل يا رجل. لا شغف، وعدم الرغبة في الحياة، والشعور بعبثيَّة الأشياء التي أقوم بها: الدراسة؛ الكتابة؛ الحبّ. لقد فشلت في هذا الثلاثيّ. لقد درست واجتهدت، وتخرَّجت بتقدير امتياز من الجامعة، لكنِّي عملت في ورشات البناء والمطاعم والمحالّ التجاريَّة.

أمضيت كلّ وقتي في الغرفة، أقرأ وأكتب. أعمل بدأب نملة، لكن روايتي لم تحظَ بالاهتمام، على الرَّغم من أنَّ أعمالًا أخرى، ركيكة وضعيفة أدبيًّا، تبيع طبعات كثيرة. أمّا في الحبِّ، فقد فشلت، حتى شابَ شعري من التعب: حبيبة تموت، وأخرى تتزوَّج، وثالثة تعمل لي «بلوك» من حياتها، من دون أيِّ تبرير.

بعد أن سافر حسن في منحة دراسيَّة إلى إيطاليا، وبقي هناك مدَّة ثلاث سنوات، رجع محبَطًا وخائبًا، إذ لم يحقِّق أيّ فائدة من سفره إلى الخارج. اختارت مديريَّة التربية والتعليم في محافظة طولكرم، أربعة طلّاب أنهوا الصفّ العاشر، ليكملوا دراستهم المدرسيَّة في معهد ليوناردو دافنشي في فلورنسا الإيطاليَّة، وكانت الخطَّة كالآتي: يتخرَّج الطلّاب الأربعة من المعهد، يحصلون على درجة الدبلوم، ثم يعودون إلى أرض الوطن، للعمل في مختبر كان من المفترض أن يُقام في

المحافظة، بدعم من الحكومة الإيطاليَّة، لأنَّ طولكرم تُعاني التلوُّث الناتج من الغازات الكيميائيَّة المنبعثة من مصانع غاشوري الإسرائيليَّة. لكنّ المساكين الأربعة خُدِعوا، وكانوا ضحايا مصالح أشخاص من الطرفين: في الطرف الفلسطينيّ، كان ثمَّة أشخاص من مديريَّة التربية والتعليم، أقاموا علاقات وكسبوا رحلة إلى إيطاليا، بعد أن دعتهم بلديَّة فلورنسا والمؤسَّسات الداعمة. أمّا في الطرف الآخر، فهناك أيضًا إيطاليُّون استفادوا، وتمكَّنوا من تسلُّق الأكتاف الغضَّة لأربعة فتيان، للصعود وإقامة علاقات بالمسؤولين في مدينة فلورنسا، وتوطيد المصالح في المقابلات والمؤتمرات.

بعد أن وصل إلى فلسطين، شعر بأنَّه تعرَّض لطعنة غدر، إذ تُرك وحده يواجه مصيرًا مجهولًا. حاول حسن العودة إلى إيطاليا، لكنَّ القنصليَّة رفضت منحه الفيزا، لأسباب عديدة: عدم موافقة الجامعة؛ عدم توفُّر مبيت؛ الضمان المالي؛ نقص في الوثائق المطلوبة.

عاش فترة في غاية القسوة، حاول خلالها الانتحار. شهور من الاكتئاب والعزلة وتدمير الذات، فالشعور بالفشل وضغط الأهل، وكلام الناس وأسئلتهم التي لا تنتهي: ماذا أنجزت؟ انظرْ إلى رفاق صفِّك، ماذا يدرسون، أنت ماذا تفعل في حياتك؟

عندما كنت ألتقيه، أجده يحاول أن يسخر من كلّ شيء حتى من جرحه. يضحك ويطلق النكات البذيئة. يشتم الناس والعالم. يجلس لساعات وهو يحدِّثني عن حياته في إيطاليا: دراسته؛ رحلاته؛ سهراته؛ الذهاب إلى البحر؛ ذكرياته في مدينتي روما وفلورنسا.

سألت نفسي: يا الله، كيف تحوَّل هذا الإنسان الجميل والذكيّ

إلى إنسان عبثيّ، كثير الشتائم، وكلّ تفكيره محصور في الجنس؟ كان هذا المجنون، بسهولة ومن دون تكلُّف، يجمع تركيز الآخرين نحوه، مهما كان عددهم كبيرًا؛ يفرض حضوره على الجميع.

حدَّثنا عن قصَّة العاشقة التي أحبَّت شابًّا من شباب القرية، لكن أهلها رفضوا تزويجها له، وزوَّجوها بالقوَّة لرجلٍ في عمر والدها. في ليلة الدخلة قطعت قضيب زوجها، وحملته بيدها ورمته في وجه أهلها، ثم ذهبت إلى بيت حبيبها، ووضعت السكِّين على رقبتها، وقالت له بالحرف الواحد: «تتزوَّجني ولّا بقتل حالي». وهكذا، تزوَّجته الفتاة واغتصبته بعد ثلاثة أيّام تحت تهديد السكِّين.

وأنا أقف الآن على حافَّة الجنون، تأكل عقلي الأسئلةُ. هذا المكان الذي اسمه فلسطين يستنزفني، ينهش قواي، دافعًا بي إلى الجنون أو الانتحار. ما أعيشه ليس سوى تمهيد لفقدان العقل والإصابة بالهستيريا.

«تخيَّلْ، تخيَّلْ أنَّني أمارس الجنس مع ثلاث بنات. أنكح واحدة، والبنتان ترضعان من صدرها، و...».

ولأنَّ الخيال في هذه البلاد هو خبز الفقراء، لم أحرمه لذَّةَ التخيُّل. قلت له: في بلادنا، في إمكانك أن تحوِّل الخيال إلى واقع، بشرط أن تكون واحدًا من ثلاثة: غنيًّا لك باعٌ طويل في اللصوصيَّة، أو انقلابيًّا مغتصبًا للسلطة، أو رجلَ دين ينكح باسم الله. وعندما يصل الأمر إلى الجنس، وخصوصًا في الحروب، يتحوَّل كلّ البشر إلى وحوش.

شاهدتُ على اليوتيوب لقاءً مع إحدى المعتقلات السياسيّات في الوطن العربي، اللاتي طالبن بالمساواة وحرِّيَّة الرأي والتعبير. تحدَّثت

عن السجن، حيث تنتشر رائحة اللحم المحروق، والموت، وصوت النواح، والإجهاضُ الجماعيّ لفتيات جامعيّات، وعن تجربة اغتصابها من خمسة جنود في غرفة التحقيق، مارسوا معها الجنس بوحشيَّة العسكر وساديَّتهم، فأذابوا الشمع على جلدها، وضربوها بالأحزمة الجلديَّة. كانت تبصق في وجوههم، ولا تطلب الرحمة على الرَّغم من الألم والنزف. بعد ذلك، أصبحت كحجر لا ينطق ولا يشعر: باردةً، مستسلمة، تنتظر لحظة موتها. كان هذا جزءًا من خطَّة ممنهجة لتدمير ذوات المعتقلات، وقتل روحهنّ المعنويَّة. حبلت المعتقلة وولدت في السجن، ثم كبر ولدها. وحين أصبح في العاشرة، أخذ مدير السجن وجنوده يغتصبون الأمّ وولدها. عندما فقدت الأمل في إطلاق سراحه، أو توقُّف الجنود عن اغتصابه، ذبحته بالسكِّين. تحدَّثت عن مشاعرها وهي تذبح ولدها. وصفت حادثة الذبح بالتفاصيل. كان يصرخ بهستيريَّة: الله لا يوفّقكم، الله لا يوفّقكم. رأت الذعر في عينيه الصغيرتين. جسده الصغير انتفض بين يديها. صرخ واستغاث من دون جدوى. حين وضعت حدّ السكِّين على رقبته، صمت ولم تسمع غير صوت أنفاسه. جزَّت عنقه، فانطلق رشَّاش من الدم ملطِّخًا كلَّ شيء، ثم وضعته على الأرض، بينما كان جسده لا يزال ينتفض، يقاوم متشبِّثًا بالحياة.

«يقول الحلّاج: لو علمت أنَّ السجود لآدم ينجّيني لسجدت، ولكن قد علمت أنَّ وراء تلك الدائرة دوائرَ، فقلت في حالي: هب أنِّي نجوت من هذه الدائرة، كيف أنجو من الثانية والثالثة والرابعة؟»

«هي دوائر الألم يا حسن. تنجو من دائرة، فتصطادك الثانية، فالثالثة، فالرابعة».

«هل الحياة مجموعة من الفخاخ؟»

وأشار بسبّابته نحو بيت مضيء على قمّة جبل، في الجزء الشرقيّ من القرية.

«في ذلك البيت حكاية مشابهة. كان شابًّا ذكيًّا، ثم خرج من السجن مختلًّا عقليًّا. عندما اشتعلت الانتفاضة الثانية، نشط في حركة الجهاد الإسلاميّ، كان في البداية يوزّع المناشير المعادية لإسرائيل، ويكتب على الجدران شعاراتِ المقاومة، وعبارةَ «الجهاد الإسلاميّ مرّ من هنا»، ثم شارك في العمل العسكريّ. اختارته القيادة العسكريَّة لـ «سرايا القدس» في منطقة الشمال لتنفيذ إحدى العمليّات الاستشهاديَّة في مدينة الخضيرة. ربطوا الحزام على خاصرته، وتوجَّه نحو الهدف، لكنَّ المخابرات الإسرائيليَّة كان لديها معلوماتٌ وإنذارات، بشأن العمليَّة، فاعتقلته أجهزة الأمن قبل أن يضغط على زرّ التفجير. كلّ قبح العالم جُمع في زنزانته؛ مكان لا حياة فيه؛ فراغ؛ دماء؛ صمت؛ وكلّ أساليب التعذيب استخدموها عليه».

ثم أضاف: أفضل شيء الهجرة. نسافر إلى كندا أو سويسرا، أو إلى أيّ مكان آخر.

ـ اسمعْ، إنّنا في وضع خاصّ، حالة استثنائيَّة. نحن خطّ الدفاع الأوَّل أمام همجيَّة إسرائيل وغطرستها.

ـ ها؟ وضع خاصّ! خطّ الدفاع الأوّل! أحبّ هذه الشعارات. يا أخي، أنا إنسان بسيط، بدّي أعيش حياة طبيعيَّة، وما بدّي أموت بطل.

كنت أعتقد أنّني من خلال تحويل الأفكار إلى كلمات، يمكنني تغيير العالم، وأنّني، عبر الكلمة، أستطيع أن أنزع أقنعة الحياة، كي

أصل إلى جوهرها، وأن أحرِّر الإنسان من الخوف والشعور بالعجز، لكنّي أدركت أن لا مكان للكلمة وسط هذا الضجيج. العالم مهرجان ثرثرة. إنَّها تقاوم كي تُثبت حضورها، في بلاد أصبح بينها وبين القراءة عداوةٌ. وإلَّا فلماذا لا تجد الكلماتُ طريقَها نحو رأس العربيّ وقلبه؟

صمتنا طويلًا، ثم قلت له، ونحن نحرق رأس النرجيلة الرابع: ليلة البارحة، حلمت حلمًا غريبًا. كانت السماء قريبة في رام الله، شعرت بأنَّ في وسعي لمسَها بيدي. صعدتُ على سطح إحدى العمارات، ومددت يدي نحوها. خُيِّل إليَّ أنَّها باردة وطريَّة، فأخرجت من جيبي مشرطًا، وأحدثت فجوة بطول سنتميتر واحد، فتساقطت من الجرح السماويّ نساءٌ جميلات.

ـ داعش لن تسمح بحدوث ذلك.

قال لي ممازحًا.

ـ لن تقتحم داعش أحلامنا، يا حسن.

ـ لو كتبتها في رواية، ينصب لك بعضهم المشانق، على الرَّغم من أنَّها فكرة خياليَّة.

ـ نعم، لأنَّهم ضيِّقو الأفق، وفقيرو الخيال. أمّا أنا، فقد ذهبت في إيماني بالخيال إلى أبعد الحدود. أعتقد أنَّ الحلم أكثر قربًا من حقيقتنا. لديَّ تصوُّر بأنّي سأستيقظ في يوم من الأيّام، لأجد أنَّ أحلامي قد تحقَّقت.

ـ تقصد أنَّك قد تستيقظ، وتجد السماء في رام الله، تمطر نساءً وقصورًا وذهبًا؟

ـ نعم، بالضبط. على فكرة، لديَّ صديقة أرتني صخرة غريبة الشكل، حين ذهبنا إلى حديقة الاستقلال في رام الله، وأخبرتني بأنَّها تتكلَّم ثلاث لغات، وهي مدخل إلى عالم آخر.

«أنتم مجانين»، قال لي، معتقدًا أنَّه ليس كذلك!

ـ أنت أكبر مجنون في العالم.

بعد شهر تقريبًا، في الساعات الأولى من الفجر، كنت جالسًا على سطح العمارة السكنيّة، أنظر إلى السماء التي كانت خالية من الغيوم. وفي تلك الأثناء هبّت نسائم باردة، فأغمضت عينَيّ وغفوت بضع دقائق.

رأيت الحلم ذاته: أمدُّ يدي نحو السماء القريبة، ألمسها، فأشعر بها باردةً ورطبة، ثم أُخرج مشرطًا من جيبي، وأُحدث فيها جرحًا بطول سنتميتر واحد. عندما فتحت عينيّ، وجدتني واقفًا وبيدي مشرط. شعرت بالدماء تندفع بقوّة في شراييني، فانتفضت ونظرت إلى السماء، حين سقط جسم غريب من الأعلى، يشبه إلى حدٍّ كبير جسم الأنثى. لم يكن هناك غيوم أو طائرات، وإنّما سقط من مكان ما في السماء، ثم رأيت أجسامًا أخرى بدأت تتساقط على سطوح العمارات والشوارع وعلى قمم الجبال.

«إنَّهنَّ نساء»، صرخت مذهولًا

ثم توقَّف هبوط هذه الكائنات، وساد صمت عميق. نزلت درج العمارة، وحين فتحت الباب، رأيت فتاة في غاية الجمال، قصيرة، تبدو في العشرينيّات من عمرها، تربط شعرها على شكل ذيل حصان، ترتدي تي شيرت عليه شعار سوبرمان، وشورتًا قصيرًا مخطَّطًا أفقيًّا،

وتنتعل كعبًا عاليًا. كان في يدها سيجارة، أطفأتها ثم دقّقت فيَّ النظر. رأيت عينيها الواسعتين الشديدتي البياض. تساءلت: من أين جاءت هذه الفتاة في ساعات الفجر الأولى؟ إنَّ الله شديد الكرم، وسريع الاستجابة حين أَرسل إليَّ فتاة في هذا الوقت. أخبرتها بأنّي حزين ووحيد، وأسكن في الغرفة المجاورة. وأشرت إليها من مكاني، لكنَّها لم تلتفت، بل استدارت بهدوء ثم اختفت.

في اليوم التالي، قرأت الخبر في الجريدة:

«مئات النساء الجميلات، المجهولات الهويَّة، يتجوَّلن في رام الله من دون وجهة محدَّدة.

صباح يوم أمس، فوجئ أهل مدينة رام الله، بنساء مجهولات الهويَّة في غاية الجمال، يتجوّلن في شوارع المدينة من دون وجهة محدَّدة. قرابة الساعة الخامسة صباحًا، لاحظ أحد سكّان حيّ الماصيون خمسَ فتيات، كنَّ جالسات على الرصيف المقابل لعمارته السكنيَّة، وهو ما أثار استغرابه. وعندما أعلم زوجته بالخبر، أوصلته بدورها إلى سكّان الشقق المجاورة. في نهاية الأمر، نزل مجموعة من الرجال لاستكشاف الموضوع. وعندما حاولوا الحديث إليهنَّ، أدركوا أنَّهنَّ من مكان آخر، ولا يفهمن العربيَّة، بل يتمتمن بلغة غريبة، كأنَّها مزيج من عدَّة لغات. كما اتَّصلت أمّ طفل من حيّ المصايف بالشرطة، صباح يوم أمس، لتبلغ عن حادثة غريبة وقعت لها. فعندما استيقظت هذه السيِّدة وذهبت إلى غرفة ابنها، لتطمئنّ عليه، وجدته يجلس في السرير، وينظر إلى الجدار المقابل بصمت. تقول: كان سعيدًا، وثمّة ابتسامة على شفتيه. كان يحمل الآيفون الذي أهديته إيّاه، قبل شهر تقريبًا. وعندما نظرت إلى شاشته، تفاجأت بصورة سيلفي، لفتاة شقراء

الشعر، ساحرةِ الجمال، مع ولدي في السرير، في الهيئة نفسها التي وجدته فيها. لقد نام بملابس سوبرمان. كما لاحظ العديد من سكّان المدينة، الذين ظلّوا ساهرين حتى الفجر، انهمارَ السماء بعدد كبير من الإناث البشريّات، اللواتي سقطن كالمطر على كلِّ شيء»...

تركت الجريدة، ونزلت إلى المدينة لأكتشف الموضوع بنفسي. تفاجأت بفتيات جميلات، ذوات ملامح غريبة، ينتشرنَ في كلِّ مكان. كانت دينا تسير إلى جانبي مستغربةً ممّا تراه.

سألتها: هل لديك تفسير لما يحدث؟

هزّت رأسها نافيةً.

ـ الغريب، أنّني رأيت هذا المشهد في أحد أحلامي. يبدو أنَّ البراغي التي تُثبِّت هذا العالم غيرُ مشدودة. في زمن ما، كان عالم الواقع بعيدًا ومقصيًّا عن عالم الحلم، مثل كوكبين لا يلتقيان، أو خطّين متوازيين. أمّا الآن، فقد اختفت الحدود واقترب العالمان، أحدهما من الآخر. أظنّ أنَّ هذه الحادثة هي بداية سلسلة من الحوادث الغريبة، وغير المنطقيَّة التي قد تصيب هذه المدينة.

تظلّ دينا صامتة، مصغية إليَّ، فأضيف: تذكرين حديثك عن الصخرة التي تتحدّث ثلاث لغات، وهي بوّابة إلى عالم آخر مُوازٍ.

ـ تقصد أنَّ هذه البوّابة قد فُتحت؟ وهناك مخلوقات بدأت بالمجيء إلى عالمنا؟

ـ لا أقصد هذا المدخل بالتحديد. أعتقد أنَّ ثمّة مداخلَ سرِّيَّة في هذا العالم، ربَّما في قاع بحر أو داخل كهف، أو في بيت جدِّي القديم، وستُفتَح يومًا ما.

«مَن سيفتحها»؟ سألتني. «وحدها، مثل عبوات الكولا المضغوطة، ستنفجر نتيجة الضغط».

ـ هل ستحدث أشياء جميلة أم فظيعة؟

ـ لا أحد يستطيع التكهُّن بالأمر. ستحدث أشياء مريعة، وانقلابات خطيرة في العالم على مستوى الوعي. على سبيل المثال، لن يظلّ المقدَّس مقدَّسًا، كما ستتغيَّر نظرتنا إلى الأشياء والمعاني المجرَّدة: الحبّ؛ السعادة؛ الخير؛ الشرّ. كما سيتغيَّر موقفنا من الله.

ـ هل ستحدث كلّ هذه الأمور، بمجرَّد تداخل العالمَين؟

ـ ما دام عالمنا متزمِّتًا، ومسيّجًا بالقوانين والقيود، فإنَّ دخول مفاهيم جديدة من عالم الحلم، سوف يُحدث رجَّة في مسلَّمات عالمنا ومعتقداته. أعتقد أنَّنا سنذهب أكثر نحو الحرِّيَّة والعدالة، من منطلق أنَّ الحلم هو نحن؛ داخلُنا؛ حقيقتُنا المتوارية وراء أقنعة الواقع.

صمتت قليلًا، كأنَّها أخذت تقلِّب في رأسها كلّ كلمة تفوَّهت بها، ثم وضعت الفكرة في كلمات واضحة: لماذا يحدث هذا كلُّه؟

مثل المؤمنين الذين يؤمنون بيوم القيامة، ونهاية العالم، أنا أؤمن بتداخل العوالم، وأنَّ نقطة اللارجوع قادمة لا محالة.

فرقعت أصابعها، وهي تنظر إلى النساء الدخيلات على المدينة، ثم قالت:

ـ إنَّه اختبار جديد.

ـ اختبار ماذا؟

ـ أفكِّر في أنَّ دخول هؤلاء النساء، بما يحملنَهُ من عادات

جديدة، سيُحدثُ جلبة وجدلًا حادًا. انظر إليهنَّ، سيملأن المدينة حياة وصخبًا، بالرقص والغناء. ثمَّة من سيقول إنَّهنَّ ينشرن الفساد، وثمَّة من سيقول إنَّهنَّ يزرعن الحبّ والحرِّيَّة في كلِّ بيت.

ـ هل سيدعو رجال الدين إلى طردهنَّ من المدينة، أو صلبهنَّ عند بابها؟

«على الأرجح»، أجابت وهي تزمُّ شفتيها.

«هل ثمَّة احتمال مفاده أنَّ ما نراه لا يراه غيرنا؟ لأنَّها فكرة سرياليَّة، جريئة، لكنَّها لا يمكن أن تحدث في الواقع، على الأقلِّ، من وجهة نظر الآخرين. إنّها تصلح فقط لأن تكون في روايات الخيال العلميّ.

رحنا ننظر أحدنا إلى الآخر، نرقبُ أن يتجرَّأ أحدنا ويسأل أحد المارَّة، لكنّا لم نملك الشجاعة لفعل ذلك. فكّرت فيما رأيته وأنا على سطح العمارة السكنيَّة، والخبر المرفَق في الجريدة، وهذا اللقاء مع دينا في رام الله، هل يكون كلُّه جزءًا من حلم؟

فجأة، بدأت السماء تتلبَّد بغيوم شديدة السواد، وانطلق دويّ رعد مخيف وصاخب، ثم انهمرت الأمطار بغزارة، ضاربةً بعنف كلَّ ما تجده أمامها. كان الأمر غريبًا، فالأرصاد الجوِّيَّة أعلنت أنَّ الجوّ سيكون رائعًا ولطيفًا؛ يومًا صيفيًّا عاديًّا، أمّا هذا التحوُّل المفاجئ في حالة الطقس، فلم يكن متوقَّعًا من أحد. رعد ومطر في عزِّ الصيف!

بعد نحو ربع ساعة، توقَّف المطر وتلاشت السُّحُب السود من سماء رام الله، ثم حلّ هدوء لا يعكِّر صفوه سوى أصوات بعيدة وخافتة. ما هذا الرعد الرهيب الذي لم تشهد مثلَه المدينةُ؟ حادثة

غريبة، خارجة عن المألوف، لا بدَّ من أنَّ هذه الأشياء الفظيعة التي كنّا نخشاها، قد بدأت بالحدوث. هل هو غضب السماء، أم خلل أصاب تركيبة العالم؟

فاضت الشوارع بالمياه، وغرقت البيوت الواطئة، كما أدَّى هطول الأمطار الغزيرة إلى موت طفل غرقًا في البيرة. في إثر ذلك، أعلنت الشرطة والدفاع المدني حالة الطوارئ في جميع أرجاء المدينة، في حين كانت القنوات الإخباريّة تنقل ما يحدث على الهواء مباشرة: فيضانات؛ بيوتًا غارقة؛ جثّة طفل؛ أُناسًا مذعورين؛ شرطة على مفترقات الطرق. عمّت الفوضى وانتشر الخوف بين الناس. رأى بعضهم أنَّ ما حدث غضب من الله، بينما اتَّهم آخرون إسرائيل بافتعال العاصفة، لدفع الناس إلى الرحيل.

لم أكن أعلم في أيِّ عالمٍ تجري هذه الحوادث كلّها: هل العالم الذي فيه مَداخل سرِّيَّة، وأحجارٍ تتحدّث أكثر من لغة، أم العالم الذي فيه احتلال إسرائيليّ وانقسام بين الضفّة الغربيّة وقطاع غزَّة؟ أستطيع الجزم بأنَّ ثمَّة عالمًا تحدث فيه حروب حقيقيّة، وجوع حقيقيّ، وخوف حقيقيّ. أمّا هذه الحوادث الفانتازيَّة، فهي تحدث في عالم آخر، لا نعرفه، ولم نطلق عليه اسمًا، ومن الأفضل أن يظلّ من دون تسمية. هل غادرت العالم الحقيقيّ ودخلت أحد العوالم الموازية؟ هل انتقلت من عالم قديم إلى آخر جديد؟ عالم حلَّ مكان عالم آخر!

(10)

وأنا جالسٌ وحدي على أحد المقاعد في شوارع بيرزيت، تذكَّرت سائد «اللوِّيح» في صفِّ الدبكة. شابّ أسمر، لا يعزف على الناي، إلَّا عندما يكون مع ماشيته. يعرف كلّ نبتة في البراري، وهو من سلالة تحترف صيد الأفاعي والثعالب. يكره الناس، ولا يتعامل معهم إلَّا عند الضرورة، في الدبكة مثلًا.

في المرَّة الأولى، حين تعرَّفت إليه، كان الوقت ليلًا، والقمر بدرًا، والهواء في شوارع القرية صقيعًا. قال لي إنَّه يحبّ امرأة جميلة من قريتنا، ووالدها رفض تزويجه إيّاها، فهدَّده بأنَّه سيطلق عليه الكلاب المسعورة التي درَّبها جيِّدًا، لمثل هذه الأوقات.

وكان أهل القرية يخافونه، لأنَّه كان غريبًا وغامضًا، أمضى حياته في البراري بين الوحوش، يتحدَّث إلى الضباع؛ أسطورةِ الريف التي تأكل الأطفال والتائهين، بعد أن تستدرجهم إلى مغاراتها. فتزوَّجها وخرج معها في «شهر عسل» إلى الجبال، برفقة أغنامه؛ إلى أماكن لا

يجرؤ أحد غيره، على الذهاب إليها. «منطقة البرك»؛ «مغارات الغوليَّة»؛ «خرُّوبة الجنّ»، ومنطقة مات فيها ولد صغير، بعد أن لسعته أفعى سامَّة، فسكنت روحُه الأشجارَ، وصار بكاؤه الموجع يتردَّد في الليالي الحالكة.

مات سائد على يد أحد المستوطنين، حين اقترب بقطيعه من سياج المستوطنة. دوَّى صوت الرصاصة، في حارات القرية وأزقَّتها. لم يعد غريبًا أو غامضًا، بعد أن حمله الرجال على أكتافهم إلى المقبرة، وإنَّما أصبح أيقونة في عشق براري الوطن.

بينما كنت أتأمَّل المارّة في الشارع، وأفكِّر في مجانين قريتي، جاءني اتِّصال من أحد أساتذتي في الجامعة، أخبرني بأنَّ ثمَّة وظيفة في إحدى المدارس الخاصَّة في رام الله. «اذهب لتفهم الأمور، وستبدأ دوامك مع بدء العام الدراسيّ الجديد. لا يوجد مقابلة، أنت مقبول سلفًا».

نفشت ريشي كدجاجة أصابها المطر.

في صباح اليوم التالي، ذهبت وقابلت مدير المدرسة. عندما رآني، أخذ بالضحك، وقال لي إنِّي أشبه أحد الممثِّلين المصريين، في مسرحيَّة «مدرسة المشاغبين». قلت له: لا أحبّ هذه المسرحيَّة بالذات، ولا أدري مَن تقصد، وأنا لا أشبه سوى نفسي. رفعت رأسي شامخًا، وأنا ممتلئ بالشعارات التي حفظتها منذ صِغَري: «قم للمعلِّم وفِّهِ التبجيلا... كاد المعلِّم أن يكون رسولا». شعرت، وأنا أدخل مكتب المدير، بهذه الرسالة المقدَّسة، والواجب الذي سأقوم به. كنت متحمِّسًا للتعليم، لكن هذه الحماسة أخذت بالخفوت منذ أوَّل يوم دراسيّ.

كان الصفّ قطعة من الجحيم: فوضى؛ شتائم؛ معارك بالأيدي والأرجل والحقائب. في الحصص الأولى، أخذت أشرح لهم أهمّيّة العلم والتعليم، ودور المتعلّم في بناء مجتمعه. كرّرت هذه العبارات المُمِلّة، والتي كنت أسمعها من أساتذتي في المدرسة.

نظرت إليهم، وبدأت أشير إلى كلّ واحدٍ منهم على حِدة: أنت ستكون عبقريًّا؛ أنت ستكون رجلًا عظيمًا ومهمًّا، وهكذا. على الرَّغم من أنّي كنت أراهم أغبياء، مُترَفين، ووقحين. المهمّ، كانت الحصص عبارة عن معارك حامية الوطيس بين فريقين: الفريق الأوّل، هو أنا، المعلّم المسكين. أمّا الفريق الثاني، فقد كان يتكوّن من 25 طالبًا مشاكسًا. في النهاية، رفعتُ الراية البيضاء، فكنت أذهب وأجلس لأنظر إليهم، وهم يُنطنطون أمامي مثل السعادين. وعندما يرنّ الجرس معلنًا انتهاءَ الحصّة، كنت أحمل حقيبتي وأخرج.

بعد شهر، تركت المدرسة، لأنّها أصبحت مُمِلّة، إضافة إلى أنّي لم أعد أطيق نظامها ولا طلّابَها، لكنّي لم أتركها بسهولة، فقد دفعت لقاء ذلك 14 ألف دينار أردنيّ. وهذه قصّة مضحكة ومبكية، فقد حصلت على راتب لا يتجاوز خمسمئة دينار، لكنّي خرجت بعد أن دفعت 14 ألف دينار.

القصّة باختصار، أنّي ضربتُ طالبًا أهانني ونعتني بـ «التايلندي»، وهي شتيمة يُطلقها بعض أهالي رام الله، على القادمين للعمل من شماليّ الضفّة، لأنّهم يعملون في مقابل أجور زهيدة. من سوء حظّي، أنّ هذا الطالب كان ابنًا لأحد المسؤولين في السلطة. وما زاد الطّين بلّة، أنّه حين جاءت أمّ الطالب كي تفهم الموضوع، كنت خارجًا من

إحدى الحصص، غاضبًا والدم يغلي في عروقي، فقلت لها: ابنك مش مؤدَّب، لأنَّه تربية زفت، من ناس زفت.

اضطرّ والدي إلى أن يبيع دونمًا من أرضه ليسدِّد ثمن العطوة. شعرت حينها بتفاهة الدنيا وعبثيّتها؛ ففي حين كنّا ندافع عن الأرض، أمام توغُّل المستوطنات القريبة، ومقاومتنا لإغراءات البيع، على الرَّغم من الحاجة والعوز المادِّيّ، إلّا أنّنا بعنا قطعة منها، كي نسدِّد عطوة إهانة ابن مسؤول!

افتقدتُ رهفَ بعد انشغالي في المدرسة. رحت أحاول الاتِّصال بها بجميع الوسائل: فيسبوك، واتسآب، موبايل، لكن من دون جدوى. وحين سألت عنها المقرّبين من الأصدقاء، قالوا لي إنَّها اختفت.

ـ لقد اختفت منذ شهرين، والشرطة تبحث عنها من دون أن تتوصَّل إلى شيء. ثمَّة سيناريوهات فظيعة، أو قد تكون سافرت أو انتقلت للسكن في إحدى المدن، من دون أن تخبر أحدًا.

قبل شهرين!

أي أنَّها اختفت مع اختفاء النساء الجميلات اللواتي انهمرن من السماء. بقيت أشاهد النساء الغريبات مدَّة يومين، قبل أن يختفين من المدينة، وكان ذلك بعد أن استيقظت من النوم صبيحة أحد الأيّام. هل تسلَّلن من أحد أحلامي إلى العالم، ثم رجعن من الثقب ذاته؟ هل اختفت رهف بعد خروجها من أحد المخارج السرِّيَّة في العالم، كصخرة حديقة الاستقلال، لتذهب نحو عالم آخر؟ الموت أحد المَخارج المعروفة، لكنَّ هناك مئات المخارج التي لا يعلم عنها أحد!

وما علاقة اختفاء المخلوقات السماويّات، باختفاء رهف؟

شعرت بالذنب لأنّي انشغلت عنها، ورفضت لقاءها حين اقترحت عليَّ ذلك. ربَّما كانت تريد أن تقول لي شيئًا مهمًّا، أو أنَّها أرادت أن تخبرني بشيء خطير يحدث معها. رحت أفكِّر، وأنا أمشي، في هذه الأحداث الغريبة: نساء يسقطن من السماء؛ رجل بلا ظلٍّ؛ مَدخل سرِّي نحو عالم آخر؛ اختفاء إحدى الصديقات. كنت أتساءل عن المفاجآت المكتوبة في سيناريو الفيلم الذي اسمه حياتي.

مكتبة
t.me/t_pdf

(11)

كنت لا أزال نائمًا في السرير. نحو الساعة الثامنة مساءً، ما إن وضعت رأسي على المخدّة، حتى انسحبت من العالم. رأيت في أثناء نومي ثلاثة أحلام متتالية، كانت متداخلة، وكلّ حلم سلَّمني إلى الحلم الآخر: في الحلم الأوَّل، رأيتُني مهرِّجًا على خشبة مسرح، وأمامي جمهور عريض من المتفرِّجين. كان وجهي ملوَّنًا، يتوسَّطه أنف بلاستيكيّ مفلطح، وأرتدي شعرًا مستعارًا وملابس بهلوانيَّة. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنِّي كنت مكشوفًا للآخرين، وهذا ما أشعرني بالرعب. لقد عرفوني، حينها أخذوا يضحكون بهستيريَّة، ويقذفونني بالأحذية وهم يردِّدون: يا فاشل!

في الحلم الثاني، رأيتُني في كهف مظلم، داخلُه يشبه المتاهة. كنت خائفًا كطفل أضاع أمّه، فرحت أصرخ، لكنَّ صدى صوتي أخذ يتردَّد في أرجاء الكهف، الأمر الذي أشعرني أكثر بالخوف.

في الحلم الثالث، رأيتني أقف على حافَّة هاوية؛ جرف عميق،

كدتُ أقفز لأُنهي حياتي، لولا وجهٌ ضبابي انبثق من العدم، فأخذت أحاول معرفته، وهكذا نسيت أمر الهاوية، حتى أخذت تتقلَّص، وتحوَّلت مع اقتراب الوجه إلى أرض منبسطة.

سمعت صوت رنين الموبايل، فنهضت من فراشي. كانت الغرفة معتمة، فأخذت أبحث عنه بين الملابس والكتب المرميَّة إلى جانبي. رأيت رقم دينا على شاشته.

ـ آلو؟

ـ نُ... نوح، هل كنت نائما؟

ـ نعم، لقد نمت من شدّة التعب.

ـ أُريد أن أُريك شيئًا هذه الليلة. إنّه أحد الأسرار الجديدة التي ينبغي لك معرفتها.

ذهبت إلى الحمّام حاملًا معي المنشفةَ. أخرجت فرشاة الأسنان والمعجون من الدُّرج. أخذت أنظِّف أسناني وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة. كان متعَبًا وعيناي محمرَّتان بسبب تعرُّضي لأشعَّة الشمس طوال النهار. التحقت بالعمل في إحدى ورش البناء في مدينة رام الله: رفع الطُّوب على الكتف، وصعود دَرَج طويل؛ نقل قضبان الحديد الثقيلة؛ تحضير الإسمنت بكمِّيّات كبيرة ثم رفعها في دلاء. لا يمكن تخيُّل مدى صعوبة هذا العمل، إلَّا بعد خوض التجربة نفسها. لقد كان من أكثر المهن قسوةً في حياتي.

التقينا عند أوَّل مفترق، ثم ذهبنا إلى سوبرماركت. اشترينا علبتي عصير ومكسَّرات وحبَّتي سنكرز. كان الجوّ رائعًا، والهواء باردًا ينعش

الروح. كانت دينا ترتدي ملابس رياضيّة، وتعتمر قبّعة زرقاء.

«تبدين جميلة، وأنتِ ترتدين هذه الملابس»، قلت وأنا أعدِّل مكان القبّعة على رأسها.

ـ أنت تبدو أنيقًا، كأنّك في حفل زفاف.

ضحكتُ من ملاحظتها، وقلت إنَّها ملابس عاديَّة: تي شيرت وبنطلون. لكنَّها ظلّت تمدح ذوقي في اختيار الملابس، ثم ذكَّرتني بحادثتين خنتُ فيهما هذه الذائقة. ذات مرَّة اشتريت تي شيرت، من أحد محالِّ الملابس في رام الله، ولم أنتبه للرسم الموجود عليها. ذهبت إلى الجامعة سعيدا، وأنا أرتدي ملابسي الجديدة، لكنِّي لم أنتبه إلى الصورة، التي كانت حذاء كبيرا على طول صدري، ولم يملك أحد الجرأة لينبِّهني سواها.

ـ هذه بلوزة سيِّئة يا نوح، انظرْ، عليها صورة حذاء.

وذات مرَّة، ارتديت تي شيرت لونها أصفر فاقع. كانت تلمع تحت أشعَّة الشمس، وعليها رسم يشبه العضو الذكري.

قالت لي حين رأتها: هذا أطول قضيب في التاريخ.

«إلى أين سنذهب؟» سألتها.

ـ إلى مكان سرِّيٍّ آخر، إنَّه في منطقة وسطى بين عالمنا وعالم آخر مُوازٍ.

ـ يا إلٰهي، ألا تنتهي هذه العوالم الموازية! أنتِ متأثِّرة بروايات الخيال العلميّ.

«سنذهب إلى الجبل»، قالت بحماسة.

ـ أيّ جَبَل؟ بيرزيت مليئة بالجبال.

«سترى»، أجابتني وهي تشير نحو الغرب.

مشينا. وفي أثناء المشي اجتزنا الجامعة.

كانت تنظر إليَّ بين الفينة والأخرى، وهي تلاعب خصلات شعرها، وتقول: أنت صديق لعين يا نوح. جميل، وأحبّ كلّ ما فيك.

«هل هذا إعلان صريح عن الحبّ؟»

«إنَّه كلام صريح، وبسيط، ومباشر».

«مثلك تمامًا».

«هل تتغزّل بي؟»

«هذا إطراء. ثمَّة فرق كبير بين الغزل والإطراء، كالفرق بين الإشارة والرمز».

«ما الفرق بين الغزل والإطراء؟»

«عندما أقول إنَّ تسريحة شعرك جميلة وتروقني، هذا اسمه إطراء. أمّا إذا قلت إنَّ شعرك جميل وناعم كالحرير، فهذا غزل».

أطرقت تفكّر للحظات، ثم قالت لي ضاحكة: لم أفهمك كفاية.

ـ الإطراء هو أن أمدح، أو أُبدي إعجابي بما أراه فيك، وهو في الغالب يكون من صنعك. أمّا الغزل، فهو ذكر ما فيك أصلًا، بطريقة مشاكسة، بإضافة بعض التشبيهات والمجاز أحيانًا. هكذا، أفرّق بين الاثنين، على الأقلّ من وجهة نظري.

ـ مجازًا؟

ـ في حالتك، ينفع المجاز والتشبيه والاستعارة.

تصغي إليَّ باهتمام، مركِّزةً كلَّ حواسِّها فيَّ. تقول إنَّ كلامي جميل وساحر، وإنِّي أتقن الغزل، ثم تصوِّب ما قالته: أقصد الإطراء والغزل. أخبرتها بأنِّي أشعر بالضياع والتشرُّد، وأشتهي أحيانًا الأشياء البسيطة، وأكرِّر الكلمة «أشتهيها» وليس «أتمنّاها»، كحضنٍ دافئ؛ كتفٍ أضع عليها رأسي؛ عشاءٍ يشاركني فيه أحدٌ ما؛ مكالمةٍ هاتفيَّة من صديق قديم أو حبيبة غائبة؛ رسالةٍ تتفقَّدني، تقول لي: كيفك؟

«هذا قاسٍ ومؤلم»، تقول لي بصوتها الحزين. كان فمها الصغير والمدوَّر، يتحرَّك كفم سمكة، تمكّنت من رؤيته على الرَّغم من العتمة، وحينها رغبت في تقبيله.

ـ حدِّثيني عن المكان الذي سنذهب إليه. لم أعد شغوفًا بالمفآجات، ولم تعد لديَّ القدرة على التحمُّل. أخاف أن أُصاب بسكتة قلبيَّة هذه المرَّة.

ـ لقد ذهبتُ إلى هذا الجبل في أثناء النهار فقط، لذلك لا أدري كيف يكون في أثناء الليل. ذات يوم، كنت غاضبة وأشعر بالسخط على الكوكب. أردتُ فقط المشي في محاولة للتخلُّص من القهر والحزن اللذين تراكما في داخلي، ووصلت من دون وعي إلى ذلك الجبل. كان مظهره غريبًا، يشبه رزمة من أقلام الرصاص المختلفة الطول. تخيَّلْ أنَّك دخلت أحد الصفوف المدرسيَّة، وطلبت من الطلّاب أن يعطوك كلّ أقلام الرصاص التي في حوزتهم، ثم ضممتها في يدك، وثبَّتها على سطح الطاولة، فستجد أقلامًا تصل إلى منتصف

الأقلام الأخرى أو رُبْعها، ثم إنَّها مسنَّنة من الأعلى. والجبل كثيف الأشجار بطريقة مدهشة، فروعها متشابكة، وأوراقها خضراء عريضة. تخيَّل نقاط حبر لا تُحصى على ورقة بيضاء. إنَّه جبل عميق، هادئ، وفيه مزاج خاصّ.

«ها، مزاج خاصّ؟» سألتها فاغرًا فمي.

ـ نعم، إنّ للجبل مزاجَ فتاة مراهقة.

ـ وكيف يكون الجبل عميقًا؟

«بالتأمُّل»، أجابت. وأضافت: «حين تنظر إليه، تُدرك أنَّه مشغول بالتفكير في شيء ما، بعيد وغريب».

وأضافت: إنَّه جبل منعزل عن الجبال المجاورة، وساحرٌ إذ تغطِّي أرضيَّتَه الأزهارُ البنفسجيَّة في الربيع، وكثيفُ النباتات في الشتاء. أمّا الجزء المخيف في القصَّة، فسنتركه إلى حين وصولنا».

«هل هناك شيء مخيف في الموضوع؟» سألتها، وقد شعرت بالألم في ركبتيّ ومفاصلي.

ـ هناك ما ستراه وما ستسمعه، وهناك حكاية. أنت تعلم بأنَّ لكلِّ شيء حكايةً، كما أنَّ الجبل سيطلق قنابله نحوك.

ـ قنابل؟

ـ أقصد، بالمعنى المجازي.

عندما اقتربنا من الجبل، رفعت إصبعها وأشارت نحوه. هذه المرَّة شعرتُ بالخوف، حتى إنِّي توقَّفت للحظات قبل أن أكمل المشي. رأيت الجبل كما وصفته لي، رزمةً من أقلام الرصاص غير

متساوية الطول، وبدت لي الأشجار مقلوبة. الجذور الغليظة والمتفرّعة كانت كالأغصان، تمتدّ نحو الأعلى، في حين تحوَّلت الأغصان إلى جذور، امتدَّت عميقًا في الأرض.

انتهى الأسفلت على بعد مئة متر، ثم أكملنا المشي بين الأراضي، لا طريق يوصل إلى الجبل، بل ممرّات ملتوية ومتشعِّبة. شعرت بالتوتُّر. سمعت دقّات قلبي، وكان تنفُّسي سريعًا. أمسك أحدنا بيد الآخر ونحن نتقدَّم بخطواتٍ حذرة بين الأشجار نحو الجبل. كان الظلام يزداد كثافة كلَّما توغّلنا أكثر، حتى لم نعد نرى أيدينا أو المكان الذي نضع فيه أقدامنا.

عندما وصلنا إلى حدود الجبل، سمعنا أصواتًا غريبة تصدر من أعماقه، أشبهَ بصوت نحيب آلاف الأرامل في مأتم واحد، وأنّاتِ آلاف الجرحى الذين أُصيبوا لتوّهم.

قالت لي: خطوة أخرى، وسيبتلعك الجبل.

ـ هذا ليس وقتًا مناسبًا للمزاح.

ـ ثمَّة العديد من الأساطير عن هذا الجبل: ثمَّة أسطورة تقول إنَّ أحد الأغنياء جاء إلى هنا، ومعه خمسة رجال، يحملون المناشير ليحوِّلوا خشب هذا الجبل إلى أبواب وطاوْلات وخزائن، لكنَّ الجبل ابتلعهم في أعماقه. وثمَّة أسطورة تقول إنَّه خلال الانتفاضة الثانية، لجأ إليه أحد المقاومين، وعاش في كهوفه متخَفِّيًا مدَّة ثلاث سنوات. طوال هذه المدَّة، لم ينزل من الجبل. وعندما عرف الاحتلال بوجود المطارَد فيه، حاول اقتحامه بكتيبة كاملة، مجهَّزة بكلِّ العتاد العسكريّ: بنادق؛ قنابل يدويَّة؛ دبّابات؛ ألغام أرضيَّة. لكنّ الرصاص

انهمر على الجنود مثل المطر، كأنَّ الأشجار تحوَّلت إلى بنادق. يُقال إنَّ المقاوم لا يزال في الجبل، ولم ينزل من هناك حتى الآن، على الرَّغم من أنَّ إسرائيل قد قصفت الجبل بغازات سامَّة وقنابل حارقة من الطائرات.

شعرت بأنَّ للجبل عيونًا مزروعة في كلِّ مكان، وكلّ عين تراقبني، تترصَّد حركاتي، وهذا ما جعلني أقف جامدًا كتمثال. كنت أنتظر يدًا خفيَّة من أيدي الجبل الكثيرة، تنقضُّ عليَّ وتسحبني إلى الداخل، فحبست أنفاسي، وتوقَّفت عن إبداء أيّ حركة. كانت الرياح تتخلَّل أغصان الأشجار، فأسمع صفيرًا حادًّا يُثير الفزع. لكن رويدًا رويدًا، أخذ هذا الصفير المخيف بالتحوُّل إلى موسيقى عذبة. بحثت في رأسي عن أحد الألحان، يشبه ما سمعته في الجبل، ووجدت أنَّ الموسيقى تشبه، إلى درجة كبيرة، مقطوعةَ بحيرة البجع لتشايكوفسكي.

واصلنا السير حول الجبل، من دون أن ندخله. رأينا العديد من القنوات التي نشأت بفعل الماء، وأصبحت دروبًا ضيِّقة يمكن السير عليها. شعرنا بالمطارَد ينظر إلينا من بين الأشجار، وكانت نظراته تجذبنا إلى العمق.

«إنَّه عميق وخطير»، قلت لدينا وأنا أبحث عن يدها في الظلام. «ألا توجد أسطورة ثالثة تدور حول هذا المكان؟» أضفت.

ـ مثل ماذا؟

ـ أشباح وشياطين ومخلوقات عجيبة.

ـ ثمَّة أسطورة تقول إنَّ الأشجار لأرواح أزليَّة الألم.

ـ أزليَّة الألم؟ ماذا تقصدين بذلك؟

ـ ثمَّة أشخاص وُلدوا من الألم، وإليه يعودون. تشعر بأنَّهم خُلقوا كي يتعذَّبوا ويعانوا، في حياة لم يختاروها. وقد اختاروا الانتحار، وإنهاء معاناتهم. تقول الأسطورة إنَّ أرواح هؤلاء المنتحرين تسكن في هذه الأشجار، كما تسكنها أيضًا أرواح المختفين.

ـ المختفون؟

ـ نعم، إنَّهم الذين يختفون كأنَّ الأرض انشقَّت وابتلعتهم. تقول الأسطورة ذاتها، إنَّ الجبل يأخذ أرواح الأحياء، الذين لديهم رغبة عميقة وصادقة في الموت.

ـ هل روح رهف تسكن في هذا الجبل؟

ـ احتمال كبير. بدأت الأسطورة حين وقع شابّ فقير في حبّ ابنة الإقطاعيّ الذي يعمل في أرضه. صارا يلتقيان تحت أكبر شجرة في الجبل، وكان للشجرة جِذعٌ مجوّف، يختبئان داخله حين يقترب مجهول من المكان. مرَّت الأيّام، حتى جاء ذلك اليوم الذي عرف به الإقطاعيّ، فخرج إلى الشابّ ومعه رمحٌ حادّ، وقتله في ساحة القرية. طعنه ثلاث طعنات في بطنه، فتدفَّق الدم من جسده، ولم يملك أحدٌ الجرأة على مساعدته، فبقي جريحًا على الأرض، ينزف الدماء، حتى جفّ جسده ومات.

أضافت:

ـ فقدت ابنة الإقطاعيّ عقلها، عندما رأت حبيبها غارقًا في دمه، فخرجت إلى الجبل، واختبأت في جوف الشجرة الكبيرة، حيث كانا يلتقيان. ثم بعد ثلاث ليالٍ، شنقت نفسها على أحد أغصانها. ظلّ جسدها معلّقًا لأيّام، قبل أن تعود إلى الحياة مرَّة أخرى في هيئة

مختلفة: امرأة فاتنة الجمال، عيناها تتوهَّجان بالشهوة، وشعرها شديد السواد كالليل، تتحوَّل إلى أفعى سوداء حين تغضب، مهمَّتها تطهير العالم من الرجال السيِّئيين، عبر إغوائهم بجمالها. كان سلاحها القبلة المسمومة، حيث ينتشر السمّ في أجساد الضحايا بهدوء، فيموتون بصمت ومن دون ألم. كانت تسحب الرجل الضحيَّة إلى السرير، وهناك تمصُّ أصابعه، وتلحسها كقطَّة صغيرة، قبل أن تنزع ثيابه، وتنبش أظفارها في رقبته، ثم تبصق سمّها في الجروح والخدوش الطازجة.

شعرتُ بأنِّي كنت نائمًا واستيقظت. سمعت موسيقى تنبثق من الجبل، وكانت غير مسجَّلة، بل حيّة من آلات عازفين مجهولين، كأنَّ الأشجار نفسها أصبحت آلات موسيقيّة، والأرواح هي التي تعزف عليها. سقطنا أنا ودينا على الأرض، إذ لم نقدر على الوقوف، كأنَّ جهازًا ما سحب القوَّة من جسدينا. تماسكنا وثبَّتنا أيدينا بالأرض، لأنَّ طاقة غريبة كانت تدفعنا نحوها.

حاولنا معرفة مصدر الصوت، إلَّا أنَّه كان موزَّعًا بالتساوي في جميع أنحاء الجبل. فجأة، حاولت دينا إفلات يدي والذهاب نحو مصدره، لكنِّي واصلت الإمساك بيدها والضغط عليها، إلّا أنِّي كنت ضعيفًا، كأنَّ خلايا جسدي تفكَّكت، بعضها عن بعض.

أخذت الحياة بالتسلُّل من مساماتي، فصرتُ باردًا كقطعة جليد. فقدتُ وزني، وشعرت بأنِّي بخفَّة ريشة، ولا شكل لأعضائي. أصبح رأسي يدور بي، حتى خُيِّل إليَّ أنَّني تحوّلت إلى كائن من تموُّجات مائيَّة، أو مخلوق مخاطيّ.

عندما أفلتُّ يدي، استدرت ونظرتُ خلفي. كانت أضواء بيرزيت مشتعلة، أردتُ أن أصرخ لأطلب المساعدة، لكنِّي أضعت صوتي في مكان ما. كنت أفتح فمي على آخره، من دون أن يخرج منه أيُّ حرف. صعدت دينا إلى الأعلى، وأنا أبحلق في خطواتها. أحسست بأنِّي سأفقدها إلى الأبد، ولن أراها ثانيةً، لذلك أخذت أضغط بيديّ على صخرة، ووقفت على قدميّ، وأخذت أسير وراءها.

عندما أمسكت بها، أطبقت عليها بذراعَيّ. كانت مسجونة في جسدي، وظلَّت في مكانها، على الرَّغم من محاولاتها المستميتة للإفلات. أغمضت عينيّ، وأخذت نَفَسًا عميقًا، واستجمعت تركيزي. تخيَّلت نقطة واحدة في فضاء فارغ، ثم رحتُ أدفع بكلِّ ثقلي ووعيي. كنت أغوص في كثبان رمليّة، وأتقدّم، على الرَّغم من الدوّامات التي كانت تسحبني نحوها. في المستوى الثاني، اجتزت تيّارات مائيَّة شرسة، وتمكَّنت من الوصول إلى اليابسة. كانت اليابسة مثل الأرض التي تعوَّدنا المشيَ عليها، صلبةً وثابتة. هناك، وضعتُ رأسي ونمت.

عندما فتحت عينيّ، كانت الشمس قد أشرقت. الجبل أصبح هادئًا، وتوقَّفت موسيقاه. سمعت أنفاسها، وشعرت بها ساخنة على ذراعي. أدركت أنَّنا قد نمنا طوال الليل، وتعرَّضنا للتخدير، كأنَّ موسيقى الجبل، نوعٌ من أنواع المخدِّرات الموسيقيَّة، لكنَّها عميقة وحقيقيَّة.

بدأت أسمع أصوات الناس، وضجيجَ العالم من حولي. عندما استيقظت دينا، رأيت في عينيها تلك النظرات المستغربة التي تقول: «أين نحن؟»

(12)

مارست رياضة رفع الأثقال عدَّةَ شهور، قبل أن أتوقَّف نهائيًّا، لأنَّ جسدي أصبح عضليًّا أكثر من اللازم، ويَلفت النظر. أخذت القرار نهائيًّا، عندما قالت لي إحدى الفتيات في الشارع: إيش يا أبو عضل. فأدركت أنَّ اعوجاجًا قد حدث، ويجب إرجاع الأمور إلى نصابها.

ذهبت إلى أحد النوادي الرياضيَّة في بيرزيت، وهناك أخبرني الكوتش سامي الحائزُ ثلاثَ بطولات دوليَّة، والحزامَ الأسود في التايكوندو، بأنَّه يعمل ضابطًا في جهاز المخابرات. حينها، تخيَّلت ذلك الجسد المعدنيَّ الضخم، ينزل بالضرب والركل، على أحد المعتقلين في غرفة التحقيق، فشعرت بالخوف يسري في جسدي. شرح لي كيفيَّة القيام بتمارين شدّ العضلات، واستخدام الآلات الرياضيَّة. أعدَّ لي برنامجًا للتدريب والغذاء الصحِّي. في أحد الأيّام، بعد انتهائي من التدريب، رأيت رقم هاتف محمود على شاشة موبايلي. عندما عدتُ إليه، سمعته غاضبًا ومستاءً.

ـ تعال، أشوفك اليوم ضروري.

حين دخلت المقهى، رأيته يشرب من فنجان قهوة، ويدخّن بشراهة، متأمّلًا المارّةَ على الرصيف المقابل.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا شيء، المشكلة أنّ لا شيء يحدث. اليوم لم يحدث شيء.

ـ محمود، ماذا تقول؟ لا أفهمك! تكلّم بلغة أفهمها.

ـ أنت تعرف أسيل، أخبرتك عنها أكثر من مرّة. لقد أهديتها كتبًا ووردة بيضاء، خبّأتها في كتابها، وقالت لي يومها إنّها أوّل وردة تُهدى إليها، ثم أخذنا نتعارف أكثر ونتحدّث يوميًّا. في كلّ مرّة، تتقدّم خطوة في اتّجاهي، لكنّها تتراجع عشر خطوات. بعد سنة كاملة، اكتشفت أنّنا في المكان ذاته؛ في الدائرة اللعينة ذاتها حيث تعارفنا في لقائنا الأوّل. إنّها خبيرة بلغة الإيحاء، وتُظهر خلاف ما تُبطن. أقول لها: اتركي يا أسيل قلبك مفتوحًا ولا تُوصديه، فقد يأتي متشرّد ما ويَبيت فيه، فتقول لي: ياه، يا محمود، لو تدري كم انتظرت ذلك المتشرّد، لكن يبدو أنّ هذا اللعين ينام في مكان آخر. قالت لي: قل للحبيب ألّا يتأخّر. لم أطلب منه أن يركض، يكفي أن يصل. أسمعتني عشرات الجمل، التي تستنتج منها أمرًا واحدًا، هو الحبّ.

ـ ربّما تكون مشاعر حميميَّة؛ صداقة روحيَّة؛ أيّ شيء غير الحبّ.

ـ تخيَّلْ، ماذا حدث معي اليوم! لقد اتّفقنا على موعد، وحدّدنا الساعة والمقهى. لم يكن عليها إلّا المجيءُ، لكنّ هذا القليل استكثرته

عليَّ. ذهبتُ إلى الحلّاق وحضَّرت ملابسي، وخرجت إلى أحد محالّ الهدايا، ليغلِّف شيئًا من أكثر الأشياء قيمة بالنسبة إليَّ. تعطَّرت وخرجت قبل الموعد بنصف ساعة، وعندما رأيت المقهى مليئًا بمرتاديه، نزلت إلى مقهًى آخر، يقع في الطابق الأسفل. جلست إلى الطاولة، وبعد لحظات جاء إليَّ نادل وسيم، سألني بتهذيب: أنت في انتظار فتاة، أليس كذلك؟ هززت رأسي وأنا ممتلئ بالزهوّ. كنت أنظر إلى الساعة ولم أنتبه لصندوق الوارد من الرسائل. عندما أردت أن أبعث إليها برسالة، وجدت أنّ هناك رسالة وصلتني منها قبل منتصف النهار، تقول فيها: لم أستطع المجيء لأنّي مريضة، فغادرت رام الله مبكّرًا.

شعرت بالدم يفور في شراييني، فركلت الطاولة، على نحو أثار استغراب الحاضرين، في حين تقدَّم نحوي النادل. وقبل أن يقول أيّ شيء، قلت له: لن تأتي، لأنَّها مريضة، يبدو أنَّ أغلب البنات مريضات في رؤوسهنَّ، ثم خرجت وأنا ألعن اليوم الذي عرفتها فيه. عندما أخبرتها بطردي من المقهى، أخذت بالضحك، فشعرت بعبثيَّة الأمر.

ضحكت وأنا أقول: لقد طردوك، لأنَّك لست برفقة فتاة يا مسكين. أصبحت رام الله لا تستقبل سوى «الكَبِلْز».

ـ هذا ليس وقت السخرية، يا نوح.

ـ بالعكس، إنَّه زمن السخرية. إن لم تسخر فستموت من القهر.

صمتَ لحظة، ثم أخرج سيجارة أخرى وأشعلها. قال لي: اسمع، ما رأيك في كأس بيرة؟

ـ لقد توقَّفت عن الشرب.

ـ وما حاجتك إلى الشرب؟ العمل المُنهِك لا يترك لك الوقت حتى للتفكير في همومك الصغيرة.

ـ أتساءل في نفسي، ما حاجتك إلى فكرة الحبّ؟

ـ أنا أتوق إلى مكان آمن، خاصّ بي، تشاركني فيه أنثى، حتى لو كان ذلك المكانُ: الحلمَ، أو الوهمَ، أو الخيالَ.

ـ لماذا لا تُمضي «الويك إند» خارج رام الله؟ اذهب إلى بيت لحم أو نابلس.

ـ كأنَّك تقول لي اذهب إلى باريس أو لندن! المهمّ، ألم أخبرك بما حدث معي في الأسبوع الماضي. كنت أمشي في أحد الشوارع القريبة من دُوّار الساعة، حين اقتربت فتاة غربيَّة الملامح، في العشرينيّات من عمرها، ثم عانقتني وسط الشارع. أقسم بالله، كدت أقع على الأرض من الصدمة. أن تعانقني أجنبيّة وسط رام الله، هذه معجزة. قالت لي ضاحكة: «آي ميس يو». فقلت لها مرتبكًا: «أنا لا أعرفك». قالت بحماسة: أنا أعرفك.

تذكَّرتها. كنت ذات يوم ذاهبًا للعمل، فرأيت فتاة شقراء تسقط على الأرض، حملتها إلى المستشفى، وبقيت إلى جانبها حتى استردَّت عافيتها. شكرتني وأخذت رقم هاتفي، ووعدتني بأن تتَّصل ونخرج ذات ليلة، لكنَّني نسيتها ولم تتَّصل.

أمسكتني الفتاة من يدي، وسحبتني في شوارع رام الله، حتى أدخلتني معها شقَّةً في رام الله التحتا، تتكوَّن من غرفتين وصالون

وحمّام. كان الصالون مليئًا باللوحات وعلب الألوان والحوامل الخشبيَّة.

كنت أجلس على إحدى الأرائك، حين دخلتِ المطبخ لتحضِّر القهوة. قالت لي عندما خرجت: كنت أبحث عن شخص مثلك، أنت كنزي الثمين. رحت أنظر إلى جسدي الهزيل، باحثًا عن الكنز الذي وصفته بالثمين. وتذكَّرت أنَّ إحدى النساء اللائي تعرَّفت إليهنَّ، قالت عن قضيبي إنَّه كنز. أمّا هذه الغريبة، فهي لم تَرَ الحيوان المختبئ والمربوط جيِّدًا. عندما لاحظت نظراتي، قالت لي: لم أقصد شيئك، بل وجهك. في الحقيقة، شعرت بسعادة كبيرة، فهي أوَّل شخص يُخبرني بأنَّ وجهي جميل، فقد كنت أظنّه أبشع من وجه سعدان.

أخبرتني بأنَّ اسمها إيمَّا، وهي نصف أميركيَّة، ونصف ألمانيَّة، عاشت في روسيا. والدها ضابط في قوّات المارينز، أمّا أمّها فهي رسّامة، لا تبيع أيًّا من رسومها. قلت لها إنِّي أحبّ هذا الكوكتيل الجميل.

وحين سألتها عن سبب مجيئها، أجابتني بأنّها لا تحبّ نمط حياة الغرب أو الروس، وكانت منذ صِغَرها مسحورةً بالشرق: تقاليدِه، حكاياتِه، رقصِه، ونفاقِه. بالضبط، استخدمت مفردة «النفاق». ولمّا سألتها عن قصدها، أخبرتني بأن تكون لديك شخصيّات متعدِّدة، لا تعرف إحداها الأخرى. كنت حذرًا في التعامل معها، لأنِّي سمعت من بعض الأصدقاء، أنَّ عددًا لا بأس بهم من هؤلاء الأجانب، هم عملاء في أجهزة المخابرات الأجنبيَّة. «الضفَّة الغربيَّة حقل تجارب»، قال لي صديق مهووس بنظريَّة المؤامرة. إلَّا أنّ هذا الحذر أصبح تلهُّفًا، حين

خرجت من غرفتها عارية. قالت إنَّها تحبّ الرسم وهي عارية، لأنَّها تشعر بنفسها أكثر حرِّيَّة. لم أستطع التركيز في كلامها أو في أيِّ شيء آخر، لأنَّ شعر عانتها كان مقابل وجهي.

«أنتِ شيطانة يا إيمّا».

كأنَّ هذه الكلمة كانت مفتاح الصندوق، الذي تخبِّئ فيه كلّ مفاجآتها السعيدة، فأخذت تُخرج المفاجأة تلو الأخرى.

قلت لها وأنا أنظر إلى عينيها: جسدك فرس أصيلة.

«لكنَّها تحتاج إلى فارس»، قالت ونظرت إليَّ بخبث. كنت نائمًا على البطّانيَّة الصوفيَّة في الصالون، حين أخذت ترسمني على لوحتها.

«ما أغرب قصَّة حدثت في حياتك؟» سألتها.

ـ قصَّة انتحار صديقتي. ذات ليلة، وجدتها جالسة أمام محطَّة من محطّات المترو في نيويورك، تنظر إلى سكَّة الحديد، وتحمل بين يديها رواية «آنا كارنينا» لتولستوي. عندما نظرت إلى الكتاب، وجدته مفتوحًا على الصفحات الأخيرة، حين تلقي كارنينا نفسها تحت عجلات القطار. لم تكن صديقتي حسّاسة أو غبيَّة، لتُلقي نفسها في أحضان الموت، بسبب رواية خياليَّة. وحين سألتها: ماذا تفعلين؟ قالت لي: أنتظر الموت في المحطَّة.

وأضافت:

ـ كانت عبارتها جميلة، ولو سمع بها بول أوستر، لاختارها عنوانًا لإحدى رواياته. ولمّا أخذت كلامها بجدِّيَّة، شرعت بالضحك، ودعتني إلى كأس ويسكي في أحد المراقص. في تلك الليلة، أخرجت

كلّ جنونها دفعةً واحدة. رقصنا وشربنا حتى تقيَّأنا أمعاءنا، ولفظتنا شوارع نيويورك نحو المحيط. هناك، أسرَّت إليَّ برغبتها في أن تكون طعامًا لأسماك القرش. لم أفهم هذه الرغبة في تدمير الذات. بعد سنة، ذهبتْ إلى إحدى بِرَك تربية أسماك القرش، واستطاعت أن تتجاوز كلّ الحواجز لترمي نفسها إلى تلك الأسماك المتوحِّشة.

أخذت تبكي، فاندفعت نحوها. عندما عانقتها نسيت إيمّا حكاية صديقتها المنتحرة ومدينة نيويورك، واستيقظت في داخلي شهوة الصيّاد. دفعت بي إلى الأريكة واعتلتني، ثم راحت تفكُّ أزرار القميص. فجأة، تذكّرت شيئًا ما، فأزحتها جانبًا وأغلقت الأزرار.

غضبت وقالت إنّي جرحتها، وإنّها تشعر بالخزي والعار من نفسها. ثم وقفت وأخذت تضرب نهديها ووركيها، وتقول: «ها، ألا تراني جميلة؟» حاولت أن أُفهمها أنّي لا أمارس الجنس، لأنّي متديِّن، وأخاف من القيام بأمور تُغضب الله، كما أنّي أريد أن أدخل عشّ الزوجيَّة وأنا طاهر الأعضاء، وأتزوَّج تلك الشريفة الطاهرة التي لم يلمسها رجل.

سألت محمودًا مذهولًا: هل تخاف الله يا زنديق؟ منذ متى؟

ـ لقد خطر في بالي، لأخفي السبب الحقيقيّ.

ـ وما السبب الذي منعك عنها؟

ـ إنَّه سبب تافه وأخجل من الحديث عنه.

وعندما أصررتُ عليه، أجابني.

ـ كنت أرتدي كيلوت أمّي، لأنّي نسيت حمل ملابسي الداخليَّة لأغسلها.

وانفجرت من الضحك.

ـ ارتديتَ كيلوت أمّك؟ ها، ما نوعه؟ أبو خيط؟

ـ هذا أمر مأساويّ، إنَّ الحياة لا تعطينا الكثير من الفرص.

ـ ثم ماذا حدث؟

ـ لقد طردتني، قالت لي: انصرف من هنا أيّها الكلب القبيح، ولا تُريني وجهك مرَّة أخرى. قلت لنفسي معزّيًا: عار الطرد، ولا عار أن تراني في ملابس أمّي الداخليّة.

ـ يبدو أنَّك ملعون ومطرود من هذه المدينة.

ـ نعم، مطرود من المدينة ذاتها التي تفتح ساقيها لكلِّ أجنبيّ.

ـ اشكر كيلوت أمّك يا رجل، لأنّه أنقذك من كارثة. كيف لم يخطر في بالك أنَّها قد تعمل مع الموساد!

في ذلك الوقت، ارتبط الجنس في أذهاننا، بالجاسوسيَّة والتخابر مع إسرائيل. كنت أعرف من بعض أصدقائي في أثناء نقاشاتنا في الجامعة، أنَّ أغلبيَّة الأجنبيَّات القادمات إلى رام الله، مارسن الجنس مع شباب فلسطينيين، وخصوصًا في فصل الصيف، حيث يغزو الأجانب المدينة.

الغريب، أن لا أحد يعلم ماذا يفعلون؟ من أين يأتون؟ وهل هم إسرائيليُّون يحملون جنسيَّاتٍ ثانية؟ يصوِّرون بكاميراتهم كلّ شارع وبناية ومؤسَّسة، أمام لامبالاة الناس واستهزائهم. كنت أسأل نفسي ساخرًا: يا إلٰهي، أين اختفى هذا الحسّ الأمنيّ الذي كان موجودًا في أثناء الانتفاضة؟ كنّا نخشى، نحن أنفسنا، أن نكون عملاء للاحتلال، وليس لدينا خبر!

(13)

عندما استيقظت واستعدتُ وعيي، أحسست بدُوار عنيف. شعرت بأنَّ جسدي ثقيل ويابس، فلم أتمكَّن من زحزحته عن السرير. أطرافي كانت باردة، والعَرَق يرشح بغزارة مبلِّلًا بيجامتي والأغطيةَ.

كنت مرعوبًا، أفتح عينيَّ على وسعيهما، فلا أرى سوى ظلام عميق يكاد يبتلعني. حاولت الصراخ، لكنِّي كنت مختنقًا والصوت كان مختبئًا في جوفي. أخذت نَفَسًا عميقًا، وحاولت انتشال نفسي من البئر التي وجدتني فيها. سمعت أصواتًا غريبة أخذت تبتعد حتى اختفت نهائيًّا. وحين نظرت إلى يدَيَّ، وجدتهما ترتعشان، كأنَّهما لعجوز يصارع سكرات الموت.

استجمعت قواي، ونهضت ببطء. هذه هي المرَّة الأولى، التي أرى فيها العالم بهذا الشكل: غريبًا، بعيدًا، وضبابيًّا. وهي المرَّة الأولى التي أشعر فيها بذلك الإحساس، الذي يستحيل وصفه.

أرتعب حين أرى مسدَّسًا في يدي. أُسقطه، فأراه وهو يهوي على الأرض، مصدرًا دويًّا مخيفًا. رجعت إلى الخلف نحو الحائط، وتكوَّرت في أعلى السرير. بقيت على هذه الحال، أتأمَّل المسدَّس على الأرض، وأنظر إلى محتويات غرفتي.

أخذت أرتجف، وشعرت بألم شديد في صدري. حين وضعت يدي على موضع الألم، أحسست بسائل لزج وبارد. نظرت إلى أصابعي، فرأيت دمًا داكنًا. صرخت بذعر وركضت إلى الحمّام، وهناك أخذت أخلع ملابسي كالمجنون.

نظرت إلى وجهي في المرآة، فرأيته شاحبًا وقد انسحبت منه الحياة، وكانت عيناي غائرتين، وحولهما هالة سوداء. بعد أن لملمت شتات نفسي، وبدأتُ أعي الموقف، أخذت أكوِّمُ كنزتي الملوَّثة بالدماء، وسحبت المسدّس عن الأرض، ثم وضعتهما في كيس بلاستيكيّ أسود. «ما هذه الورطة؟» قلت لنفسي.

أن تنام نومًا عميقًا، ثم تستيقظ لتجد في يدك مسدَّسًا، وعلى ملابسك دماءً طازجة لشخص ما!

إنَّه الرعب الذي لا مثيل له.

وضعت رأسي في المغسلة، وفتحت صنبور الماء على آخره. كان الماء باردًا، فأخذت أنتفض عدَّة مرّات. سحبت المنشفة، ثم نظرت إلى نفسي في المرآة. لم أكن أشبهني. كيف يمكن أن يتغيَّر شكل الإنسان في ليلة واحدة؟ لم أبدُ أكثر شيخوخة، ولم أبدُ أكثر وسامة أو قبحًا، لكنَّ ثمَّة رتوشًا جديدة على اللوحة التي اسمها وجهي، وهذه الرتوش كانت حقيقيّة ومؤثِّرة؛ لوحة أخرى لا تنتمي إليّ.

لم أتذكَّر شيئًا، سوى شظايا حلم بعيد وغير واضح: مستوطنة؛ جنود؛ أصوات إطلاق نار؛ صراخ؛ شخص يزحف تحت زخّات الرصاص. حملت الكيس البلاستيكيّ وخرجت من الغرفة. نزلت إلى أرض خلاء إلى جانب العمارة، وأخذت أحفر في التراب حتى أحدثت حفرة، وهناك وضعت الكيس ودفنته، ثم عدتُ مسرعًا إلى غرفتي باحثًا عن الموبايل. جلست على السرير للحظات، وأخذت بالتفكير في الرقم الذي سأتَّصل به. استبعدتُ دينا وفكَّرت في محمود. اتَّصلت به، وكانت الساعة الحادية عشرة صباحًا.

«محمود»، استغربت من صوتي، بدا غريبًا كأنَّه لشخصٍ آخر.

ـ يبدو صوتك متعَبًا، هل أنت مريض؟

ـ حدث شيء خطير... مخيف.

ـ ماذا حدث؟

ـ لا أستطيع أن أُجيبك على الموبايل، تعالَ.

ـ أنا قادم، ربع ساعة وأصل.

بدت لي الدقائق ساعاتٍ طويلةً لا تنتهي. عشتُ في دوّاماتٍ من القلق والارتباك، حتى سمعت صوته خلف الباب. عندما رأيته، عانقته ولم تكن لديَّ رغبة في إفلاته، لكنَّه أبعدني، وأخذ يسألني عمّا حدث.

ـ أنا في مشكلة. لا أفهم شيئًا، وليس لديّ أيّ تفسير منطقيّ. شيء غريب، ولا يتصوَّره عقل. استيقظت ووجدتُ مسدَّسًا في يدي، ودماءً طازجة لشخص مجهول على كنزتي، ثم تصرَّفت بسرعة،

فوضعت المسدَّس والكنزة داخل كيس بلاستيكيّ، دفنته في الأرض المجاورة.

في الليلة ذاتها، نزلنا أنا ومحمود إلى الأرض، وأخذنا نحفر طوال نصف ساعة. بحثنا في دائرة قطرها خمسة أمتار ولم نجد شيئًا. سألني: هل أنت متأكِّد من أنّك دفنته في هذا المكان؟

كنت متأكِّدًا، إذ دفنته تحت شجرة الزيتون الوحيدة في الأرض. قال لي: إنَّها أوهام من صنع رأسك.

ـ أنا لست مجنونًا.

ـ ما قلته، يا نوح، فكرةٌ سرياليَّة تصلح لأن تكون في إحدى رواياتك، ولكن ليس في الواقع.

خلال اليوم، بدأت الأخبار تصلنا من الأصدقاء والتلفاز وصفحات الفيسبوك.

قُتل 11 جنديًّا إسرائيليًّا وأُصيب آخرون بجروح خطيرة، جرّاء إطلاق مقاوم فلسطينيّ النارَ من مسدَّس كاتم للصوت، في إحدى المستوطنات القريبة من مدينة الخليل.

لم أقتل أحدًا. لم أخرج من غرفتي. وما حدث ليس إلَّا خيالًا محضًا، ولكن في قرارة نفسي، كنت على يقين بأنَّني مَن فعلها. أشعر بذلك، وأرى مشهدًا ضبابيًّا، رأيته في الأيّام الماضية، يقبع في زاوية مظلمة من ذاكرتي، ويحتاج إلى بعض الضوء ليظهر كاملًا، وتنكشف الحقيقة. لا بدَّ من أنَّ هناك كاميرات مراقبة في المستعمرة، وأجهزة رصد متطوِّرة، كما أنَّ هناك عملاء على الأرض يعملون بإخلاص.

عشت أسبوعًا في قلق ورعب، لم أخرج فيه من غرفتي. في الليل، كنت أتخيَّل مئات الجنود المدجَّجين بالأسلحة، يحاصرون العمارة، وينادون: «سلِّم نفسك». كلَّما سمعت هدير طائرة مروحيَّة في السماء، اختبأت مذعورًا تحت البطّانيَّة، وقلت: ها هم جاؤوا. وكلَّما سمعت ضجَّة في الخارج، تلصَّصت من الشبّاك، وشعرت بأنَّ ثمَّة عيونًا مختبئة في مكان ما، تراقبني وترصُد حركاتي.

وكالات الأنباء والقنوات الإخباريَّة قالت إنَّ الجيش وأجهزة الأمن الإسرائيليّة: الشاباك؛ الموساد؛ الاستخبارات العسكريَّة «أمان»؛ الشرطة؛ حرس الحدود، كلّها تبحث عن المنفِّذ. كما صرَّح رئيس الحكومة الإسرائيليَّة للشعب الإسرائيليّ بأنَّها مجرَّد أيّام، وسيصلون إلى «الإرهابيّ» الذي قام بالعمليَّة الخطيرة. اعتبرتها إسرائيل من أخطر العمليّات الأمنيَّة منذ عقدين من الزمن، إذ تمّت بحِرَفيَّة أدهشت قادة الجيش والمخابرات.

كانت الأخبار تزيد توتُّري، لذلك ابتعدت عنها عدَّة أيّام.

مرَّ أسبوع ثم أسبوعان، ثم شهر وشهران، ولم يكن هناك أيّ جديد. إسرائيل، بجيشها واستخباراتها وأجهزتها الأمنيَّة، عجزت عن الوصول إلى المنفِّذ، الذي انشقَّت الأرض وابتلعته آخذًا معه كلَّ الأدلَّة.

خلال تلك الفترة التي لم أخرج فيها من الغرفة، حَمَّلت الكثير من الكتب على حاسوبي بصيغة «بي دي أف»، وأخذت أقرأ لساعات طويلة في اليوم. لم أكن أفعل شيئًا سوى القراءة. وعندما أشعر بالملل، كنت أغيِّر مكاني أو طريقةَ جلوسي.

قرأت كتابًا عن ملك بلجيكا ليوبولد الثاني، الذي استعمر الكونغو في أفريقيا، وقتل فيها عشرة ملايين إنسان. كان الناس في الكونغو لا قيمة لهم بالنسبة إلى يوبولد، ولم يكونوا أكثر من عبيد يستغلّهم في تحصيل المطّاط من الغابات الواسعة، تحت ظروف وحشيَّة.

كان ثمنُ التأخير في تسديد حصَّة المطّاط المطلوبة من العامل، قطعَ يديه أو تشويهَه جسديًّا. وعندما قرأت في الكتاب ذاته، أنَّ جوزيف كونراد، تناول في روايته «قلب الظلام» الجرائمَ البلجيكيَّة في الكونغو في أثناء الحقبة الاستعماريَّة، بدأت بقراءة الرواية. ولأنَّها قصيرة، وسرد كونراد ممتع يشبه سرد الجدّات في الليالي الشتويَّة، التهمتها في ليلة واحدة.

عندما انتهيت، وجدتني أنهار من البكاء. حاولت أن أدخل في رأس هذا السفّاح، الذي اسمه ليوبولد. قلت لنفسي: لا بدَّ من أنَّه كان يرى شعب الكونغو دُمًى لا قيمة لها. يقطع يد هذه الدمية، أو رأسها، ويقتلع عين تلك الدمية، ويجعل الدمى تقتل بعضها البعض أو تغتصب إحداها الأخرى. كلّه في هذا المسرح العبثيّ، حيث يفقد الموت معناه.

يصبح الموت روتينيًّا وتافهًا، مثلَ بصقة طفل من الكونغو. لن تنتفض السماء، أو تُنزل غضبها، من أجل أمرٍ تافه كموت الملايين من البشر، على أيدي حمقى سفّاحين، يعلّقون اسم الربّ في صدورهم. فتحت ليلتَها نافذةَ غرفتي، ونظرت إلى السماء، فبدت سوداء عديمة المعنى في عيون التاريخ، كموت الملايين من البشر، على يد قاتل مثل ليوبولد.

سمعت صوتًا غريبًا، فأدرت رأسي وأخذت أنظر في جميع الاتِّجاهات باحثًا عن مصدر الصوت، لكن نوافذ البيوت كانت مغلقة ولا أحد في الشوارع، كان الهدوء يغشى المكان في تلك الساعة من الليل. لم أرَ سوى بومة صغيرة رماديَّة اللون، تقف على أحد حبال الغسيل، في شرفة البيت المقابل. إنَّها البومة نفسها التي رأيتها المرَّةَ الماضية. كانت تحدِّق إليَّ بعينيها الذهبيَّتين اللامعتين، وهي تهزُّ رأسها العريض، ثم تحنيه عدَّة مرّات. سمعت الصوت مرَّةً أخرى.

فركت عينَيَّ وحدّقت في البومة:

ـ هل تتكلَّمين مثلنا؟

ـ نعم.

شعرت بالخوف، لكنّي تمالكت نفسي.

فجأة، أدارت رأسها بحركة شبه دائريَّة، ثم رفعته ناحية السماء وقالت باستهزاء:

ـ الطقس جميل، لكنَّه لن يبقى كذلك.

ـ لقد رأينا الطوفان وهو يجتاح المدينة. لا أستغرب أن يعود مرَّة أخرى.

نفشت البومة ريشها الناعم، ثم مطَّت جسدها ببطء. أدارت رأسها ونظرت إلى مكان قصيّ، فخُيِّل إليَّ أنَّها تتأمَّل شيئًا خطر في بالها.

ـ اهرب.

ـ لم أفهم، لماذا ينبغي لي الهرب؟ هل الأمر له عَلاقة بمقتل الجنود الإسرائيليين؟

ـ له علاقة بقلبك.

ـ هل أنا من نفَّذ العمليَّة؟

لا إجابة. قلت في نفسي: إنَّها تتكلَّم كأنَّها تتحدَّث إلى نفسها، لا تنتظر جوابًا، وعباراتها منزوعة من أحد الكتب. تثاءبتْ وأغمضت عينيها، ثم دخلت في نوبة صمت. لم أرغب في إزعاجها، لأنَّها كانت تتمطّى متكاسلة، فظننت أنّه وقت نومها. لكنّي رأيت طفلًا عند نافذة بيتهم، ينظر إليَّ عبر لعبة تشبه المنظار. بعد لحظات سمعت أمّه تنادي عليه، فأغلق النافذة ودخل.

عندما عدت إلى النظر إلى مكان البومة، لم أجدها. كانت الشرفة تبدو مهجورة وغارقةً في الظلام. **أتكون هذه مجرَّد هلوسة؟** مستحيل، إنَّها بومة حقيقيَّة، كانت تقف على حبل الغسيل، لكنَّها طارت ما إن رأت الطفل. لا بدَّ من أنّها تراقبني، وهي أكثر قربًا ممّا أتصوَّر.

(14)

بعد مرور ثلاث سنوات على معرفتي بدينا، وفي أثناء المشي الذي اعتدناه في شوارع بيرزيت، قبَّلتها. كنّا في شارع معتم، والوقتُ أوَّلُ المساء. أمسكت يدها، ثم سحبتها إليَّ، وقرَّبت وجهها نحوي، فتلاقت شفاهنا بهدوء. كنّا خجولَين ومرتبكين. وعلى الرَّغم من ذلك فإنَّ شفتيَّ لم تتزحزحا عن شفتيها. شعرت بأنفاسها على رقبتي، وسمعت دقّات قلبها.

جلسنا على سُور إلى جانب الشارع، خلفنا أشجارُ سرو، وأمامنا بيوتُ بيرزيت الجميلة بقرميدها الأحمر. أخذت يدها من جديد، وقبّلتها. بقينا صامتَين إلى أن سمعت تمتماتها.

ـ ماذا تقولين؟

ـ لقد انتظرتك طويلًا أيُّها المتشرِّد.

شعرت بالوحشة تتلاشى في داخلي. كانت دينا طوال فترة

صداقتنا تتقرَّب إليَّ، تهتمّ بي وتغار عليّ، لكنِّي كنت أبحث عن الحبِّ في مكان آخر. وعندما جلسنا معًا في ذلك المساء، فتح القطّ الذي في داخلي عينيه، وتأمَّلها بصدق.

ـ أخطأتُ الطريق، لكنِّي في النهاية وصلت إليك.

نظرتُ إلى القمر، ثم التفتُّ نحوها. وجدتها جميلة ودافئة، كأنِّي أكتشفها للمرَّة الأولى.

سألتْني: هل تحبّني؟

ـ طبعًا، أحبّك.

ـ وأنا أحبّك، منذ رأيتك في أوّل لقاء.

هززت رأسي، وأنا أنظر إلى يديها الصغيرتين النائمتين في حجرها.

ـ لا تُؤذِني يا نوح. أنا متعَبَة ومجروحة، أريد كتفك لأضع رأسي عليها، ويدك لأخبِّئ فيها يدي. أشعر بالخوف. أريدك أن تُشعرني بالأمان؛ أن تربِّت على كتفي بين الوهلة والأخرى؛ أن تقول لي إنَّ الأمور ستكون على ما يُرام.

نظرت إلى وجهها، ثم مرَّرت عليه أصابعي، قبل أن تنتقل لتستقرّ خلف أذنيها، وتتحرَّك بهدوء على رقبتها، لتندسَّ أخيرًا في عتمة شعرها. كانت رائحتها بدائيَّة، وأحسست بأنِّي أمشي في غابة كثيفة الأشجار، وخصوصًا حين كنت أنزلق بشفتيَّ ولساني على رقبتها.

هصرتها بين ذراعَيّ، وشددتها إلى صدري. كانت نظراتها تستغيث، وفيها رغبة وحشيَّة. قالت بصوت عذب ومغناج:

ـ لا تكن نذلًا.

أفزعتني نظراتها، عندها شعرت بيدي جامدة، وقد تيبّس جسدي، فتوقّفت وأخذت يدها، ومشينا صامتين.

بعد هذا اللقاء، صرنا نخرج ثلاث مرّات أسبوعيًّا. نمشي في الشوارع؛ نأكل البوظة والكوكتيل؛ نذهب إلى مسرح بيرزيت، لحضور حفل موسيقيّ، ونذهب إلى السينما والحدائق العامّة.

كانت تعرف أنّي وحيد، مثل بيتٍ مهجور، لذا أخذت تشاركني في اهتماماتها الصغيرة؛ تستشيرني عندما تريد أن تقصّ شعرها، أو تغيِّر لونه، كلّما اجتمعنا في أحد المطاعم. ذات يوم، قالت لي إنَّها تريد أن تصبغه باللون البنفسجيّ، لأنّه يذكّرها بحبيبٍ سابق. لم أشعر يومها بالغيرة، لكن برغبة عارمة في استفزازها، فقلت لها: سيكون منظركِ مضحكًا.

تخيَّلتها تلكمني بقوَّة، لكمةً قويَّة إلى درجة أنَّها ستُفقدني توازني، إلَّا أنَّها ابتسمت. قالت لي: أنت أرنب صغير. مدَّت يدها إلى حقيبتها، وظننت أنَّها ستُخرج لي جزرة، لكنَّها أخرجت زجاجة عطر «لاكوست». أصبحت تهديني العطر نفسه، بعد أن أجبرتني على ترك تلك العطور الثقيلة، التي كانت تسمِّيها عطور الأموات.

كنّا نمسك بيد أحدنا الآخر، يحضن كلٌّ منّا الآخر، ويلتهم شفتَي الآخر، إلَّا أنّنا لم نمارس الجنس. كانت مسكونة بالخوف، وأنا كنت خائفًا عليها. تحدَّثنا عن الأفلام، والموسيقى، والروايات، والحرب، وتبادلنا القبلات والأحضان. بدت لنا كلّ هذه الأشياء كافية، وتملأ عالمينا الصغيرين. أخذت دينا مع مرور الوقت بالتأثير فيّ، والضرب

على أوتاري العميقة، فلم تمنحني استراحة واحدة لالتقاط أنفاسي. كان حبًّا مجنونًا.

كنت أحاول طوال فترة صداقتنا، أن أُقنع نفسي بأنَّنا مجرَّد صديقين، لكنَّ الحبّ أخذ ينمو بيننا بهدوء. على الرَّغم من اختلافاتنا، فإنَّنا لم نكن نقدر على العيش من دون أن نكون معًا. هذه الحقيقة التي أخذت تصبح أكثر وضوحًا، دفعتنا إلى الاعتراف بما اعترفت به أجسادنا من قبل: نظرات العيون، تعابير الوجه وحركة اليدين.

كلّ تلك الأشياء، كانت إعلانًا صريحًا عن الحبِّ. كيف عرفتُ أنَّه الحبّ وليس وهمه؟ لا أدري، كنت أشعر ببساطة بأن لا قيمة لعمري إن لم يكن يقرِّبني منها. لا متعة، لا حياة، لا عمل للحواسّ خارج حدودها.

انتقلت علاقتنا من الصداقة إلى الحبِّ؛ من القوَّة إلى الضعف. ولم تعطني الدنيا حرِّيَّة الاختيار، لأنّ حبّها كان قَدَري. أهمّ الدروس التي أخذتها في حياتي، أن لا شيء يأتي من دون تعب. يبدو أنَّ الشقاء ملحُ الحياة حتى في الحبّ. لقد عشت فقيرًا، واشتغلت عامل نظافة، وغاسل صحون، وعاملًا في وُرَش البناء، إلَّا أنَّ الحبّ كان أكثر الأعمال قسوة.

فشلت في إقامة علاقة واحدة، علاقة ناجحة، تنتزعني من عمق الوحدة والخراب؛ أهاتف شخصًا على الطرف الآخر، لأقول له عن يوميّاتي العاديَّة. لطالما فرحت وحدي، وحزنت وحدي، ومتُّ وحدي أكثر من مرَّة، وعدت إلى الحياة أكثر قوَّة. بيني وبين العالم ألفُ حاجز، منذ صغري وأنا أقفز عنها، أحاول أن أتجاوزها، باللطف حينا

وبالصدام أحيانًا، لكنَّها الوحيدة التي استطاعت أن تعبر كلّ هذه الحواجز وتصل إليَّ. يمكن أن أتحدَّث إليها عن أكثر أشيائي سخافةً؛ عن أفكاري السطحيَّة؛ عن شهواتي المريضة؛ عن أحلامي الطفوليَّة براحة، ومن دون أن أبرهن لها في كلِّ لحظة، أنَّني لم أقصد ما قلت. دينا فتاة لا يمكن تعويضها. إنَّها قادرة على أن تجعلني طفلًا على الرَّغم من قسوة العالم. معها اتَّسعت رؤيتي للأشياء. أصبحتُ أكثر حساسيَّة إزاء التفاصيل. تجربة لا تتكرَّر في الحياة مرَّتين.

لم نترك مقهًى إلَّا وزرعنا فيه رائحتينا، ورمادَ سجائرنا، وبقايا قبلاتنا. لم نترك زاوية في رام الله لم نجلس فيها، لنتبادل الأحاديث واللمسات، كأنَّ فضاء المدينة خُلق لنا وحدنا. عند كلِّ شارع، وعلى كلِّ مقعد، وتحت كلِّ شجرة، زرعنا ذكرى، أو حلمًا، أو قصيدة.

(15)

جلست إلى الطاولة وحدي، وطلبت من النادل كأس فودكا. كان المقهى شبهَ خالٍ، لا يوجد فيه سوى رجل وامرأة، يمسك كلٌّ منهما بيد الآخر، ويتبادلان النظرات إلى عيونهما. بريئان كعصفورين. أوه، هل ثمَّة براءة في هذا العالم الموحش؟ العالم المتخَم بالخداع والكذب والقسوة! طلبت مزيدًا من الكحول، وأخذت أشرب كمجنون، وأنا أنظر إليهما. كان يأكلها بنظراته، يزرع عينيه في لحمها، ويهمس في أذنها فتتورَّد وجنتاها، على نحو يدفعها إلى التصرُّف كطفلة، بعبث ولهو واضحين.

كانت ترتدي فستانًا مكشوف الكتفين، يواري جسدًا رشيقًا وممتلئًا، ينبض بالحيويَّة، يشعُّ من عينيها بريقٌ رائع. وصدرها كان عامرًا بثديين موفوري الصحَّة. أمَّا الرجل فقد كان يرتدي بذلة سوداء اللون، ويضع نظّارة طبِّيَّة. شعره طويل يصل حتى الكتفين، وله وجه مكتنز مدوَّر. في زاوية المقهى، كان ثمَّة بيانو قديم ومزهريَّة فيها ورود

بلاستيكيّة، وآلةٌ كاتبة قديمة، ومذياعٌ قديم. يبدو أنَّ مقاهي رام الله لا تترك شيئًا حديثًا أو قديمًا، إلّا وتستثمر فيه. أوه، كلّ شيء استثمار، إلّا أنا أعيش كأبله بقلب طيّب. ماذا في وسع القلب أن يفعل وسط غابة من الذئاب؟ ولماذا لا أصطاد أنا الآخرَ؟ أتحوَّل إلى صيّاد متعة، وأمسك تلك المرأة من رقبتها وأجرّها إلى السرير، ولْيَمُتْ ذلك اللعين بغيظه.

جلست فتاة هزيلة الجسم إلى البيانو لتعزف إحدى مقطوعات بيتهوڤن. كان ظهرها مكشوفًا من الأعلى، مذهلًا، بينما الأضواء تنساب عليه، تبرق، تتراقص، على ضفَّتي الجديلة. ولكن ليتها لم تغنِّ. كان صوتها رديئًا، فرغبت في أن أذهب وأطبق البيانو على أصابعها اللعينة، وأسألها عن الحمقى الذين خدعوها وقالوا لها إنَّ صوتها جميل.

نسيت رداءة صوتها، حين لعبت الخمرة برأسي، فأخذتُ أترنَّح مثل أرجوحة في الريح، وذهبت إليها لأغازلها وأدعوها إلى تناول كأس، لكنَّها رفضت وقالت إنَّها لا تشرب.

شعرت بأنَّني إذا بقيت في هذا المقهى، فسأرتكب جريمة، وأفتعل مشكلة مع أيِّ أحد أراه أمامي، لذلك دفعت الحساب وخرجت. كان الجوّ باردًا، فأخذت أسناني تصطكّ. أخرجت هاتفي المحمول واتَّصلت بدينا.

صرخت بها:

«هذا العالم لعين وابن كلب».

«اهدأ، هل أنت سكران؟ خذ سيّارة واذهب لتنام، هذا السهر

سيقتلك. هل تسمعني؟ اذهب للنوم».

«لا أعرف أين أنام، ليس ثمَّة مكان صالح للنوم».

«اذهب إلى سكنك».

«اسمعي، سأراك غدًا، أقسم بالله سأكسر رقبتك إن تغيّبتِ، لم أعد أحتمل».

«حسنًا، اصمتْ ولا تتفوّهْ بهذا الهراء».

مشيت في شارع الإرسال متوجّهًا إلى موقف باصات بيرزيت. كان الوقت متأخّرًا، ولم أر أيّ سيّارة تمرُّ من المكان. أرخيت رأسي على حجر، ورحت أتطلّع إلى السماء، أعدُّ النجوم التافهة، وأفكّر في خيباتي. لماذا أدور وأدور لأعود إلى الشارع؟ هل حياة التشرُّد هي حياتي الحقيقيَّة، أم أنَّه العالم الذي لا يناسبني؟ لماذا ينبغي لي أن أمارس مهنة سخيفة لا أطيقها، وأعيش داخل الدائرة الحقيرة نفسها، حيث الاستغلالُ واستنزافُ الطاقات وموتُ المشاريع الكبيرة؟

لم أكن أكترث لشيء وأنا ممدَّد على الشارع: لا البرد ولا العتمة الحالكة، ولا عواء الكلاب في الزقاق. ما هذه المدينة التي تتجوَّل فيها الكلاب ليلًا بدلًا من الشرطة؟ تحرس الشوارع وتتغذَّى من حاويات القمامة. رحت أفكّر في حياة الكلاب. إنَّها متحرِّرة ولامنتمية، لا تفكّر إلَّا في العواء والمضاجعة. وحسدتها. ثم أخذت أضحك من غرابة الفكرة، كيف يصل الإنسان إلى هذه الدرجة، ليحسد الكلاب.

مع مرور الوقت، أخذ البرد ينخر عظمي. ليل رام الله شديد

البرودة، لا يرحم الناس الآمنين في بيوتهم، فكيف بالكلاب والمتشرِّدين! أخذت أبحث عن كَراتين أو قطع قماش أو أيِّ شيء قذر متروك في المكان، يمكن أن أتغطَّى به. نمت في الشارع، ولم يعد الأمر مستغرَبًا بعد أن اكتشفت هذه الرغبة في الخروج من الأمكنة الضيِّقة، إلى الفراغ والفضاء العائم في اللاشيء.

أخذت أفكِّر في جنازتي، والأشخاص التافهين الذين سيحضرونها. سيجهِّزون لي تابوتًا خشبيًّا، وكفنًا أبيض رخيصًا، وقبرًا، ويتلون صلاة، أدعية. لا أدري ما حاجة الميِّت إلى كلِّ هذه الأشياء؟ ورود على القبر وكلمات في رثاء الميِّت، أيّ حُمق هذا الذي أصاب العالم! ما فائدة الورد والمراثي لكائن يجتاز عتبة العدم؟ أخذتني أفكاري إلى الموت ومصير البشريَّة والمستقبل الذي يسبح في مخاط الحمقى والمجرمين، وإلى كلِّ هذه الأفكار السخيفة، التي لا تقدِّم ولا تؤخِّر: فقط هراء يملأ الكون.

خشيت أن أموت وحيدًا؛ أن تنتهي حياتي في الشارع، والبردُ يجتاح كياني من دون رأفة. فكَّرت في النجاة، والموتِ في أسوأ الأحوال، على طريقة همنغواي عبر رصاصة في الرأس، ثم ينتهي كلّ شيء. أخذت ألوم نفسي على هذه الأفكار السوداويَّة، وقلت إنَّني أعيش الحياة، أقتحمها، وأرفع فوقها راياتي. أترك نفسي للريح، وهذا ما قال به الشعراء الكبار: التجربة التي تصقل الإنسان، الاكتواء بالنار والمعاناة. ثم إنَّ هذه المأساة مثيرة للضحك، وأنا، في النهاية، أقاتل، وما الحياة غير حلبة قتال!

ولكن هذه القذارة التي تُحيط بي من كلِّ جانب، لماذا تلتصق بي

ولا تذهب مثلًا إلى البرجوازيين والتافهين الذين يملأون الأرض مثل الذباب؟ يلتصق الفقر والجوع بمن ينشد الجمال والقيم السامية؟ اللعنة، قيم سامية! قلت في نفسي مستهزئًا. لقد تخلّصت من هذه المثاليَّات منذ زمن بعيد. أنا الآن لا أؤمن إلّا بالهامشيّ والقَذِر والوضيع. أمَّا هذه الأفكار العظيمة التي تدَّعي النقاء والكمال، فإنَّها تُثير في داخلي الشكوك.

تذكَّرت هاتفي، فأخرجته من جيب البنطال، لأتَّصل بأحد الأصدقاء، لكن بطّاريَّة الشحن كانت فارغة. رحت أحاول تشغيله؛ قلبته على قفاه، وضربته عدّة مرّات، كأنَّه مولود وأنا طبيب أتفحَّصه إن كان في قيد الحياة، غير أنْ لا حياة فيه، فرميته بعيدًا عنِّي، واستمتعت بمشهده وهو يتطاير وينشطر شظايا، وزجاج شاشته المتناثر على الأرض يلمع تحت الأضواء. ما الحلّ؟ لا شيء سوى المكوث ومحاولة النوم حتى يطلع الصباح.

كان رأسي ثقيلًا. صداع رهيب، وطنين لا يكِلّ، فغرقت في النوم. استيقظت على ألم شديد، وعندما رفعت رأسي، وجدت أحد الأشخاص يدوس بقدمه على يدي، يسحقها تحت حذائه اللامع. صرخت، وحين عدتُ إلى وعيي، كان الشخص قد وصل إلى آخر الشارع. المارَّة يمرُّون عنِّي، وينظرون إليَّ باستغراب وتقزُّز: نظرات اشمئزاز لعينة كانت تنطلق نحوي من كلِّ مكان.

وقفت على قدميّ، وأخذت أرتِّب ملابسي، وأزيل ما علق عليها من غبار وأوساخ، ورفعت رأسي في افتخار بتشرُّدي. إيه، مَن لديه الجرأة لينام في الشارع؟ مَن لديه هذا النزوع الجنونيّ نحو الأشياء التي

لا هدف لها؟ لم أكن أريد أن أكون عبثيًّا، فأضع الأدوية إلى جانبي وأستعدّ للانتحار، ثم أكتب منشورات الوداع على الفيسبوك. لم يكن يعنيني كلُّ هذا الهراء الذي يردِّده بعض المثقَّفين. وجدت نفسي في الشارع. حسنًا، لِأَعِشْ بما هو متاح، ولأَبْحَثْ عن مخرج.

كان معي خمسة شواقل، فصعدت على متن أحد الباصات المتوجِّهة إلى بيرزيت. كان الجوّ رائعًا، وشعرت برغبة جديدة في النزول إلى الشارع بضع دقائق. فكرة مجنونة أن أعود مرَّة أخرى، بعد تجربة الليلة الماضية. كان جانبا الشارع مزروعين برايات «فتح» و«حماس» والجبهة الشعبيّة. إنّها انتخابات مجلس الطلبة، التي لم تعد تعنيني، بعد أن تخرَّجت ولم أجد عملًا. عندما وصلت إلى السكن واجتزت الباب، ذهبت مباشرة إلى المطبخ ووضعت ركوة القهوة على النار. لا بدَّ من القهوة لإرجاع العالم إلى مكانه، ولأُمسك خيوطي من جديد. لا بدَّ من هذه الرائحة القادمة من مكان سحريّ بعيد. وفكَّرت في أنَّ الخمرة والقهوة يأتيان من مكان واحد.

بعد أن شربت القهوة، رميت نفسي على السرير. لم أدرِ كم استغرقت في النوم، لكنّي ما إن استيقظت حتى شعرت برغبة مجنونة في الحديث مع دينا. هذه السخيفة، المتناقضة، تشبه الحياة، وربَّما لهذا السبب تعلَّقت بها.

ـ دينا، الحبّ تافه. الوحدة سؤال كبير. ألمْ يتوصَّل البشر إلى جواب واحد عن هذا السؤال؟

ـ حبيبي، لا يوجد سؤال أكبر من الحرب!

ـ أوه، أنتِ ملاكي، كنزي الثمين. تذكَّرت فتاة مؤدلجة، مشحونة

بالشعارات، قالت لي ذات يوم إنَّ الحرب جيِّدة لأنَّها تُنجب العظماء. واستشهدت بالتاريخ، كلبِ الأكاذيب الوفيّ. وعندما قلت لها إنَّ الحروب غبيَّة وعبثيَّة، لا تترك خلفها سوى القَتَلة والضحايا، اتَّهمتني بأنِّي غير وطنيّ وليس لديّ إحساس، وتمنَّت لي رصاصة تمزِّق أحشائي، حتى أشعر بالحبّ الحقيقي للوطن. أقسم لكِ بأنَّها استخدمت هذا المصطلح، الحبّ الحقيقيّ. لا أدري، أنت ما رأيك؟

«ألم تتعب من الكلام والتفكير في هذه الأشياء؟» وأضافت: «الضباب كثيف في الخارج».

اتَّجهتُ نحو النافذة وأزحت الستارة، رأيت الضباب يلفُّ كلّ شيء. هذا غريب. حتى الطقس مزاجه متقلِّب ولا يثبت على حال. لم أنسَ العاصفة التي ضربت رام الله، وكادت تُغرق أحياء بكاملها. هل هذا غضب الطبيعة علينا؟ عدتُ إلى الأسئلة كعادتي.

«هل أفطرتَ؟» سألتني.

ـ لا، لم أفطر.

ـ هل لديك في الثلّاجة ما يؤكَل؟

ـ لا أعتقد. زجاجات ماء فارغة؛ فلفل حارّ؛ بصل؛ خبز يابس. هذا كلّ ما لديَّ بحسب ما أتذكَّر.

ـ اذهب إلى المتجر وأحضر شيئًا لتأكله. جسدك يحتاج إلى الغذاء. هذه من أساسيّات الحياة: طعام جيِّد، نوم جيِّد، و...

ـ جنس جيِّد؟

ـ هششش.

ـ ليتكِ هنا في غرفتي.

ـ ماذا؟ اخرس، ولا تكرِّر هذا الكلام، سأراك هذه الليلة، أوكي! باي.

وتخيَّلتها جالسة على السرير، تتأمَّل الضباب عبر النافذة، ثم تستلقي على ظهرها، وتقول لي كأنَّها تهمس لشخص بعيد: «تعالَ يا حبيبي». في كلّ حال، لا يحقّ لأحد أن يحاسب خيالي، فتماديت، ورأيتها تخلع...

خطر لي شعور المرأة وهي تخلع ملابسها للرجل الأوَّل في حياتها، مستسلمةً له بإرادتها، متحرِّرةً من كلّ ما يمنع جسدها عن يده. وسمعت صوتها من جديد، وكان هذه المرَّة فيه استغاثة ورجاء:

ـ تعالَ، أرجوك، أنا فتاة تحبّك.

فكَّرت في هذا الكلام البسيط الذي هزَّني في العمق «أنا فتاة تحبّك».

ـ الحبّ ليس إثمًا، كلّ شيء آثم إلَّا الحبّ.

دينا في خيالي أكثر حكمة منها في الواقع، تبدو لي بدرجة أستاذيَّة في الفلسفة.

ـ أنتِ فتاة مدهشة.

ـ أنا فقط فتاة طيِّبة، تبحث عن قلب دافئ.

ـ وأنا...

قبل أن أكمل حديثي، قالت لي: ينبغي لي المغادرة.

ـ ماذا؟ إنَّنا لم نبدأ بعد.

ـ سأعود، أنا لا أستطيع أن أعيش من دونك.

على الرَّغم من أنَّ المشهد كان متخيَّلًا، فإنَّه أيقظ في رأسي أسئلةً حقيقيَّة: لماذا كلَّما اقتربتُ من لحظة الفوز خسرتُ؟ لماذا كلّ القصص ناقصة، كأنَّها مجرَّد بدايات؟ هل أنا فاشل أم مجرَّد سيِّئ الحظّ؟ هل أنا ذكيٌّ إلى درجة أنِّي أدركت سخافة اللعبة؟ هل هذه هي ممتلكاتي: عالم محطَّم؛ أوراق مهملة؛ فزّاعات الوقت؛ خيال ضحل؛ نكات رديئة؟

لا شيء غير الأسئلة.

(16)

أمضيت الليلة التالية متسكِّعًا في شوارع بيرزيت. مشيت عشرات الكيلومترات بشكل دائريّ، فما إن أصل إلى نقطة البداية، حتى أعود من جديد. تمنَّيت أن يكون ثمّة ثلج على الأرصفة، وبرد وريح تقلع البشر عن الأرض، لكنَّ الجوّ كان عاديًّا، محايدًا، من دون نسمة هواء. وعندما سئمت المشي والهبوط والصعود، جلست على أحد الأرصفة، ورحت أتطلَّع إلى الناس والسيَّارات.

لا أذكر ماذا كنت أرتدي. لم أكترث كثيرًا للملابس. يحدث أن أفقد اهتمامي بكلِّ شيء. دخلت بعدها أحد المقاهي، شربت ثلاثة فناجين قهوة، وكدتُ أطلب الرابع، وسألت نفسي: لماذا لا يقدِّمون ركوة كبيرة كاملة؟ تَقَدَّم نحوي شابٌّ ضخم، عضلاته مفتولة، وأخذ يضربني بخفَّة على رأسي ضرباتٍ خفيفةً منتظمة. لم أعرفه ولم أفهم كيف يمزح معي وليس بيننا أيّ علاقة. طلبت منه أن يتوقَّف ويدعني وشأني، لكنَّ هذا اللعين استمرَّ بالطَّرْق على رأسي.

ـ هل تظنّ رأسي طبلة أو بطّيخة أو شيئًا من هذا القبيل؟

لا أدري ما الذي حدث. حاولت أن أضربه، لكنّه تفادى اللكمة، فوجدتني على الأرض، ورأيت وجهه محتقنًا شديد الاحمرار. انتظرت أن يُطلق سراحي، إلّا أنّه استمرّ في تثبيتي من دون أن يقول كلمة واحدة. بقي صامتًا ولم أسمع صوته «هل هو أخرس؟» كان في المقهى فتيات جامعيّات فبدأن بالصراخ، عندها تدخّل الشباب لإظهار قَدْر كبير من الشهامة، وأبعدوا ذلك الوحش.

خرجت من المقهى. شعرت بخيط دم حارّ ينزف من أنفي، فأخذت أمسحه بملابسي، وبما أجده من مناديل ورقيّة. ذهبت إلى سكن محمود، وكان عليّ المشي مسافة ثلاثة كيلومترات. عندما وصلت، رأيته من خلال النافذة، كان يقرأ وهو مستلقٍ في السرير. طرقت الباب.

ـ دم مرّة أخرى، هيّا ادخل.

وكأنّ الدم والألم صارا دعامتين لحياتي؛ شيئين لا بدّ منهما، لأستمرّ في العيش.

سألته:

ـ لماذا يضربني الناس وأنا لم أُلحق بهم أيّ أذى؟

ـ لا أدري، ربّما لا يعجبهم شكلك؛ أو أنت مستفزّ بنظراتك، بتصرُّفاتك، تثيرهم ليؤذوك. وقد لا يكون هناك أيّ سبب وجيه لفعل ذلك.

ـ لست شخصًا سيِّئًا، أنت تعرف.

أوقفت النزف وأخذت حمّامًا ساخنًا. عندما خرجت، كان محمود لا يزال مستيقظًا، فاقترحت عليه أن نلعب الشطرنج. كنت أحتاج إلى جرعة من التأنّي والتأمُّل، بعد الأيّام الأخيرة المليئة بالاندفاع؛ قليل من التفرُّد؛ قليل من الهدوء؛ قليل من تركيز الذهن. أخذت برصٍّ القطع السوداء، ونقلها قطعة بعد أخرى داخل الرقعة الضيِّقة. لم أكن لاعبًا ماهرًا، شديد الذكاء، ولم أطمح إلى الفوز بأيِّ بطولة.

ـ كلّ ما أحتاج إليه هو الحبّ. لا المال، ولا الشهرة، ولا أيُّ شيء آخر قذر. ما أحتاج إليه قليل من الحبّ.

ـ ألم تقل لي إنَّك لم تعد تؤمن بالمثاليّات؟

ـ أنا أتحدَّث عن الموادّ الخامّ لتأثيث عالم صحّيّ؛ عن أساسات حياة جيِّدة.

ـ هذا ما تسعى إليه؟ حياة جيِّدة؟ لكن انظرْ إلى أسلوب حياتك، إنَّه أشبه بحياة متشرِّد مُصاب بنصف أمراض الدنيا وهمومها.

تحدَّثنا حتى بدت عليه علامات التعب والضجر، فأحضر لي مخدَّة وأغطية، ونمت على الأريكة في الصالون. استيقظت في أثناء الليل أكثر من مرَّة. كانت حرارتي مرتفعة، وجسدي يرشح عرقًا غزيرًا، فتوجَّهت أخيرًا إلى النافذة ونظرت إلى الخارج. كان الليل كثيفًا وصامتًا، ليلة خرساء على نحو يثير الريب. توجَّهت إلى المطبخ لأنّي كنت ظمآنَ، وشربت من الحنفيَّة مباشرة، ثم عدت إلى الصالون الذي كان معتمًا، باستثناء ضوء شحيح تسلَّل من الشارع. فتَّشت مكتبة محمود، وبدأت بتقليب الكتب وقراءة العناوين: سياسة؛ روايات؛ علم

نفس؛ تاريخ. حملت رواية «الجبل السحريّ» لتوماس مان، وأخذت بتقليب صفحاتها، ليبدأ العالم من حولي بالتبخُّر.

في الصباح، أجريت بعض التمرينات الرياضيَّة ثم أخذت حمّامًا. جلست على الشرفة وأخذت أستمع إلى هايدن، متذكِّرًا ما حدث في الليلة السابقة: مشيًا؛ عراكًا؛ دمًا؛ لعبة شطرنج؛ قراءة رواية توماس مان. أخرجت الموبايل، واتّصلت بدينا.

ـ صباح الخير.

ـ يبدو صوتك ضعيفًا، ما الذي حدث؟

ـ عراك جديد.

ـ يا إلٰهي! ألن تتوقّف عن فعل ذلك؟

ـ أحاول الابتعاد عن المشاكل والعيشَ حياة هادئة، نتزوَّج وننجب الكثير من القرود والقطط اللطيفة، لكنَّ المشاكل تنجذب إليّ بصورة لا أفهمها.

سمعت صوت ضحكها، وبدا صافيًا وعالي النبرة.

ـ تريد أن ننجب قرودًا وقطّا جميلة؟

ـ أقصد أطفالًا مشاغبين، سيِّئي السمعة، لا يتركون أهل الحيّ في حال سبيلهم.

ـ يبدو أنَّ مزاجك رائق هذا الصباح.

ـ أبدًا، صداع رهيب. لم أنم جيِّدًا ليلة أمس.

ـ صحيح، هل سمعت بما حدث؟

وأخذ قلبي يرتجف. كنت أشعر بالدوار والغثيان. خفت ممَّا ستقوله لأنّي لم أكن قادرًا على تحمُّل المزيد من المصائب.

ـ ليلة البارحة اقتحم الاحتلال بيرزيت، وحاصر عمارتك السكنيَّة، يُقال إنَّها كتيبة كاملة من الجنود. فتَّشوا غرفتك والغرف الأخرى في الطابق نفسه. بعد أن أنزلوا الطلّاب إلى الخارج وأبقوهم واقفين طوال الليل، أخذوا بالتحقيق معهم واحدًا تلو الآخر.

ـ ماذا سألوهم؟ هل ثمَّة شخص معيَّن يبحثون عنه؟

ـ نعم، يبدو أنّه منفِّذ العمليّة التي قُتل فيها عدد كبير من الجنود قبل أسابيع.

أخذتُ نَفَسًا عميقًا، وحاولت السيطرة على أعصابي. صمتُّ وأنا أفكِّر في كلِّ كلمة تفوَّهَتْ بها، تملَّكني شعور بأنَّهم يبحثون عنّي. أغلقت الموبايل، وصمتُّ طويلًا. ضغطتُ صدغَيَّ مفكِّرًا في الأمر. نظرت إلى يدي التي كانت غارقة في الدم، في ذلك الصباح، حين استيقظت لأجد مسدَّسًا، لا أعرف كيف، ومن أين وصل إليَّ. كيف نفَّذت العمليَّة، وأنا فاقد للوعي؟ والآن، كلّ ما أعرفه أنّني لم أقتل أحدًا، ولست من قام بالعمليَّة.

هل قتلته في الحلم؟ كنتُ هنا وكنت هناك، في مكانين مختلفين! يظلّ هذا الكلام مجرَّد هراء، ولا يوجد عاقل في وسعه أن يصدِّق هذه الترُّهات. إنَّها تصلح لأن تكون فقط في رواية خيال علميّ، ولكن ليس في الواقع.

هذا أمر لا يمكن أن يحدث في هذا العالم. هذا كلّ ما دار في رأسي. ولكن، كيف لي أن أقنع إسرائيل إذا كان لديها أدلَّة دامغة على

تورُّطي؟ هل أقول للإسرائيليين إنَّني نفَّذت كلّ شيء وأنا نائم في سريري، وإنَّه الحلم الذي خطَّط ونفَّذ. فكَّرت في الهروب والاختباء في كهف أو بئر أو بيت قديم، كما يفعل المطارَدون، غير أنِّي خرجت إلى الشارع لأتمشَّى. كان صباحًا هادئًا والسماء صافية، والأشجار ساكنة فلا تكاد تمرّ بها نسمةُ هواء واحدة. عدت إلى سكني. وجدت الباب محطَّمًا، وليس ثمَّة شيء في مكانه. أغلقت ستائر الغرفة. كنت لا أزال أشعر بالتعب، فزحفت نحو السرير ونمت من جديد.

(17)

في صباح اليوم التالي، أعددت فطورًا خفيفًا. خفقت بيضتين وحضَّرت سَلَطة وزيتًا وزعترًا، ثم استمعت إلى فيروز. جلست على الأريكة وأغمضت عينيَّ، وأخذت أتخيَّل كوخًا على جزيرة غير مكتشَفة، مليئًا بالكتب وأقراص DVD لمشاهدة الأفلام، أعيش فيه مع دينا. ننزل في الصباح إلى البحر لنصطاد الأسماك، وبعد الظهر ندخل المطبخ لأحضِّر طبق المعكرونة الإيطاليَّة الماهر في صناعته، ثم نجلس لنقرأ ونرقص حتى المساء، حينها نخرج إلى الحديقة لنلعب لعبة الأضواء. وبما أنَّه لا يوجد مدن أو بلدات، فإنَّنا سنكتفي بما في السماء من نجوم وشهب.

أنهض، أبدِّل ملابسي وأخرج لأمارس رياضة الجري. لم أكن أعلم بأنَّ لديَّ هذه القدرة على محادثة الطيور. فصيلة البوم على وجه التحديد، وجدتها ذكيَّة ولطيفة، بعيدًا عن تلفيقات البشر؛ هؤلاء الذين ينسبون الشرَّ إلى غيرهم من الحيوانات. كيف في وسع هذا الطائر

الخجول أن يجلب الشؤم والدمار إلى العالم؟ إنَّه ليس أكثر من طائر صامت وهادئ، يخرج في طلعات ليليَّة ليصطاد. هكذا كنت أقول لنفسي في كلِّ مرَّة أرى فيها البومة.

لا تكاد تفارقني. أراها على سطوح البنايات، وفي الشرفات، وفوق أعمدة الكهرباء. أجدها تسبقني كأنَّها تعرف الأمكنة التي سأذهب إليها. بدا لي أنَّها تملك أجهزة تنصُّت عالية الكفاءة، تمكِّنها من معرفة ما يدور في رأسي. زرعت البومة شبكة تجسُّس كاملة في دماغي، فأصبحت قادرة على التقاط موجات تفكيري. هذه الفكرة أخافتني، فماذا لو كانت تعمل لحساب جهاز مخابرات أجنبيّ أو أيِّ جهاز أمنيٍّ آخر؟ ماذا لو كانت تبعث إليه تقارير يوميَّة؟ صحيح أنَّني لم أقم بأيِّ عمل خطير، لكنَّ الناس في هذه الأيّام تدخل السجون وتموت جرّاء التعذيب، من دون أيِّ سبب أو تهمة.

هذه البومة لا تبدو شرِّيرة، ولا أدري لماذا لم أحظَ بفرصة محادثتها إلَّا في مرّات قليلة. تكتفي بالتحديق من بعيد، من دون أن تبادر بقول أيِّ شيء. وحين أحاول فتح حديثٍ معها، تظلّ جامدة من دون أن ترفع عينيها عنِّي. وخلال المحادثات القليلة، تمكَّنت من فهم طريقة كلامها، فهي تنطق بكلمات غير مترابطة، لكنَّها عميقة ومشحونة بالدلالات، ولا تشبه طريقة كلام البشر. في المرَّة الأخيرة، كانت البومة تقف فوق صخرة إلى جانب الشارع، وكنت أبتعد عنها نحو خمسة أمتار. مرَّت نصف ساعة وأنا أحاول أن ألتقط كلماتها التي بدت من دون معنى. كانت تترنَّح وتفقد توازنها، فتسقط على الأرض، لكنَّها تقفز من جديد لتعود إلى مكانها بحركة رشيقة. بدت لي سكرى بعد أن أفرغت كمِّيَّة هائلة من الكحول في عروقها، أو أنَّها تعاطت

صنفًا قويًّا من المخدِّرات.

ـ لقد بعثوني لأحذِّرك.

ـ مَن هؤلاء؟

ـ ليس لديهم أسماء.

ـ أين يعيشون؟

ـ في المستقبل.

ـ لم أفهم!

ـ إنَّهم الذين خطّطوا لتلك العمليّة. بعد أن اقتحموا أحد أحلامك، دفعوك إلى المستوطنة لقتل الجنود، وكانوا يشرفون على عملك عبر غرفة عمليَّات تقع في عالمهم.

ـ آخرون في عالم آخر يتحكَّمون في أُناس من هذا العالم، ويدفعونهم إلى تنفيذ خططهم المرسومة سلفًا!

ـ وفي الطرف الآخر، ثمَّة أُناس متوحِّشون ولا يعرفون الرحمة. أمَّا هؤلاء الذين على اتِّصالٍ معك، فهم صالحون، وأنا واحدة من جنودهم.

ـ عفوًا أيَّتها البومة، لكنِّي شابٌّ عاديّ، لا أملك أيّ شيء مميَّز أو خارق للعادة.

ـ الناس في ذلك العالم حكماء، بالتأكيد لم يختاروك عبثًا. لقد رأوا فيك ما لا تراه أنت.

مع مرور الوقت، بدأت البومة تتخلَّص من سكرتها وهذيانها،

لتعود كما عرفتها في المرّات السابقة، حكيمة مع حفاظها على الغموض. صارت عباراتها أكثر انتظامًا وأقلّ أخطاءً في اللغة.

ـ هل هناك طيور شرِّيرة تقف مع الطرف الآخر؟

ـ نعم، الغربان. لذلك تجدني حذرة أغلب الوقت.

ـ وكيف علاقتكم أنتم البوم بجماعة الغربان؟

ـ فترات من الحرب والسلام. في أثناء الحرب العالميَّة الثانية، وقعت حرب بين البوم والغربان لم يعرف بها العالم، لأنَّه كان مشغولًا بإحصاء ضحاياه من البشر. وكما كانت حرب البشر همجيَّة ودمويَّة، كذلك كانت حرب البوم والغربان. لقد سقط عشرات آلاف الضحايا من فصيلتي الطيور في جميع أرجاء العالم.

ـ وكيف هي علاقة الغربان بالبشر؟

ـ كلانا نمثِّل الشؤم والنحس بالنسبة إلى البشر الذين يكنُّون لنا كرهًا تاريخيًّا، يمتدّ إلى قرون طويلة، من دون سبب واضح، غير أنَّ لدينا بعض التصرُّفات الغريبة، وربّما أشكالنا وأصواتنا مختلفة. هل الاختلاف عن الآخرين يمثِّل تهديدًا لهم؟ بقيت أفكِّر في هذا الأمر طوال الوقت. الغربان محايدة في علاقتها بالبشر، وغيرُ ودودة معهم، في طبيعة الحال.

ـ من أين عرفتِ بأخبار هذه الحرب؟

ـ من كبار البوم؛ الأجدادِ الذين ما زالوا يتذكَّرون الموت والخراب الذي لحق بشعبهم، إنَّهم يورِّثون أيضًا الحكايات. لقد أسَّسوا هيئة لحفظ السلام ووقَّعوا على معاهدات لمنع أيِّ نزاع

مستقبليّ، كما يقومون بتوعية الأجيال الناشئة بشأن عبثيَّة الحرب ودمويَّتها. إنَّ الطيور تتعلَّم من أخطائها بسرعة.

ـ والبشر؟

ـ إنَّهم أغبياء ومغرورن، يعتقدون أنَّهم مركز هذا الكون. الحقيقة أنَّ لا مركز. إنَّ الحياة تتغذَّى على الهوامش.

وكرَّرت عبارتها الأخيرة: **إنَّ الحياة تتغذَّى على الهوامش**. كان إيقاعها جميلًا، من النوع الذي ترغب في سماعه أكثرَ من مرَّة. كانت زاخرة بالبياضات ومفتوحة على التأويل، تدفئ القلب، وفي الوقت نفسه موحشة وتبعث على الألم.

ما هذا اللغز المحيِّر الذي أعجز عن حلِّه! أنا إنسان ليس على علاقة جيِّدة بالمنطق، لكن هذا لا يعني أنِّي أفهم هذه الأشياء المجنونة. ليست لديَّ العبقريَّة التي تمكِّنني من فهم أحاجي هذا العالم الغرائبيّ. شعرت بأنِّي داخل متاهة، ولا يوجد يد واحدة تنتزعني من عمق الضياع. بدت لي مأساة طريفة. لا أذكر أنَّ رأسي ارتطم بجذع شجرة، أو غرقتُ في بحر غامض ومنسيٍّ، أو وقعت في حفرة تعود إلى الحرب العالميَّة الثانية، ليتغيَّر نظامي الداخليّ وأجدني في هذه الدوّامة من الأحداث، فأغدو قادرًا على محادثة البوم، وتنفيذ خطط أُناس من عالم آخر.

قفزت البومة عن الصخرة، وأخذت تتمشَّى على الرصيف كأنَّها عارضة أزياء، ثم نفشت ريشها ورفعت رأسها. لا أدري لماذا تذكَّرت طلّاب الثانويَّة، وخصوصًا بنت الجيران التي كانت تدرس على سطح بيتها، فتعرف كلّ القرية بمواعيد دراستها، فيأخذ الشبّان بالنظر إليها

من بعيد، وهي تفتح كتابها على الصفحة نفسها طوال ساعات، غير قادرة على التركيز بسبب الابتسامات التي تربكها على الرَّغم من بعد المسافة. راحت البومة تتحدَّث بسرعة، كأنَّها تستخدم لغة غير بشريَّة. حاولتُ أن أقاطعها لأفهم عمَّا تتحدَّث.

«توقَّفي، بماذا تهذين أيَّتها المعتوهة؟»

لكنَّها استمرَّت غير مكترثة لي. بعد خمس دقائق من هذا الدوران حول نفسها، والهذيان المتواصل من دون توقُّف، صاحت بأعلى صوتها: اذهب من هنا، انصرف على الفور. كانت غاضبة، احمرَّت عيناها، وأخذ رأسها يعلو ويهبط مثل المطرقة.

يبدو أنَّ البوم لطيف وهادئ، لكنَّه قد يتحوَّل إلى مخلوقات تافهة ومغرورة. في كلِّ حال، ليس لديّ معرفة كبيرة بعالم البوم. رأيته في أفلام الكرتون ولوحات الفنّانين، وقرأت عنه في كتب تتحدَّث عن أساطير الشعوب القديمة وخرافاتها. وهي طيور منطوية على نفسها، تحبّ العزلة والعيش في الخرائب والغابات والمناطق البعيدة عن تجمُّعات البشر. فمن أين جاءت هذه البومة اللعينة بكلِّ هذه المعلومات؟ وكيف لها أن تتحدَّث؟ هل هي مجرَّد أوهام؟ الحلم، المسدَّس؛ جنود قتلى في مستوطنة؛ أُناس من عالم آخر؛ خطط مُحْكمة للقضاء على الشرِّ في هذا العالم؛ بومة تعمل مخبرة لدى جهاز مخابرات أجنبيّ، ماذا بقي أيضًا؟

فجأة، رأيت غرابًا يحطُّ على السور الإسمنتيّ في آخر الشارع، وعندما لاحظته البومة تقلَّصت وانكمشت على نفسها. كانت ترتعش في حين شرع الغراب يحدِّق نحونا بعينيه الكبيرتين. نظراته الحادَّة تراقب

تحرُّكاتنا بدقّة. اختبأت البومة خلف الصخرة. حينما أخذ الغراب ينعق أكثر من مرَّة، خُيِّل إليَّ أنَّه وجَّه إليها تهديدًا أو وعيدًا ما، هذا ما استطعت التكهُّن به. بعد دقيقة من الهبوط، بسط الغراب جناحيه وطار في اتِّجاه الغرب. وعندما نظرت إلى الصخرة، كانت البومة قد اختفت.

(18)

قرَّرت أن أمضي يومي في مكتبة رام الله. هذا أفضل شيء يمكن فعله: أن أبدِّد الوقت بين رفوف الكتب. صحيح أنَّها صغيرة جدًّا، لكنَّها تبقى مكانًا جيِّدًا للعزلة والقراءة، ولا أحد يزعجني فيها. أختار كتابًا، ثم أجلس إلى إحدى الطاولات. هذه المرَّة، قطعت خلوتي فتاةٌ تجلس إلى الطاولة المقابلة، سألتني من دون مقدِّمات:

ـ ماذا تقرأ؟

ـ أقرأ فرويد.

ـ هل هو شاعر؟

ـ إنَّه عالِم نفس.

ـ أنا طالبة مدرسة، وقد تغيَّبت اليوم لأنَّ مزاجي غير رائق للدراسة.

كانت الفتاة متوسِّطة الجمال، ووجهها غير متناسق، لكنَّه من تلك

الوجوه التي ليس في وسع المرء إلّا أن يتذكّرها. قوامها رشيق، ولديها صدر امرأة ناضجة. ترتدي كنزة خفيفة، وتضع شالًا بنّيًا حول رقبتها، وتحمل في يدها ديوان شعر لمحمود درويش، وأمامها دفترٌ أزرق اللون، تسجّل فيه بعض الاقتباسات والملاحظات.

ـ في وسعكِ المطالعة بعد الدوام.

ـ أقرأ حينما يعجبني. تدرس في الجامعة، صحيح؟

ـ لا، لقد تخرّجت.

ـ هل تحبّ القراءة؟

وعندما لا أُجيبها، تتوقّف عن الأسئلة، وتعود إلى كتابها. بعد لحظات، ترفع رأسها وتنظر نحوي وهي مقطّبةٌ حاجبيها. لم تكن غاضبة، وإنّما كانت تتأمّل في شيء بعيد. فجأة ابتسمت، وحين التقت نظراتنا، أدارت وجهها من الخجل.

ـ يبدو لي أنّك صامت أغلبَ الوقت.

ـ لا يوجد شيء يستحقّ الكلام.

هزّت رأسها قائلة: هل ترى أنّ الحديث معي لا يستحقّ؟

ـ آسف، لم أقصد.

شعرتُ بالضيق، بل أكثر من ذلك. تكوّن في داخلي كرهٌ تجاه هذه الفتاة، فحملت كتابي وذهبت لأجلس في القسم الآخر من المكتبة، من دون أن أودّعها أو أقول لها أيّ كلمة. يبدو أنّها انزعجت هي الأخرى، فحملت حقيبتها، واستعارت بعض الكتب، ثم خرجت.

بعد ساعة من القراءة، أسندت رأسي إلى الطاولة وغفوت. كان

تنفُّسي هادئًا، ودقَّات قلبي منتظمة. عندما استيقظت، أخذت أتمطَّى وأفرك عينيَّ، ثم ذهبت حيث كانت تجلس الفتاة فلم أجدها. لاحظت كتابًا بغلاف يحمل صورة غراب. قرأت العنوان «موت الغربان»: رواية لكاتب أجنبي لا أتذكَّر اسمه. قمت بجولة أخيرة بين رفوف الكتب، وعندما شعرت بالضجر، ذهبت إلى ثلَّاجة الماء في الزاوية لأشرب، ثم خرجت.

بعد أن اجتزت الباب توقَّفت، لفَّني الصمت وتجمَّد الدم في عروقي. بدأ قلبي يدقّ بسرعة من الخوف، كان منظرًا صادمًا. رأيت البومة ساكنة على الأرض. كان واضحًا أنَّها ماتت. جسدها ينزف دمًا وريشها متناثر حولها. ضوء الشمس يتدفَّق على الساحة، بينما يغرق المكان في صمت مطبق. نظرت إلى البومة مذهولًا، لا أدري ما عليَّ فعله. في أثناء ذلك، زحفت عتمة غطَّت جسد البومة، ثم أخذت تتَّسع بشكل دائريّ. كانت دائرة العتمة تتَّسع، وفي غضون أقلّ من دقيقة، كان الحيّ بالكامل غارقًا في الظلام. عندما رفعت رأسي إلى السماء، رأيت أعدادًا هائلة من الطيور السود تحلِّق فيما يشبه الدوّامة، سماء تزدحم بهذه الطيور حتى حجبت أجسادُها وأجنحتها ضوءَ الشمس.

فجأة، سقطت الطيور من السماء. كان الأمر شبيهًا بتساقط المطر. أحدث السقوط دويًّا مرعبًا، وغطَّت الغربان الأرض. كانت تنتفض وهي تلفظ أنفاسها الأخيرة. وعندما قرَّرت الخروج من الحيِّ، توجَّب عليَّ أن أدوس عليها. كنت أسمع عظامها وهي تنسحق تحت قدمَيَّ، فيثير صوتها في نفسي مشاعرَ التقزُّز والخوف. وجدت الشارع مرصوفًا بالغربان الميِّتة. مشيت في اتِّجاه دُوّار الساعة، وعندما أصبح الشارع مستويًا، رأيت أجساد الغربان تمتدّ حتى آخره. عمَّت حالة من

الفوضى والهلع، ارتفع الصراخ، وهرع الناس إلى داخل المجمَّعات التجاريَّة موصدين خلفهم الأبوابَ. توقَّفت السيّارات عن الحركة وهرب أصحابها. كان من الأفضل أن يبقوا داخل سيّاراتهم، إلَّا أنَّ الخوف شلَّ عقولهم.

طوَّقت الشرطة المناطق التي تساقطت فيها الغربان، وتدفَّقت سيّارات الإسعاف والدفاع المدني، وجيش من الصحافيِّين. استطعت الخروج من الدائرة اللعينة وتجاوز آخر غراب ميِّت على الأرض. بدا لي أنَّني كنت في الجحيم: دماء؛ ريش متطاير؛ أشلاء؛ عيون مفقوءة. انتشرت الشائعات في المدينة، فدبَّ الذعر بين السكّان، وخرج المتحدِّث باسم الحكومة، لتهدئة الناس. قال إنَّ كلَّ شيء تحت السيطرة، ولا يوجد أيّ ضحايا، ولكن لا يوجد أيّ تفسير لما حدث. كما أشار إلى أنَّ الحكومة على تواصل مع أكاديميين وخبراء، لمعرفة أسباب تساقط هذه الأعداد الهائلة من الغربان على وسط المدينة، والتي تقدِّر الجهات المختصَّة أنَّ عددها أكثر من عشرين ألف طائر نافق.

وزارتا الزراعة والصحَّة ومصلحة الأرصاد الجوِّيَّة، أصدرت بيانات بخصوص الحادثة، وكانت كلّها متشابهة، من دون إعطاء أيِّ تفسير علميٍّ وعقلانيٍّ لما حدث.

بعدما التقطتُ أنفاسي، تذكَّرت البومة الميِّتة عند باب المكتبة. لا بدَّ من أنَّ لها علاقة بحادثة موت الغربان. في المرَّة الأخيرة، اختبأت من غراب غريب، كان يراقبنا من بعيد، وقد قالت لي يومها إنَّ البوم والغربان ليسوا على وِفاق. كأنَّها نبوءة. لمعت في ذهني صورة الكتاب

الذي كانت تقرأ فيه الفتاة، «موت الغربان». أيكون وجود الفتاة ومعها كتابٌ يحمل هذا العنوان مجرَّدَ صدفة؟ أم أنَّ ثمَّة علاقة لا أفهمها، تربط بينها وبين كتابها والبومة والغربان؟

حضرت سيّارات جمع القمامة، وقام عمّال النظافة بتنظيف المناطق التي سقطت فيها الطيور. استعانت البلديَّة بشركات التنظيف، وفحصت بعض الطيور للتأكُّد من عدم حملها أيَّ عدوى. طلبت الحكومة مساعدة منظَّمة الصحّة العالميَّة وجامعة الدول العربيَّة، وبعثت بعض الدول بِفِرَق طبِّيّة وخبراء. سارع الناس إلى الاتِّصال بالشرطة، عند رؤية طائر ميِّت على الأرض، وانتظروا سقوط أيّ طائر محلِّق في السماء. أصبحت مشاهدة الطيور وانتظار سقوطها، هَوَسًا جماعيًّا لدى المواطنين.

تابعت مع دينا نشرات الأخبار والفيسبوك الذي فاض بصور وفيديوهات عن الحادثة. الجميع حاول إعطاء تفسير لما حدث، لكن لا إجابة مقنعة، وكلّ الأحاديث عائمة في الهواء، من دون أن تستند إلى أدلَّة أو إثباتات.

«ما تفسيرك لما حدث؟» سألتني دينا.

ـ لا أعلم. لديَّ شعور بأنَّني أكثر شخص في العالم لديه علاقة بما حدث، وقد يكون لديَّ الإجابة. ربَّما بحسب معايير العالَم الآخر، لم أنضج بما فيه الكفاية.

ـ قد يبدو حديثنا مضحكًا وساذجًا لأغلب الناس. مَن سيصدِّق أنَّ ثمَّة تداخلًا بين العوالم، وقد بدأت بعض الظواهر الغريبة بالتسرُّب إلى عالمنا؟

ـ سيصدِّقون مع مرور الوقت، حينما تصبح هذه الظواهر عاديَّة وشبه يوميَّة. أنا أيضًا لم أكن أصدِّق. تذكرين حديثك عن الصخرة في حديقة الاستقلال، ورحلتنا إلى ذلك الجبل في بيرزيت؟ كنت أعتقد أنَّك تمزحين، وتمارسين إحدى ألاعيبك، غير أنِّي اليوم في خضمّ اللعبة.

كانت دينا تحمل كوب شاي في يدها، وضعته إلى جانبها. بدت غارقة في التفكير في الأسئلة التي تؤرِّقنا، وأخذت هذه الأفكار تتحوَّل إلى كلمات. قالت بنبرة ثابتة الإيقاع:

ـ حتى الآن، لم يحدث أمر فظيع. صحيح أنَّه سقط بعض الضحايا، لكن لم تقع كارثة لنشعر بالقلق.

أومأتُ برأسي. صمتُّ طويلًا وأنا أقلِّب الأمر في فكري، ونظرت إلى مدينة رام الله، لا شيء فيها يَلفت النظر من بعيد. برجان يعكس زجاجهما أشعَّة الشمس وسط بنايات إسمنتيَّة، تبدو متراصَّة مثل قطع الليغو. نظرت إليها، رفعت خصلات شعرها عن جبهتها، فرأيت مسحة من الخوف في عينيها. أمسكت بيدها قائلًا:

ـ لا تقلقي، سيكون كلّ شيء على ما يرام.

ـ أخاف أن يُصيبك مكروه.

ـ لماذا تقولين هذا الكلام؟

لم تُجِبْ.

ـ سننجب طفلة تشبهك.

قلت لها ممازحًا، فرأيت طيف ابتسامة على شفتيها. ذهبنا إلى

مطعم قريب، واشترينا سندويشتي فلافل. كانت الشمس قد غابت وحلَّ الظلام. خرج طلّاب جامعة بيرزيت كعادتهم للتسكُّع في الطرقات. بعد أن ضجرنا من المشي، ذهب كلّ واحدٍ منّا إلى سكنه. عدت إلى غرفتي، وما إن دخلت حتى فتحت الستائر. تسرَّب الضوء إلى الداخل. كنت هادئًا، وتمنَّيت ألَّا تكون ثمَّة مفاجآت. يكفي! قلت لنفسي: الأمر زاد عن حدِّه. ذهني مشوّش، متعَب، وكلّ ما أحتاج إليه هو النوم. أصبحت أشعر بالإرهاق أغلب الوقت، فأجدني مدفوعًا نحو السرير.

أطفأت المصباح، وانسللت تحت الغطاء، أغمضت عينيَّ وحاولت النوم، لكنّي أخذت بالتفكير. عبثًا ذهبت كلّ محاولاتي للنوم. سمعت أصواتًا غريبة في الخارج؛ أصوات كائنات لا تخرج إلَّا في العتمة. شعرت بها تتّجه نحو غرفتي، تصعد الدرج، وتنسلّ من تحت الباب، وما إن تجتازه حتى تعود إلى حجمها الطبيعيّ.

رأيت الغربان السود في شوارع رام الله. تخيَّلتها تنهض من موتها، لتتحوَّل إلى طيور متوحِّشة، تهاجم الناس بمناقيرها ومخالبها الحادَّة. تفتح جماجمهم وتتغذّى على أدمغتهم. تبقر الأحشاء وتأكل الأكباد. أُغمض عينيّ في محاولة أخيرة. أفرِّغ ذهني من هذه الهواجس والخيالات. أسمع موسيقى عذبة تأتي من بعيد، تتسرَّب إلى الروح. أشعر بنوع من الخدر اللذيذ، فأنام فجأة.

(19)

مساء يوم أحد، ذهبنا للتنزُّه في وسط رام الله. كانت شوارع المدينة مزدحمة بالناس. اشتممت رائحة دجاج البروستد والشاورما من المطاعم الموزَّعة على جانبي الطريق. تنزَّهنا، ثم ذهبنا إلى محلّ بيتزا ومعجَّنات. أنهينا طعامنا، وخرجنا صامتَين.

في الطريق، كنت أستمع إليها، وأفكِّر فيها، مندهشًا من قدرتها على ترتيب الأحداث، ولصق الحكايات بالبيوت والشوارع. كانت تشير إلى أحد المارَّة وتقول إنَّه يلبس ربطة عنق، لأنَّه ببساطة تملَّق لمديره في العمل؛ ثم تشير إلى أحد المطاعم الفارهة، وتقول إنَّ صاحبه لا بدَّ من أنَّه باع نفسه بأبخس الأثمان، أو أنَّه يعمل في السوق السوداء، وهذه السيَّارة اشتراها صاحبها بعد أن احتال على الفقراء.

ثم ذهبنا إلى إحدى الحدائق، وعلى أحد المقاعد تحدَّثنا وتناولنا القهوة. قالت لي إنَّها اشتاقت إلى غرفتها في نابلس، وأخبرتني بأنَّ

الغرفة ليست أكثر من مخزن، أصلحته وحوَّلته إلى «أجمل مكان في الدنيا»، لقد استخدمت هذه العبارة بالضبط، ثم أخرجت آيفونها من الحقيبة، وأرتني صورة غرفتها للمرَّة العاشرة.

كانت الغرفة بسيطة وعلى قدر كبير من الجمال: رسوم؛ تحف فنِّيَّة؛ عُود؛ كتب؛ تطريز؛ مذياع قديم؛ برج إيفل من كرتون مقوًّى؛ أهرامات صغيرة؛ زجاجات عطر؛ جملتها المفضَّلة مكتوبة بخطِّ اليد؛ صور كتّاب. قلت لها صادقًا: إنّها تشبهك.

وأضفت: إذا كان هناك إنسان في العالم يحلم بأن يمرّ بغرفتك فهو أنا. أشتهي أن أجلس على سريرك للحظات، وأضمّ مخدَّتك إلى صدري؛ أن أبحث عن رائحتك في كلِّ الأشياء البسيطة التي تحيط بك. ألم أقل لك إنّ الحبّ هو شغفنا بالتفاصيل الصغيرة؟

استمتعنا بوقتنا كالعادة. وفي نهاية اللقاء، أمسكت يدها وقرَّبتها نحوي. على الرَّغم من احتياطاتنا، والتوجُّس الذي كان يفصل بين جسدينا في الأماكن العامَّة، فإنَّ وضعنا كان مشبوهًا للآخرين. اقتربنا أكثر من اللازم، والعيون فضحتنا. يبدو أنّ أحد أقاربها كان في المكان، فأخبر عائلتها. في اليوم التالي، جاءت سيّارة ووقفت عند باب سكنها، ثم دُفِعت بالقوَّة إلى داخلها. انقطعت أخبارها عنِّي، ولم أستطع التواصل معها، إذ كان هاتفها مغلقًا على الدوام.

تخيَّلتها ووالدها يطرق على الباب بقوَّة وفي يده سكِّين، وقد تجمَّع الجيران وأهل القرية، ليمنعوه من ذبح ابنته. والدها يصرُّ على ذبحها كالشاة ليغسل العار، مُعلنًا أنَّه لا يُرجع الشرفَ غيرُ الدم. بعدها أشارت عليهم الجدَّة بأن يُخضعوا دينا لاختبار العذريَّة،

فأحضروا القابلة ومعها مجموعة من النساء، اللائي أجبرنها على التمدُّد فوق لحاف السرير وهي ترتجف، ثم أمسكنها وفتحنَ فخذيها، بعد أن خلعن ملابسها. في هذه الأثناء، اجتمعت القرية برجالها ونسائها أمام البيت، وسمعوا صراخ دينا وهي تصرُّ على أنَّها بريئة ومظلومة.

تماديت في تخيُّلاتي: سمعت الزغاريد تتصاعد من نوافذ البيت، مخترقةً صمتَ الليل، واستبشرتِ الوجوهُ فأوصى الوالد بالحلوى. ثم أحضر المأذون وعقد قرانها على ابن عمِّها، وهي غارقة في دموعها وخيبتها. هكذا نام الناس مرتاحي البال، بعد أن تخلّصوا من جيفة البنت.

طوال غيابها وأنا أقلِّب صورها. أجلس وحيدًا لأفكِّر فيها، وأتذكَّرها في مشاهد: نجلس في شارع معتم، ليعضَّ كلٌّ منَّا أصابع الآخر من دون رحمة؛ نلتقط لأنفسنا صُوَر «السيلفي» في احتفالات رأس السنة وسط رام الله؛ رائحة شعرها الطازجة، وسخونة جسدها؛ صوتها حين كان يخترق صمت الباص العموميّ، فيطيِّر عقلي وتزداد نبضات قلبي؛ لحظات تأمُّلي أظافرَها، و«رُوجَها» الجديد، وعينيها المرسومة حدودهما بقلم الكحل.

الذكريات عُلَب مكدَّسة بعضها فوق بعض: علبة للرائحة؛ علبة للمسات؛ علبة للكلمات والوعود؛ علبة للنظرات؛ علبة للقبلات. تذكَّرت لحظات غضبها، حين كانت تشرب القهوة في جرعة واحدة، ثم تظلّ صامتة حتى يُخيَّل إليَّ أنَّها لن تتكلَّم بعدها. تذكَّرت الكتب التي كانت تنام في حجرها، وبكاءها المباغت الذي لا تُعرَف أسبابُه،

لكنّه يكون صادقًا من القلب. تذكّرت الفستان الأحمر، المكشوف الكتفين، والذي حملتْ تصاميمه إلى إحدى خيّاطات القرية.

لقد اعتدتها وأدمنت وجودها. أمّا وقد رحلت، فلا طعم للسجائر أو شاي الصباح أو قهوة ما بعد الظهيرة. لم أتخيّل أنّي سأتعلّق بها إلى تلك الدرجة، وأقع في حبِّ فتاة مثلها، غريبة الأطوار، مجنونة، تعشق قصص المخابرات وحكومات العالم الخفيّ.

تعوّدتها، وفي غيابها وجدتني في غيبوبة طويلة؛ رأيتُني مهزومًا ووحيدًا، والنسيان عزاء الفاقدين. سنوات وهي تكبر أمام عينيّ، تنضج، تصبح أشهى بعثراتها ومشاكساتها في عالمها الصغير. لو أنّها مجرَّد شخصيّة خياليّة، أتخيّلها، وأكتبها على الورق، لحوَّرتُ الأحداث بجرَّة قلم بسيطة. لكنّها حقيقيّة من لحم ودم.

ربطتُ جرحي بوجعها، لأكتب أُولى مسودّاتي عن العالم، فكانت حصَّتُها من الضحك الجيِّد، عصافيرَ الحزن في كتبي. الآن، أرغب في أن تكون إلى جانبي، لتخبرني بأنّ كلّ شيء على ما يرام، وأنَّ ما تساقط من شظايا روحي، لم يكن غير أضغاث أوهام.

بعد أيّام، هاتفني والدها، وأخبرني، بطريقة مهذَّبة، بأنَّه يريد مقابلتي. كان قصير القامة، سمينًا، لديه كَرِش كبيرة. قال لي بالحرف الواحد وهو يشير إلى مسدَّسه: الشرف عندنا ثمنه غالٍ، ابتعدْ عن ابنتنا. البنت مخطوبة.

ـ مخطوبة؟

ـ مخطوبة لابن عمِّها، وابن العمّ بينزّل عن الفرس.

كان الأمر جادًّا، فالأب على استعداد لقتلي من أجل سمعة العائلة. تركته يتحدَّث، بينما كنت أرى الأمور كأنَّها في فيلم أو رواية. سأخطفها وأتزوَّجها رغمًا عن أنف عائلتها. ابتسمت وأنا أنظر إليه، فقال لي: أنت مجنون. بعدما ذهب، أخرجت سيجارة ودخَّنتها، ثم بدأت أرسم الخطَّة في رأسي.

(20)

عندما تمكَّنت دينا من الهرب، والتقتني في أحد الشوارع البعيدة عن قريتها، عانقتني ثم أخذت تجهش بالبكاء، وهي تلتفت يَمنةً ويَسرة. كان وجهها أحمرَ، والذعر يفيض في عينيها، وجسدها يرتعش. قالت لاهثة: لقد وعدتني يا نوح، أنا خائفة، لا تؤذِني.

استقللنا الباص العموميّ وتوجّهنا إلى مدينة أريحا. في الطريق، شعرنا بأنَّنا ننزل في بئر عميقة. لم نعد نسمع جيِّدًا، لأنَّ طنينًا أصمَّ آذاننا. وعندما أخذنا ننظر من زجاج النافذة، رأينا الجبال القاحلة البيضاء التي أصابتنا بالكآبة. لا شيء سوى الصخور البيضاء والرمل. الفراغ يُحيط بنا من كلِّ جانب. أخذت حينها بالتفكير في مستقبلنا المجهول.

بعد أن نزلنا من الباص، جاء إلينا شابّ أسمر البشرة، طلب منَّا فكَّة 100 شيقل، وحين لم نعطهِ، أخذ بشتمنا وبصق علينا. كان يبدو مجنونًا، فلم أتشاجر معه. ولأنِّي كنت خائفًا من الشرطة، أنهيت الأمر بسرعة وابتعدنا عن المكان.

في أريحا، ساعدني أحد الأصدقاء على الحصول على مبيت. غرفة صغيرة، ملحَق بها حمّام ومطبخ. في الليلة الأولى، أخبرتني دينا بأحد أعراف العائلة، ووجدته حبلَ المشنقة وطوقَ النجاة في الوقت نفسه، إذ إنَّ عددًا من بنات العائلة، هربن وتزوَّجن بطريقة «الخطيفة»، وكان كبار العائلة يعطون الشابّ والفتاة مهلة أربعين يومًا للاختفاء.

منذ الدقيقة الأولى لاختطاف ابنتهم، يبدأ العدّ التنازليّ، فإمَّا أنَّهما يبقيان في قيد الحياة وإمَّا يموتان. إذا انتهت مدَّة الأربعين يومًا ولم يعثروا على الشابّ والفتاة، كان كبير العائلة يُلقي الأمان على العاشقَين، ويقوم بتزويجهما في عرس كبير، يحضره كلّ أفراد العائلة، فيُعترف بهما زوجًا وزوجة. لكن إن استطاع أبناء العائلة العثور على الهاربَين قبل المدَّة، فقد كان يؤتى بالبنت، فتركع عند قدمي ابن عمِّها، فإمَّا أن يذبحها وإمَّا أن يتزوَّجها. في الوقت الذي يُقتل فيه العاشق ببندقيَّة كبير العائلة، وبرصاصة واحدة في الرأس. العائلة أشبه بدولة داخل دولة، فأفرادها منتشرون في كلِّ المدن والمؤسَّسات، ولديهم شبكة علاقات عنكبوتيَّة.

كان علينا الاختباء وعدم الخروج إلَّا عند الضرورة، كشراء الأطعمة والأدوية وبعض المستلزمات. بعد أن نفدت نقودي، رحت أبحث عن عمل. وجدتُ عملًا في أحد مطاعم المشاوي بالقرب من وسط المدينة، يملكه عجوز في السبعين، وأنا كنت عامله الوحيد. كانت عمليَّة الشواء تحدث في الهواء الطلق، إلَّا أنَّ أسياخ اللحمة تُحضَّر في مكان قَذِر، غير صحّيّ. وحين قلت له: هذا لا يجوز يا معلِّم، سألني غاضبًا: «لماذا أتيتَ؟» فأجبته «أتيت للعمل»، فقال لي «اعملْ وأنت ساكت»، لكنّي لم أسكت ورحت أُلقي على مسمعه،

مجموعةً من الحِكَم والكلمات الرنّانة عن الصدق والأمانة في العمل. فقال لي وهو يلقي نحوي أحد أسياخ اللحمة «انصرفْ من هنا، ولا تَعُدْ».

كنت فريسة لشكوكي ومخاوفي، فقد ظلّت عيناي تراقبان العالم من حولي، متتبِّعًا السيّاراتِ ووجوهَ الناس، أخافهم وأراهم مطارِدين ومخبِرين، وحَذِرًا في التعامل معهم؛ فقد كانت أيّ زلّة لسان كفيلة بأن تورِّطني. استغرقت طوال ليالٍ في خيالات سوداء، وصارعت الأفكار في رأسي. هروب يدمّر الأعصاب ويشرِّع أبواب النفس على الأرق.

ذاتَ يوم ذهبت إلى كشك التلفون لأكلِّم أمّي. كنت مشتاقًا إليها، فأنا لم أسمع صوتها منذ مدّة طويلة. لن أقول لها ما حدث لي، وقد يكون لديها خبر. فربّما ذهبوا إلى البيت، وفضحوني في القرية كلّها. أمسكت سمّاعة الهاتف بيدي اليمنى، قرّبتها من أذني، وطلبت رقم بيتنا. أخذ قلبي يخفق بقوّة. ارتجفت يدي وشعرت ببرودة. تعرَّق جبيني وأنا أنتظر الإجابة التي لم تأتِ. لم تكن المرَّة الأولى التي أتّصل بها. شعرت بأنَّ ثمَّة أمرًا سيِّئًا قد وقع.

طلبت الرقم مرَّة أخرى. وصلني صوت واهنٌ، غيرُ واضح، ومتقطِّعٌ. كان صوتًا أنثويًّا شاحبًا، قادمًا من عمق الفراغ. بعد لحظات، تمكَّنت من معرفة صاحبة الصوت. كانت أختي. أخذت أحدِّق في الخارج، في اللاشيء. وصلتني كلمات مبتورة في فوضى: ألو... أين أنت... أمّي ماتت.

حاولت أن أدَّعي عدم الفهم. حاولت ألّا أسمع؛ أن أغلق سمّاعة الهاتف وأرمي نفسي في بئر الصمت. حدَّقت بعينين مذعورتين،

وبدأت الدموع تسيل على وجنتَيّ. شهقت وبكيت بحرارة. عرفت كلّ شيء، ورحت أتخيَّل أمّي في التابوت. تخيَّلتها في الكفن؛ تخيَّلتها في قبر ضيِّق ومعتم. الأقارب يضعونها في حفرة؛ يغطُّونها برقائق الحجارة؛ يرمون عليها الطين؛ ترتفع كومة التراب؛ يدعون لها بالرحمة؛ يتفرَّقون، ثم لا شيء. أمّي صارت تحت الأرض. يذكرونها بالخير، ويذكرون ابنها العاقّ الذي لم يحضر جنازتها.

«لقد ماتت قبل أسبوع».

لم أرَها قبل أن تموت؛ لم أسمع وصيَّتها؛ لم أحضر جنازتها. أغلقت الهاتف وصمتُّ طويلا. شعرت بالبرد والخوف. عانقت نفسي، ارتبكت، ولم أدرِ ماذا أفعل. أغدو كالأبلهِ أمام الموت. خرجت ومشيت في الشوارع. كانت الرياح عاتية تلوي رؤوس الأشجار. كرهت نفسي. كاد قلبي ينفجر من الحزن، وعدتُ الطفلَ الذي لم يبلغ عامه الأوَّل. حاولت استجماع قواي لصدّ الانهيار، فاسترجعت ذكرياتي معها، وفتَّشت في عمق الذاكرة عن تفاصيلها، لأقوِّي بها نفسي.

انزويت في طرف زقاق معتم بعيدًا عن نظر المشاة، وتقيَّأت حتى كادت تخرج أمعائي. لو أنَّني رأيت أمّي قبل رحيلها، فكَّرت: لو أنَّني سمعت صوتها عبر الهاتف. حاولت إقناع نفسي بأنَّ الموت كان راحتها من المعاناة ورعب الشيخوخة. لقد ارتاحت من أمراض القلب والضغط والمفاصل وغيرها من الأمراض التي أقعدتها من فرط الإنهاك.

كنت نصفَ واعٍ عندما مشيت وحدي في اتِّجاه البيت، ينهشني

الشعور بالندم، مذعورًا من فكرة فقدانها، وأنَّها الآن في عزلة عمياء داخل قبر، تحت طبقات سميكة من التراب. تذكَّرت ما فعله والد رهف في جنازة زوجته، عندما حاول إخراج جسدها من القبر. خطر لي أن أذهب إلى المقبرة لأنبش قبرها. أعانقها وأقبِّلها قبل أن أُعيدها مرَّة أخرى. لا أدري كيف يصبح الجسد بعد أسبوع من الدفن! لا يهمّ، كلُّ ما أريده هو أن أراها.

صُدمت بردَّة فعلي، فقد كنت أتعامل مع الموت بشيء من السخرية واللامبالاة. لم أحضر في حياتي جنازة. ربَّما مرَّة واحدة فقط في صِغَري. لا أعرف كيف تتمّ الجنازة، ولا أعرف كيف يدفنون الميِّت. كلّ هذه التفاصيل أجهلها.

تأرجحت بين شعورين، وبين فكرتين. قلت لنفسي إنَّ الميِّت عندما يموت، لا ينظر خلفه متحرِّرا من الماضي. يصبح أكثر خفَّة. إنَّه لا يعود يعنيه كلّ ما يحدث في عالمنا. هذه الفكرة أراحتني وأعادت إلى نفسي توازنَها. إنَّها ماتت وحيدة، مطمئنَّة. لم تمت غرقًا، أو حرقًا، أو في حادث سيّارة. لطالما طلبَتْ من الله حُسْن الخاتمة؛ أن تموت في فراشها وهي تلهج بالدعاء.

عندما دخلتُ البيت، رأيت دينا جالسة على كرسيٍّ، تأكل شطيرة بينما عيناها مثبَّتتان على النافذة. ولمَّا أحسَّت بوجودي التفتت، ثم مشت نحوي مسرعة حين رأت جسدي المتهالك. أخذت تمسح وجهي وتزيل دموعي بأطراف أصابعها. أمسكت بيدي وشدَّتني إليها. عانقتني، وهي تنظر بعينين دافئتين، وهذا ما دفعني إلى البكاء على صدرها. سألتني عمّا حدث، فأخبرتها بكلِّ شيء.

قالت: «إنَّها امرأة طيِّبة، لقد أحبَّتك دائمًا». إجابتها لم تكن تقليديَّة، وليس ممَّا كنت أتوقَّعه من كلمات عزاء، لذلك هدأتُ وقلت لها: «كانت تحبّ أن تقرصني من بطني. قرصاتها مؤلمة، لكنَّها لذيذة». وافترّ فمي عن طَيْف ابتسامة. زرعت رأسي في عنق دينا، وأخذت أشمُّ رائحتها، أتنفَّسها، أحبسها في عتمة داخلي، قبل أن أُطلق سراحها من جديد.

ابتسمت لي في المقابل، ومسحت شعري بكفِّها. شعرت بأنَّها الحضن الذي قد يعوِّض حضنَ أمِّي الغائبَ، لذا تشبَّثت بها خشية أن تضيع.

ـ متى ماتت؟

ـ قبل أسبوع. تخيَّلي، لقد ماتت من دون أن أراها أو أسمع صوتها.

ـ حبيبي، الأمر لم يكن في يدك. نحن هاربان، وهذه ضريبة خياراتنا. إن كنّا إلى طرف الحبّ فهذا يعني أنّنا في الطريق الصحيح.

ـ الجميع يختفون. تنشقّ الأرض وتبتلعهم. يقول سيوران «لو لم يكن الانتحار خيارًا لقتلت نفسي».

ضغطت بيدها على فمي، وقالت: أيُّها الأحمق، أنت تمزح! لا تَقُلْ هذا الكلام مرّة أخرى. أنت تعرف كم أحبّك.

ـ لو بقيَتْ في قيد الحياة لبصقَتْ في وجهي. لقد غيَّرتني الحياة. لم أعد بريئًا. نافقتُ، وكذبت، وخدعت، وماتت أحلام شبابي من فرط الانتظار.

ـ أوه، كم أنت لطيف يا حبيبي. لم تفعل شيئًا سيِّئًا. لم تخدع أحدًا. لقد عانيتَ وفعلت ما في وسعك. بعض الأشخاص مقدَّر عليهم المعاناة طوال حياتهم. أنت فقط مرهَف الحسِّ.

ـ في آخر مرَّة، زرت فيها أمِّي، كانت مرهَقة من فرط المرض. حين دخلت غرفتها، وجدتها طريحة الفراش، تسند رأسها المغطَّى بالحجاب إلى مخدَّتين، وتحمل في يدها مسبحة. ساعدتها على النهوض، وجلست إلى جانبها. فرحت بزيارتي. رأيت بريقًا في عينيها، وأخذت تدعو لي كعادتها. هذه المرَّة قالت لي إنَّها تريد أن تزوِّجني قبل أن تموت. لم أكن أفكِّر في الزواج، وأنا أعيش كمتشرِّد، من دون مال أو بيت أو عمل جيِّد. كانت فكرة الزواج من أمنياتها الكثيرة، التي فشلتُ في تحقيقها.

ارتسم على وجه دينا طيف ابتسامة، ثم قالت:

ـ نوح، الحياة تستحقّ المحاولة، إنَّها تكسرنا لنعود أقوى، على الرَّغم من أنَّها قادرة على تحطيمنا مرَّة واحدة، وللأبد. أنت قويّ وتستطيع أن تتجاوز هذه المحنة.

لم أُجِبْها بأيِّ شيء. جلست على الكرسيِّ ورحت أتطلَّع عبر النافذة، وجلست هي إلى جانبي على الأرض ونظرت نحوي بعينين حائرتين، ممعنة في الصمت. شعرت بأنَّها تتحدَّث في رأسها. كنت أعرف أنَّنا نخوض معركة، قد ننتهي فيها خاسرَين، ومصدر القلق هو فكرة فقدانها. كان يكفي أن تكون إلى جانبي، لأستمدّ طاقة كبيرة في مواجهة العالم، وأشعر بنفسي أكثر قوَّة وحرِّيَّة.

قامت ودارت حولي. شعرت برغبتها في أن تفعل شيئًا من

أجلي. مسحت على رأسي، وعانقتني من الخلف. ضمَّت رأسي إلى صدرها. شعرت بنهديها صُلبين وساخنين. كان قلبها يخفق بتوتُّر. رفعت رأسي وقبَّلتها. لعقتُ شفتيها، وأدخلت لساني في فمها. فكَّرت في أمِّي، وفي رهف، وفي أصدقائي، وفي كلِّ المساكين والمهزومين، وفي كلِّ الذين يئنُّون من الألم. تذكَّرت أحد أصدقائي الجامعيِّين الذي مات بالسرطان: كيف كان يصرخ من خلف قناع الأوكسجين في غرفة العناية المركَّزة، بسبب الفحوصات الروتينيَّة وجلساتِ الكيماوي، والموادِّ المخدِّرة التي كان الأطبَّاء يدلقونها في شرايينه، ونوباتِ تشنُّجه التي لا تهدأ، وجسدِه شبه المشلول، إذ لا يستطيع تحريك أطرافه الباردة والهزيلة، إلى أن انتهى جثّة هامدة تحت ملاءة زرقاء.

قال لي في أيَّامه الأخيرة: هذا موت لا يليق بي. أنا لست بنبيٍّ أو شاعر. كنت أتمنَّى موتًا سريعًا، لأنَّه ليس لديَّ ما أقوله. لن أغيِّر شيئًا. كلّ هذا الوقت مقتطَع من جهنَّم. أموت في اليوم ألف مرَّة. جلسات الكيماوي ذبحتني.

ذهبت للنوم. غطَّيت جسدي كاملًا، وأغمضت عينيّ. حاولت أن أصفِّي الذهن من كلِّ الأفكار والتخيُّلات. سمعت صوت أمِّي «ما تنسَ يمّا ساندويشتك»؛ «الله يوفَّقك ويرضى عليك، جاوب منيح في الامتحان»؛ «البِسْ منيح بلاش تمرض»؛ «تعالَ أحكيلك عن سيدك وعن بيَّارات البرتقان وأرضنا إلي كانت مزروعة بالبطِّيخ وكلّ شي بيخطر ببالك». تسارع نبضي، وثقل تنفُّسي، وشعرت بأنَّني سأختنق. ومع ذلك، لم تكن لديَّ الطاقة على النهوض. بقيت ممدَّدًا في السرير، أصارع الأفكار والأصوات في رأسي.

(21)

حين استيقظت، وجدتني غارقًا في العرق. الحياة في أريحا قاسية. درجات الحرارة المرتفعة لا يمكن تحمُّلها، والشمس لا ترحم، والرياح الحارّة تهبُّ من كلّ مكان. تُحيط بالمدينة جبالٌ كئيبة موحشة، تذكّر المرء بالموت ووجه سدوم.

نظرت إلى سرير دينا، فوجدتها متكوِّرة على نفسها في هيئة الجنين. بذلتُ جهدًا كبيرًا للوقوف على قدميَّ. ذهبت إلى الحمَّام لأغسل وجهي، انتبهت إلى أنَّ لحيتي طويلة وتحتاج إلى حلاقة. أخرجت شفرة الحلاقة، لكنّي اكتشفت أنَّ المياه مقطوعة، فعدتُ إلى الغرفة غاضبًا وأنا أتلفَّظ بالشتائم. كانت دينا لا تزال نائمة. اقتربت منها بهدوء، حبَّات العرق تلمع على جبينها، وضوء الشمس يموج على ساقها المكشوفة. تأمَّلت أصابع قدميها ولاحظت شامة صغيرة عند مؤخّرة رقبتها. كانت مدهشة.

سمعتها تتأوَّه. ولمَّا وضعت يدي على جبينها، تفاجأتُ بأنّ

بشرتها تلتهب بالحرارة. كانت مريضة، ودرجة حرارتها بدا لي أنَّها وصلت إلى مرحلة خطيرة. عندما حاولت إيقاظها، قالت لي إنَّها متعَبة وتشعر بالألم. نزعت البطّانيَّة عنها. كانت رائحة أنفاسها قويَّة، وترتجف من رأسها حتى قدميها، فطلبت سيّارة أجرة، وحملتها إلى المستشفى.

قال لي الطبيب إنَّها تعرَّضت لحمَّى شديدة، نتيجة تقلُّب الطقس، وأشياء أخرى لم أفهمها. في كلِّ حال، كانت دينا بالغة ولديها بطاقة شخصيَّة، لذلك لم نجد أيّ مشكلة في إجراءات المستشفى. سجَّلتِ المرأةُ الجالسة في المكتب اسمَ دينا وعمرَها ومكانَ سكنها. في المساء، عندما دخلت عليها وهي في الغرفة، كانت مستلقية في السرير، ابتسمت لي وضغطت على يدي.

سألتها: هل أنت بخير؟

هزّت رأسها:

ـ يومَ خرجنا في مظاهرة عند حاجز بيت إيل، وأُصبت برصاصة مطّاطيَّة في قدمي، قلت لك إنَّني خائفة من الموت، وضحكتَ. قلت لي: لا أحد يموت من رصاصة مطّاطيَّة في قدمه. اليوم شعرت بالخوف، لكنَّه خوف آخر، خفت أن أفقدك.

ثم أضافت:

ـ أنا خ... خائفة يا نوح، الخوف شيء بشع للغاية.

ـ لا تتحدَّثي عن الخوف. هذا الصباح كاد قلبي يتوقَّف. خفت كثيرًا أن يصيبك مكروه ما.

ـ هل تحبّني؟

وضغطتُ على يدها.

ـ بالتأكيد.

ـ ما أغباك يا نوح. أحبّ أن أسمعها منك.

ـ أحبّك.

وأضافت بعد لحظة صمت: اخرج، لم تأكل شيئًا منذ الصباح، أنا بخير لا تقلق عليَّ.

خرجت من المستشفى، وبحثت عن مطعم قريب. هبطت شارعًا فرعيًّا حتى وصلت إلى مطعم صغير، فقدَّم إليَّ شابٌّ ساندويشة فلافل وعلبة كولا، ثم شربت فنجانًا من القهوة.

سألني: يبدو أنَّك غريب عن المنطقة؟

ـ أنا من رام الله.

ـ ما الذي تفعله هنا؟

ـ زوجتي ستلد في المستشفى.

لم أرغب في فتح حديث معه، فدفعت إليه وخرجت. كان الشارع معتمًا وعواء الكلاب يتردَّد صداه من حقول الموز. نظرت إلى المدينة من خلال الأشجار. أضواء قليلة تتسرَّب من البيوت. أريحا تقبع في قاع العالم، في منطقة منعزلة. رائحة الملح تنتشر في عروقها. البحر الميِّت أمامها والجبال الجرداء خلفها، هكذا وجدتِ المدينة نفسَها محاصَرةً بالملح والحصى والحجارة.

عدت إلى المستشفى. اجتزت الرواق ودخلت غرفتها. كانت مستيقظة، فأخذنا نتحدَّث حتى منتصف الليل. بعدها نامت وأنا جلست على الكرسيّ إلى جانبها. استيقظت في أثناء الليل، كان القمر يلمع في السماء، ويرسل أشعَّته عبر النافذة. ناولتها قنِّينة ماء. وبعد أن شربت سألتها إن كانت تحتاج إلى شيء. عادت إلى النوم، وبقيت مستيقظًا، أفكِّر في رحلة هروبنا، متأمِّلًا وجهَها وهي نائمة، تنساب عليه أشعَّة القمر الفضِّيَّة. خرجنا من المستشفى صباح اليوم التالي. كان الهواء صقيعيًّا والشارع خاليًا من الناس. قالت: «ما أجملَ ألَّا نرى أحدًا على الإطلاق! تخيّلْ أن تكون المدينة لنا وحدنا».

ـ ستكون مدينة أشباح. المدن لا قيمة لها من دون ساكنيها.

عندما أشرت إلى سيّارة أجرة، اقترحت عليَّ الجلوس قليلًا إلى جانب الطريق. جلسنا على سُور واطئ، وأخذنا ننظر إلى أشجار النخيل.

ـ سيعثرون علينا. أنت لا تعرف عائلتي، وحينها سيفرّقون بيننا.

ـ لا، لن نسمح لهم.

بعد دقائق، أوقفت سيّارة وعدنا إلى البيت. كان السائق يستمع إلى نشرة الطقس، ثم أخذ يثرثر ويشكو من حال البلد: الفساد؛ غلاء الأسعار؛ كذب السياسيين؛ متاجرة الأحزاب بدماء الشهداء. بدت دينا بردانة، تائهة وهي تنظر عبر النافذة إلى شوارع أريحا وحقولها. في تلك الليلة، استيقظت من النوم وذهبت إلى المطبخ لأشرب، فوجدتُها تقف بلا حراك. كان المطبخ معتمًا، فضغطت على مفتاح الإضاءة. أخافني منظرها، فشعرها الكثيف منسدل في فوضى، ووجهها شاحب

لا حياة فيه. عندما وضعت يدي على كتفها لم تجفل، وسألتها عمّا تفعله فلم تصلني منها أيُّ استجابة.

أمسكت بها وخرجنا من المطبخ إلى الصالون، وهناك حاولت أن أفهم ما حدث لها. «دينا! حبيبتي ماذا حدث؟» استدارت وأصبح وجهها قبالة وجهي. شعرت بأنفاسها الحارَّة، وارتعاشات صدرها من الخوف.

ـ لقد رأيت حلمًا.

ـ هل تتذكَّرينه؟

ـ كنّا نركض في غابة كثيفة الأشجار، نركض ونركض من دون أن ننظر خلفنا. أصوات الرجال ونباح الكلاب تلاحقنا. سقطنا فجأة في حفرة، ولم نستطع الخروج. أخرجونا وربطونا بحبال سميكة. كنت مرعوبة والدماء تلوِّث ثيابي. أطلق كبير عائلتنا رصاصة من بندقيَّته نحو رأسك. صرخت حتى انقطع صوتي. كان حلمًا مخيفًا.

ـ إنَّه مجرَّد حلم.

ـ أنت تعلم بأنَّ الأحلام ليست أقلّ من تنبُّؤات.

ـ ليست بالضرورة. قد تكون فقط وجهًا آخر لمخاوفنا وأسئلتنا الداخليَّة.

ساعدتها على الذهاب إلى السرير. لَفَفْتُها باللحاف لأنَّها كانت ترتجف. ظلَّت تنظر إلى الحائط المقابل بنظراتٍ شاردة. بدت لي هزيلة. برزت عظام خدَّيها، مصفرَّة من الخوف، وفي عينيها الحمراوين رأيت ظلال الخيبة. عندها شعرت بتأنيب الضمير، لأنّني

السبب في ذبولها إلى هذه الدرجة، فوجدتني أعتذر.

ـ لا تعتذرْ. أنا لا أعتبرها غلطة. نحن اخترنا الحبّ والحرِّيَّة، هل سمعت؟ لن نسمح لأحد بأن يقرِّر بالنيابة عنِّي وعنك.

كلَّما أزعجتني هذه الأفكار، وجدتُ دينا تبثُّ الطمأنينة في نفسي.

أضافت:

ـ المهمّ أن نحافظ على هدوء أعصابنا. الأحداث تتزايد وتتسارع وتصبح أكثر توتُّرًا. على الرَّغم ممَّا أصابنا من فزع، فعلينا أن نظلّ قويَّين.

تذكَّرت حلمي. فكَّرت في أنَّني لم أتحرَّر منه، فما زلت أحافظ على ذلك الشعور بأنِّي قتلت أحدًا. أحسُّ بالدم الفاتر على يديَّ، وفي رأسي ترتفع صرخات القتلى. كلّ شيء تغيَّر بعد ذلك الحلم. لم أعد أرى العالم كما يراه الآخرون. ثمَّة برودة، وقذارة، وشعور بالخوف.

حضَّرت لها كوبًا ساخنًا من الأعشاب، وضعته أمامها على الطاولة. ساعدتها على النهوض، ثم أحاطت يداها بالكوب الدافئ، وهي تتأمَّل صفّ الأشجار خارج النافذة. تبعت نظراتها بعينيّ، وسألتها بصوت منخفض: هل أنتِ بخير؟

هزَّت رأسها من دون أن تتفوَّه بكلمة.

بعد منتصف الليل، استيقظت من النوم. فتحت عينَيّ بهدوء. كانت الغرفة غارقة في الظلام، لولا ضوء شحيح يتسرَّب من بين الستائر. رأيت شبح امرأة يقف إلى جانب النافذة، بلا حراك. خُيِّل

إليَّ أنَّني أحلم ففركت عينَيّ أكثر من مرَّة. كان الشبح لا يزال واقفًا في مكانه. جسدٌ شابٌّ بكامل عريه، تخلَّص من أيِّ فائض؛ محايد، جميل، لا يُثير اندهاشًا أو شهوة، وإنَّما يبعث على الراحة.

بقيت في السرير محدِّقًا إليها، بينما تحرَّكت في داخلي طاقة مشرقة، لم أشعر بها من قبل. نظرت إلى سرير دينا، فوجدتُها تغطُّ في نوم عميق، كان وجهها في اتِّجاهي، وعيناها مغمضتين. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّني أحسست بأنَّها تراقبني. نقلت نظري إلى النافذة، فوجدتُ الشبح لا يزال في مكانه. كان ذلك الجسد نسخة طبق الأصل عن جسد دينا. القوام ذاته، إضافة إلى تسريحة الشعر، وحجم الوَرِكين والصدر.

ليست دينا التي تقف إلى جانب النافذة، وإنَّما فتاة أخرى تشبهها إلى درجة التطابق. مَن تكون؟ ومِن أين جاءت؟ وماذا تفعل هنا وهي عارية من ملابسها؟ يتحرَّك شبح الفتاة نحو منتصف الغرفة. يصبح أقرب. أضيِّق عينَيّ فأشعر بها تحدِّق إليَّ، فتزداد نبضات قلبي ويعتريني إحساس غريب: مزيج من الخوف واللذَّة.

تقدَّمت الفتاة نحوي بقامتها المنتصبة. وقفت إلى جانبي ثم جلست على السرير. شعرت بسخونة جسدها. سمعت صوت تنفُّسها الهادئ. كانت عارية من دون قطعة ملابس واحدة. لمست وجهي بأصابعها. كانت حقيقيَّة، حضنت خدَّيَّ براحتي كفَّيها. داعبت شعري ثم نزلت بيدها إلى صدري. انسلَّت إلى السرير وأحاطتني بذراعها. كان جسدها دافئًا ومتعرِّقًا. شعرت بعظامها وهي تُطْبِق عليَّ. كان بطنها مجوَّفًا. أمَّا وَرِكاها فقد كانا ممتلئين.

حرَّكتُ رأسي هذه المرَّة. نظرت إلى سرير دينا، وجدتها لا تزال نائمة. أردتُ أن أصرخ؛ أن أدفع هذه الفتاة الأخرى، غير أنَّ جسدي كان متجمِّدًا. خارت قواي، ولم تعد لديَّ طاقة على القيام بأيِّ حركة، كأنَّها سحبت طاقتي كلّها. شعرت بدوخة كأنِّي غرقت في عمق بحر. رحت أحاول التماسك ومنع نفسي من الاختناق.

لا أدري الحدّ الفاصل بين الوهم والحقيقة؛ بين الحلم والواقع. سمعت تأوُّهات دينا من السرير المجاور. رفعت رأسي نحوها، فوجدتها تحرِّك شفتيها؛ تعضّهما؛ تتأوَّه؛ تصرخ؛ ترفع ساقيها خارج اللحاف، والفتاة التي ألجها صامتة وتتنفَّس بهدوء. أشحت نظري. خفت أن أنظر إلى عينيها.

فجأة، أصبح العالم معتمًا. غرقت في مستنقع من السوائل اللزجة، وتحرَّكت حشرات مزعجة في دمي. أطرافي مشلولة، وأنا عاجز عن الحركة. أغمضتُ عينيّ؛ انطفأت.

في صبيحة اليوم التالي، لاحظت أنَّ ملاءة السرير واللحاف ليسا في مكانهما، وإنَّما على حبل الغسيل خارج النافذة. أمَّا هي، فقد كانت تقرأ بعينين شاردتين. وعندما نهضتُ من فراشي، لم تلتفت وظلَّت تبحلق في كتابها. هل تتذكَّر ما حدث ليلة أمس؟ بدت مرتبكة، وليست على طبيعتها. شعرها الأشعث منسدلٌ على كتفيها، وجسدها منكمش إلى نفسه، تفوح منه رائحة منعشة تنتشر في أرجاء المكان.

كنت متيقِّنًا من أنَّها تعرف ما حدث، والدليل أغطية السرير التي غسلتها. رمقتني بعينين مضطربتين، بينما كانت تعبيرات وجهها تعبِّر عن صدمة مختلطة برعب. لم تعد دينا صغيرة. إنَّها تزداد في كلِّ يوم

جاذبيَّة. نظرت إلى بطنها، وراودتني مجموعة من الأفكار سرعان ما طردتها. حين التقت نظراتنا أدارت وجهها. قالت وهي تنظر عبر النافذة:

ـ صباح الخير.

كان صوتها باهتًا، لكنَّه بريء ودافئ كصوت طفل.

ـ ما بكِ؟

وأعقب تحيَّتَها الصباحيّة صمتٌ عميق. تسلَّلتْ من النافذة صرخاتُ أولاد الجيران. بقيت مستلقيًا على الأريكة طوال ذلك النهار، مستغرقًا في التفكير، والاستماع إلى الأصوات القادمة من الخارج.

(22)

في اليوم الثامن، شعرت بأنّي مكشوف وحبل المشنقة بدأ يضيق حول رقبتي، حتى كدتُ أختنق. فكّرت في طرد الفزع من نفسي، فاقترحت على دينا الخروج من مدينة أريحا، والذهاب إلى بيت لحم. لم ترفض الفكرة، فحملنا حقائبنا الصغيرة، وغادرنا صبيحة اليوم التالي.

في الطريق إلى بيت لحم، تحدَّثت دينا بكلام جميل، ولم تفارق الابتسامةُ شفتيها. قالت لي إنَّها تزور المدينة لأوَّل مرَّة، وستضيف إلى ذاكرتها ذكرياتٍ جديدةً، سأكون حاضرًا في كلِّ تفاصيلها.

نظرت عبر نافذة الباص، إلى جمال بيت لحم الذي يضايق الاحتلال. تأمَّلت الشوارع، وعادت ذاكرتي سنوات إلى الوراء. خطر في بالي محاصرةُ كنيسة المهد، في أثناء الاجتياح في الانتفاضة الثانية، كنت وقتها أظلّ متصلِّبًا أمام شاشة التلفاز، أنظر إلى القنّاصة الذين يطلقون النار على المقاومين، مراقبًا الموتَ الذي يتجوَّل في المدينة.

بعد أن وصلنا إلى مجمَّع بيت لحم، مشينا في اتِّجاه السوق، وهناك اشترينا بعض الكعك. أخذت أراقب الفتيات الخارجات من المدارس، يتحرَّكن في اتِّجاهات مختلفة، يرتدين المرايل المدرسيَّة، ويضعن المكياج على وجوههنَّ. أجساد جميلة ورشيقة وأخرى قبيحة، قصيرات وطويلات، ممتلئات ونحيفات. حاولت أن أستكشف عبر ملامحهنَّ، المستقبلَ الذي ينتظرهنَّ عند نهاية الطريق. هل سيُطرد عدد كبير منهنَّ أم سيتسرَّبن من المدرسة؟ وفي حال تخرَّجن، فإنَّهنَّ سيذهبن إلى الجامعة، لتكون النتيجة إمّا ربَّةَ بيت، وإمَّا بطالةً. قد يتزوَّجن من أغبياء، لينجبن متشرِّدين يتسكّعون في الشوارع، فيُمضون أوقاتهم مع ألعاب الفيديو والذهاب إلى المقاهي. وقد ينجبن متشدِّدين دينيِّين يدعون إلى فتح روما وإجبار الفتيات على ارتداء الحجاب، وكلّ هذا الهراء.

رأيت امرأة تهبط درجات كنيسة المهد، بابتسامة عريضة على وجهها، وساقين حزينتين. إلٰهي، كيف يمكن أن تكون السيقان حزينة؟ كانت ربَّة من ربَّات الجمال، تضع على رأسها شالًا ورديّ اللون. قلبي منفضة سجائر؛ أنا مسرحيَّة رديئة، وتجمَّد الدم في عروقي. إنَّها تدفع الإنسان إلى أن يشيخ. جمالها مُؤْذٍ ومُعْدٍ مثل المرض. تخيَّلت الأشياء البليغة تحت فستانها، وكيف تتفاعل في لحظة هستيريا. انتبهت دينا إلى نظراتي. تعرف أنّي محتال، أكذب في اليوم ألف مرَّة، لكنّي لا أكذب عليها. كنّا في الطريق، هذا كلّ ما نعرفه، نجتاز الأسواق والأحياء. الأحمر لون الحبّ، الأبيض لون المدينة، كلّ شيء في بيت لحم أبيض.

بعد ساعات من التجوال، توقَّفنا عند تقاطع شارعين. إلى يميننا،

كان ثمّة مطعم شعبيّ صغير، وإلى يسارنا كنيسة صغيرة جميلة، بدت مهجورة وليس فيها أحد. تسلّلنا إلى الداخل. كان الباب صغيرًا وقديمًا، طرقناه عدّة مرّات، وحين استدرنا لنرجع، فتح لنا راهب كبير السنّ.

طلبنا منه أن يوفّر لنا وجبة في اليوم، ومكانًا للمبيت. في المقابل، سنقوم بتنظيف الكنيسة كلّ يوم، من الباب حتى المذبح. وكان الرجل كريمًا، يحمل حبّ المسيح في قلبه، فقال لنا: هذا بيت الربّ، وأنتم في أمان.

في إحدى الليالي، سمعت طَرْقًا عنيفًا على الباب، ثم رأيته ينخلع، ويدخل منه ثلاثة ملثّمين بالكوفيّة، يحملون العصيَّ والسكاكين. قبض عليّ أحدُهم بقوّة، بينما أخذت دينا بالصراخ، فأغلقوا فمها. قال لي أحدهم: ماذا تفعل هنا؟ هل أنت جاسوس؟

قلت لهم: أنا زوج هذه المسكينة، ونحن متشرِّدان.

فانهال عليّ بالضرب، وقال لي: «إنَّ الشخص المتزوِّج لديه بيت. ها اعترفْ: هل هذه العاهرة أيضًا جاسوسة؟»

ـ لديكم هَوَس أمنيّ لا تملكه الدول الكبرى، وأصبحتم ترون كلّ الناس جواسيسَ. نحن زوجان تشرّدنا، لأنّنا لا نملك إيجار الشقّة، وأتينا إلى الكنيسة، فساعدنا رجل دين مسيحيّ، ومنحنا هذه الغرفة للمبيت فيها.

أخذوا يضربونني وهم يقولون إنّني أكثر المستعربين خطورةً، أُتقن اللهجة الفلسطينيَّة، وأقوم بتصرُّفاتهم.

بعد ساعات طويلة من التحقيق، أطلقوا سراحي، واعتذروا قائلين: «في الثورة، علينا أن نسدِّد هذه الفاتورة من أجل حرِّيَّة شعبنا. قد تقع أخطاء، لكنَّ الخطأ، مهما يكن كبيرًا، يصبح في سبيل فلسطين في منتهى الصِّغَر». ورحت أردِّد، وأنا أشعر بالألم في كلِّ أنحاء جسدي «يبدو أنَّنا مجرد أخطاء على هذه الأرض».

في الصباح، جاء إلينا رجل الدين الطيِّب وهو يرتجف. قال لنا: المسيح يحبّكم، لكنّي أخاف أيضًا على نفسي. لا أريد المشاكل، رجاءً، احملوا حقائبكم وارحلوا.

وهكذا، وجدنا نفسينا متشرِّدَين من جديد.

هذه المرّة، ذهبنا إلى نابلس. قلنا لنفسينا إنَّهم لن يتخيَّلونا بهذا الغباء، لنأتي إلى عشّ الدبابير حيث عائلتها. في الصباح، استيقظت المدينة من سباتها، تدفَّق البشر إلى أرزاقهم، وارتفعت أصوات الباعة المتجوِّلين وضجيج السيّارات، وتحرَّكت الباصات لنقل طلبة جامعة النجاح، وانطلق معها صراخ السائقين وشتائمهم، وانتشر عطر النساء في الشوارع والأسواق. ليس في وسع جنود الاحتلال أن يحجبوا تاريخ المدينة، ولا يمكن لأسلحتهم محوُ الجَمال الذي يظهر في التفاصيل. الأزقَّة، الحارات، الأبنية، كلّها تنطق بالدهشة.

تعرَّضت المدينة لحصار طويل. وضع الجنود الحواجز والمكعَّباتِ الإسمنتيَّةَ في الطرق المؤدِّية إليها. خنقوها من الخارج، وواصلوا تدميرها من الداخل بالقتل والقصف. لم يسلم الإنسان والحجر من تدميرهم. وعلى الرَّغم من ذلك، فإنَّ المدينة واصلت حياتها. قاومت الاحتلال مثلما فعلت مع كلّ الغزاة.

في البلدة القديمة، لفحتنا رائحة النعنع والزعتر البلدي؛ تلك الرائحة التي تشي بوجود الفلّاحات الفلسطينيّات. لطالما أحببتُ رؤيتهنَّ بالملابس المطرّزة. أيديهنَّ الخشنة تذكّرني بيدَيْ والدتي، وملامحُ التعب على وجوههنَّ، وروائحُهنَّ القرويَّة، تُعيدني إلى بداياتي الأولى. تأمَّلنا المحالَّ الصغيرة حيث أكياس التوابل والبهارات. هذه مدينة تؤنِّث ذاكرتها بالروائح. مررنا بين الأجساد المتزاحمة. شعرنا بأنَّنا وحيدان فتعمَّق إحساسنا بالغربة. لمحت الحزن على وجهها. بدا لي أنَّه اكتسب بُعدًا جديدًا، في مدينة لها تاريخ طويل مع الحزن.

مشينا تُظلِّلنا غمائمُ من البخور والعطور. هبطنا درجًا طويلًا قبل أن نصل إلى حديقة. قالت لي إنَّها ستذهب إلى أحد المحالِّ لشراء غرض خاصّ. حاولت أن أعرف ما هو هذا الغرض، لكنَّها رفضت غاضبة، وانتظرتها. بعد أن مرَّت خمس دقائق، بدأت أشعر بالقلق. أخذت عقارب الساعة بالتقدُّم، واستمرَّت بزحفها حتى النصف ساعة. لم يكن ثمَّة ما يمكنني فعله. خطر لي أن أبحث عنها، إلَّا أنَّني خفت أن أضيِّعها، فبقيت في مكاني، تسلَّلت الأسئلة إلى رأسي: هل عثروا عليها، أم أنَّها تعرَّضت لحادث؟

خفت أن أفقدها إلى الأبد؛ أن تختفي من دون أن تترك أثرًا. في تلك اللحظة، لم أفكِّر إلَّا فيها، ودعوت بصدق أن تعود. بدت لي نابلس قطعة إسمنت خرساء، وبدت لي جبالها وجوهًا واجمة، يتوهَّج فيها وجه دينا الخائف.

قرَّرت البحث عنها في المحالِّ والمقاهي المترامية على جانبي الشارع. رحت أدور في المنطقة نفسها، ثم عدتُ إلى مكاني الأوَّل.

رأيتها فجأة قادمة من نهاية الشارع. بدت لي أطول ومشيتها أكثر تناسقًا. منذ متى توقَّفتُ عن تأمُّلها؟ هذا الهروب من عائلتها، قلبَ حياتي رأسًا على عَقِب.

ـ لماذا تأخَّرتِ؟

ـ لقد أضعت الطريق.

ـ لا تُقلقيني مرَّة أخرى. أين كنتِ؟

ـ ليس من شأنك.

ـ اسمعي، أنا أثق بك، لكنِّي أخاف عليك، ولا تتكلَّمي معي بهذه الطريقة.

أصبح التوتُّر يُلقي بظلاله علينا، وكلَّما انقضى يوم من المدَّة، شعرنا بالخوف لأنَّ الأمر أصبح أكثر خطورة، كما شعرنا بالفرح لأنَّنا نقترب من خلاصنا.

اشتريت علبة دخان وعلكة وفوطًا صحِّيّة، لأنَّ الدورة جاءت دينا في صبيحة ذلك اليوم. قالت لي: «الدورة لا تأتيني إلَّا في المناسبات السعيدة». ثم أضافت غاضبة: «أشعر بسخط على الكوكب». تخيَّلتُني امرأةً، تأتيني الدورة شهريًّا، بكلِّ ما تحمله من وجع وصداع ودماء نازفة، فقلت في نفسي: معها حقّ، وأنا أشعر بالسّخط على كوكبنا.

ذهبنا وتمدَّدنا على مدرج منتزه نابلس. أخذنا ننظر إلى الأعمدة الرخاميَّة، ووراءنا كان ثمَّة نصب أو تمثال يُشبه العمود. قلت لها: «البلد مليء بالخوازيق. لماذا يضيق الخيال حتى ينحصر في قضيب الرجل؟ على الأقلِّ، لِمَ لا نجد تماثيل أو نُصُبًا تشبه فرج المرأة؟»

«تخيَّلْ»، قالت ضاحكة. وأضافت: «سيظلّ الشعب كلّه ممحونًا طوال الوقت».

كنت أضحك وأسأل نفسي: من أين تأتينا الرغبة في الضحك ونحن في قلب المأساة؟ قد نجدنا مقتولَين في أيِّ لحظة. طاخ، طاخ. رصاصتان وينتهي هذا الفيلم العبثيّ. قالت لي: «سنُمضي النهار في الرسم بأصابعنا على السماء». تمدَّدنا ونظرنا إلى السماء، وأخذنا نرسم أشياء مبهمة. كانت ترسم شيئًا يشبه الوردة. «ما هذه؟» «وردة؟»، «لا، انظرْ»، وأعادت الرسمة التي تتكوَّن من دوائر متشابكة. ثم نظرت إلى عينيّ وقالت: «إنَّها حياتنا يا نوح». رحت ألوِّح بيدي كأنِّي أهشِّم زجاجًا وأحوِّله إلى شظايا. «ماذا ترسم؟» سألتني.

ـ إنَّها العاصفة. هل قرأتِ لموراكامي؟ يقول في روايته «كافكا على الشاطئ»: لحظة انتهاء العاصفة، لن تتذكَّر كيف تدبَّرت أمرك لتنجو، ولن تُدرك هل انتهت العاصفة أم لا. ستكون متيقِّنًا من أمر واحد فقط: حين تخرج من العاصفة، لن تعود الشخصَ نفسَه الذي دخلها، ولهذا السبب وحده، كانت العاصفة.

ـ هل تقصد أنَّنا لم نعد أنفسنا؟

ـ نعم، أردت أن أقول أمرًا شبيهًا.

ـ وهل هذا ينطوي على خطورة؟

ـ سنرى. أمَّا الآن، فعلينا أن نُطعم هذه القطَّة المسكينة.

كانت قطَّة سوداء، هزيلة الجسم، أخذت تتقدَّم نحونا وهي تموء. أخرجت دينا من حقيبتها ساندويشة شاورما، ووضعت للقطَّة بعض شرائح اللحم.

ثم رأينا قططًا أخرى صغيرة، تتقدَّم نحوها. في البدء، دارت معركة بين الأمّ وأولادها، ثم معركةٌ ثانية بين القطط نفسها.

تبادلتُ ودينا النظرات إلى عيوننا، في اللحظة ذاتها.

ـ هل تفكِّرين فيما أفكِّر فيه؟

ـ هل هذه هي الطبيعة؟ الأنانيَّة وحبّ التملُّك مزروعان في الجينات منذ الولادة؟

ـ لا أستطيع أن أفكِّر وأنا جائع.

فأخرجنا الساندويشات، وأخذنا نلتهمها.

أغمضتُ عينيّ، ووضعت ذراعيّ على صدري، وأخذت نَفَسًا عميقًا. شعرت بها تقترب منِّي، ثم همست في أذني:

ـ فِيمَ تفكِّر؟

ـ في أشياء سخيفة. أتخيَّل امرأة بأربعة نهود، وجنديًّا يقتل الناس بثاني أوكسيد الكربون. أفكِّر في مدخل حديقة رام الله؛ رهف؛ الرجل الذي بلا ظلّ، والنساء الغريبات اللاتي خرجن من العدم.

وكان صوتها يأتيني واهنًا:

ـ أيمكنني أن أقول لك شيئًا؟

ـ بالتأكيد.

ـ لطالما كنت غريبًا، وتتصرَّف كأنَّك في حلم، و...

عندما حاولتُ الكلام، وضعت إصبعها على شفتَيّ.

ـ أنت متعَب وحزين. حياتك كانت صعبة. العمل الشاقّ منذ

الطفولة؛ الواقع غير الأليف. لكنَّك كنت عنيدًا وصاحب إرادة. وهذا ما أحببته فيك.

مددتُ أصابعي إلى وجهها، وأنا مغمَض العينين، وإذ به يغرق في الدمع. ذلك المشهد، لا يمكن استرجاعه إلَّا بألم. وما فهمت يومها سبب بكائها، وقد كانت كثيرة البكاء من دون سبب. كانت تشهق، وجسدها يرتجف، فأمسكت يدها، وقرَّبتُ وجهي من وجهها. شعرت بخفقات قلبها على صدري، وأنفاسها الساخنة تنساب على رقبتي بهدوء. تضرَّعت إلى الله كي يتوقَّف هذا الجنون غير المفهوم. إنَّها، بحركاتها العفويَّة البريئة، تذبحني من الداخل، وتُشعرني دائمًا بالخوف عليها من شرور الحياة، فضممتها إليَّ أكثر.

ـ نوح، أنا خائفة.

طوال سنوات معرفتي بها، لم أستطع أن أصل إلى مكمن الخوف داخلها، وإلى الطفل الكتوم المحزون الأشبه بسحر خفيّ.

حدَّقت فيها من خلال ذاتي المنسيَّة، الهاربة نحوها، وكان فراغ قليل يفصل بيننا. قلت لنفسي إنَّ الخطيئة أن أرى الدموع على وجهها. وهذا الأمر جرحني بعمق، فقد فشلت في إزاحة غيوم الحزن من سمائها.

عادت تقول:

ـ أنا طفلة تافهة، عابثة، لا أطيق كلّ هذا الحبّ، لأنَّه يدفعني إلى البكاء.

كان صوتها الرقيق مثلَ عزف كمانٍ حادّ. وكنت كالطفل حينها،

ألهو مع طفلة عابثة، وأتقرَّب إليها بصدق صوفيّ لا تكلُّفَ فيه. فجأة، ابتسَمت وسط الدموع. نظرتُ إلى عينيها، لأرى نظراتها الحلوة، ثم انفجرَت بالضحك، فوشمتُ تلك اللحظة في ذاكرتي، لأستعيدها مرّاتٍ ومرّات، لأنَّها كانت ساحرة: مزيج من البكاء والضحك الصادقين.

قالت لي: لقد حلمت بك ليلة أمس. كنتُ حيَّة وأنت ميِّت. لم تكن في لحظاتك الأخيرة من الحياة، بل جثَّة هامدة. ثم أخذت تنشد بعضًا من أشعار بودلير بصوت متهدّج:

«عمّا قريب نغرق في بارد الظلمات

فوداعًا يا ضاحي النور من أصيافنا القصيرة»

ألقت رأسها على كتفي وقالت: «سأكرهك يا نوح، إن جعلتني أتألّم».

ـ أكملي شعر بودلير، ولنتركْ هذه الأفكار تتساقط جريحةً على الأرض. المهمّ أن نعيش هذه اللحظات، حيث يمتزج الخوف باللذّة. أمَّا ما سيحدث، فهذا من اختصاص الله وحده.

انكمشت على نفسها في صمت، وقطَّبت حاجبيها، ثم زمَّت شفتيها مثل الأطفال. أمَّا أنا، فقد فقدتُ قدرتي على الكلام، بينما عادت إلى التكلُّم في سرعة غريبة، بصوت هادئ وحزين.

خرجنا من الحديقة. مشينا متعجِّلَي الخطوات، نحو مكان أخبرنا عنه أحد الأصدقاء من مدينة نابلس. قال لي إنَّ عائلته تملك «حَوْشًا» في البلدة القديمة، وهناك غرفة سرِّيَّة، يمكننا الاختباء فيها. عندما دخلنا الحوش، أخبرنا بأنَّ ياسر عرفات لجأ مع مجموعة من الفدائيِّين

إلى هذا المخبأ، ومنه انطلقت العمليَّات العسكريَّة. غرفة من الطراز القديم، حيث الأقواسُ والحيطان الطينيَّة، لكنَّها رطبة ومعتمة، لا تدخلها أشعَّة الشمس إلَّا من نافذة واحدة. عندما رأيتها، فكَّرت في أنَّها تشبه حياتنا: واسعة، لكنَّها بلا نوافذ.

(23)

حملنا غداءنا ووضعناه على طاولة إلى جانب الشبّاك. لم يكن أمامنا سوى ساحة ونافورة وحائط حجريّ، كانت حجارته شديدة البياض، كأنّه أُعيد ترميمه قبل وصولنا بأيّام. سمعنا زقزقة العصافير في أنحاء الحوش، ورأينا بعضها يهبط في الساحة. أخذت أفكّر: لو أنّنا نعيش في هذا المكان. مخبأ صغير وهادئ، نُمضي وقتنا في القراءة وممارسة الحبّ. بدت لي هذه الأفكار رومانسيَّة، لا تصلح لعصرنا. وكأنَّ دينا قرأت أفكاري، فقالت لي وعلى شفتيها طيفُ ابتسامة.

ـ إنَّه مكان جميل.

ـ يوجد في بلادنا مئاتُ الأماكن التي تحتاج إلى ترميم. ليس لدينا اهتمام بالتراث أو بالفنون. الحكومات لا تقوم بدورها. على سبيل المثال، في مدينة فلورنسا الإيطاليَّة، ساهمت عائلة ميدتشي في النهضة الأوروبيَّة، وأبدى أفرادها اهتمامًا كبيرًا بالفنون والأدب. منحوا المال والرعاية للفنّانين والأدباء، حتى أصبحت فلورنسا من

أجمل مدن العالم، يحجّ إليها كلّ متذوّقي الدهشة والجمال.

ـ للأسف، الكلّ مشغول بجمع المال، ولا أحد يرعى الفنّ. إنّه منبوذ في أوطاننا. نحن في بلد يحكمه الجَهَلة، ويكرِّم فيه العسكرُ المبدعين أمام الكاميرات، ليزجُّوا بهم في السجون ما إن ينتهي البثّ.

ـ الأنظمة العربيَّة لا تريد إنسانًا واحدًا، بل ملايين الحيوانات في حظائرها.

ـ دعنا من الأنظمة. أريد بيتًا قديمًا مثل هذا، أليس مدهشًا؟

ـ معبدنا الصغير، مكان آمن لنتعبَّد فيه بممارسة الحبّ!

ـ مكاننا النظيف الوحيد في عالمنا القذر.

ـ تقول إحدى الأساطير الإغريقيَّة، إنَّ كرونوس حاكمَ الكون في عصره الذهبي، حينما عاش البشر من دون حزن أو ألم، قام بتحريض من أمِّه جايا ربَّة الأرض، بقطع العضو التناسليّ لأبيه أورانس ربّ السماء. سقط عضوه الغارق في الدم والمنيّ في البحر، فتكوَّنت رغوة مقدّسة انبثقت منها ربَّة الحبِّ والجنس. خرجت أفروديت من الماء عاريةً، بجسدها الفائق الجمال، وأصبح لها معبد في أثينا، يذهب إليه الناس للتعبُّد بممارسة الجنس.

ـ هل كان الجنس عبادة؟

ـ كان مقدَّسًا، ويتقرَّب به الناس إلى الآلهة.

نظرت في أنحاء الغرفة. جدران شديدة البياض مطليَّة بدهان جديد؛ لوحة زيتيَّة لشاطئ بحر؛ ساعة حائط؛ طاولة خشبيَّة في الوسط؛ سرير صدئ في الزاوية؛ لمبة تتدلَّى من السقف، ثم اللاشيء يسبح في فضاء المكان. قمنا عن الطاولة. ذهبت دينا للتمدُّد في

السرير، بينما أخرجت من حقيبتي أحد الكتب، كنت قد اشتريته من إحدى البسطات في الشارع. أستغرق في القراءة، ومثل كلّ مرَّة أقرأ فيها، يبدأ العالم بالتلاشي، لأدخل في عالم الكتاب الذي بين يديّ. دينا نائمة، وربَّما تحلم، وقد اعتادت ألّا تخبرني بأحلامها. تقول إنَّ الأحلام مُلك صاحبها، ملكيَّة خاصَّة، ولا يجوز أن تتشاركها مع الآخرين.

بعد ساعتين، أغلقت الكتاب ووضعته على الطاولة. كانت دينا قد استيقظت وجلست إلى جانب النافذة. رأيتها غارقة في أفكارها. ظلّت نصف ساعة تنظر إلى الخارج، من دون أن تقول أيّ كلمة أو تُبدي أيّ حركة، فقط أنفاسها كانت تصلني هادئة ومنتظمة. بدت باهرة الجمال، بالضوء الذي يلمع على وجهها. تأمَّلت مزيج الحزن والدهشة في عينيها. لو كنت فنّانًا لرسمتها. لو كنت نحّاتًا لصنعت لها تمثالًا، ووضعته عند دُوّار الأسود في رام الله.

جلست إلى جانبها، أخذتها إليّ وحضنتها. سألتني هامسة:

ـ هل سننجو؟

ـ سننجو من مِصيدة والدك. أمَّا مِصيدة الحياة، فلا يوجد أمل بالنجاة منها.

ـ هل فعلًا ترى الحياة مِصيدة؟ عبثيّ إلى هذه الدرجة!

ـ لا أعلم إن كنت عبثيًّا، لا أستطيع أن أقول أيّ شيء عن نفسي. كلّ هذه الرحلة لمعرفة الذات. حتى هروبُنا، إنَّه محاولة للفهم.

شعرت بأنّي حرٌّ. هل هذه هي الحرِّيَّة، أن أجد نفسي وحيدًا في

مكان خالٍ وقديم؟ لا أدري، ليس لديَّ إجابة. كنت قَلِقًا، لكنَّني منتشٍ بشعور لا أقدر على وصفه، أختبئ من العالم لأستكشف داخلي. أهرب مع البنت التي أحبّها. أجدني في رحلة هروب نحو الذات كرحّالة لا يتعب. ألمس تفاصيل الطرق التي لا ينتبه إليها الآخرون. أتأمّل الأشياء ووجوه الناس. يجرحني جمالها. أضيِّع خريطتي وبوصلتي، لكنِّي أواصل المشي، بحسب اتِّجاه الريح.

أخذت حمّامًا ساخنًا، ثم عدت إلى الكرسيِّ لأواصل القراءة. ضجرت، انسللت تحت أغطية السرير. تبادلنا النوم في السرير والجلوسَ على الكرسيّ. مشي؛ جلوس؛ وقوف إلى جانب النافذة؛ الكلام على الوطن والحبِّ والذكريات. هذا كلّ ما كنّا نفعله. في ساعات المساء، شعرنا بوحشة حقيقيَّة، وتلاشت كلّ أحلام يقظتنا. إنَّنا بحاجة إلى أصوات الناس؛ صراخ الأطفال؛ ضجيج السيّارات؛ عواء الكلاب. هذا الصمت مدمِّر للذهن والأعصاب، والبياضُ يدفعنا إلى الجنون. وكمحاولة لقتل الضجر، قمنا بالرقص. دبكنا، حرّكنا جسدينا الخاملين.

«الحياة دعوة غير صريحة إلى شيء ما، نجد أنفسنا مدفوعين نحوه بحبٍّ وشغف كبيرين»، همست في أذنها.

«ربَّما هي دعوة إلى الحبِّ؛ وحده القادر على جعلنا أناسًا جيِّدين»، قالت لي.

ـ ربَّما هي دعوة إلى الموت.

ـ لا تَقُلْ هذا الكلام. أنت جميل، لكنَّ رأسك لعين ومشاغب. وضغطت على يدي بخفَّة.

ـ ثمَّة أناس وُلدوا من رحم الرياح والجسور وخطوط الهدنة،

أمضوا حياتهم في التوفيق بين ضفَّتين، أو التصالح بين شيئين متناقضين في دواخلهم، وظلُّوا يقاتلون إلى أن ماتوا وهم يحاولون. أنا واحد من هؤلاء. لن أريح رأسي إلَّا على كتف الغربة.

تتوقَّف عن الرقص، وتأخذ بيدي لنجلس إلى الطاولة. نتحدَّث طويلًا ولا ننتبه للوقت. بقيت صامتة تصغي إليَّ باهتمام كبير، تُعلِّق بكلمة أو كلمتين ثم تعود إلى صمتها. أحيانًا، تُخرج ما في داخلها دفعةً واحدة. تتكلَّم حتى يُخيَّل إليَّ أنَّها لن تتوقَّف.

حدَّثتها عن الفرّان الذي وقع في حبِّ راعية حمام، فأخذ يصطاد لها الحمامة تلو الأخرى. في أحد الأيَّام، ماتت بضربة سكِّين من زوجها، بعد أن وجدها في أحضان عشيقها. وحدَّثتها عن «الصلّاح»، الذين كانوا يخرجون من شجرة خروب قريبة من آبار المياه، حيث كانت النساء القرويّات يغسلن ملابس أزواجهنَّ وأبنائهنَّ، فيلاحقوهنَّ، ويضربوهنَّ، حتى يعدنَ إلى بيوتهنّ خائفات وجزعات. في النهاية، سردت عليها حكاية مخيفة من وحي الريف، عن الجنِّ والشياطين، فشعرت بالخوف وقفزت في حضني. هتفت بي: أنا خائفة، توقَّفْ، ضمَّني إليك أيُّها الشيطان.

عندما ننتهي من أحاديثنا يكون الوقت متأخِّرًا جدًّا.

ـ ذهبت دينا للاستلقاء في السرير. اندسَّت تحت الأغطية، بينما تمدَّدت على البساط بالقرب من النافذة. أطفأت لمبة السقف. كان ضوء القمر شحيحًا، لكنَّه يكفي لإنارة الغرفة. أغمضت عينيّ وحاولت النوم. رأيت حياتي كألبوم صور، ففتحتهما في ذعر، وأخذت أحدِّق نحو الخارج.

جاءني صوتها من عمق العتمة: هل نمت؟

ـ لا.

ـ أنا خائفة. هل أستطيع أن أنام إلى جانبك؟ لن تمدّ يدك إليَّ، ولن تفعل شيئًا لا أريده، صحيح؟

ـ اطمئنّي، لن أفعل شيئًا ممَّا قد يفعله شابّ وفتاة يحبّ أحدهما الآخر، حين تلفّهما العتمة في مكان خالٍ ومعزول. سأظلّ مثل قطعة جليد، ولن أضايقك. أُفضِّل أن تبقي مكانك في السرير، الأرض باردة وصلبة، هل يمكنني المجيء؟

جاءني صوتها مرتبكًا من الطرف الآخر في الغرفة، اكتفت بكلمة واحدة، أحسست بأنَّها ابتلعلت ريقها بعد أن تلفّظت بها:

ـ تعالَ.

قمت من مكاني، ومشيت نحوها في العتمة. كانت خطواتي بطيئة، وما إن وصلت حتى أفسحتْ لي مكانًا في السرير، فرقدتُ إلى جانبها. تمدَّدت على ظهري ورحت أحدِّق في السقف. تسلَّلت حرارة جسدها من تحت بيجامتها الورديَّة الناعمة. شعرت بتوتُّرها وخوفها. كنت أسمع لهاثها، لذلك لم تتكلَّم. ظلّت صامتة حتى لا تفضح نفسها.

ـ هذا طبيعيّ. أنا أوَّل شابّ ينام معك في سرير واحد.

ـ كيف عرفت؟

ـ ارتباكك يشي بذلك.

بلعت ريقها.

ـ هل تعرف إلى أين أنظر في هذه اللحظة؟

«إلى الباب»، قلت من دون تفكير.

ـ «كيف عرفت؟» قالت منفعلة وقد أدارت نفسها نحوي.

ـ تفكّرين في الهرب إن حاولت لمسك، وتخافين أن يفتح أبوك عليك الباب.

ـ يبدو أنّك شاهدت الكثير من الأفلام.

صمتٌ؛ أنفاس؛ تعرُّق؛ كلمات مرتبكة. فجأة، رفع قضيبي رأسه، استيقظ من نومه الطويل. أطلّ الفضوليُّ بعنقه ما إن اشتمّ رائحة أنثى. انتصب بعد أن كان مسترخيًا وأصبح كالحجر. لا أدري لماذا شعرت بأنّها تعرف بالأمر، وبأنّ عينيها تحدِّقان نحو قضيبي الذي رفع البوكسر وأغطية السرير. قالت لي: هل ستقذف هنا على السرير؟

ـ عادة أفعلها في السرير.

ـ لا تفكّر في أن أساعدك بتدليكه، سأترك لك يدي لتمسك بها، وانتهِ من الأمر بيدك الأخرى.

تدفَّق الدم الدافئ في عروقي، وشعرت بلذّة تتأتّى من عالم آخر. أغمضت عينيّ، وسمعت أصوات صهيل وزقزقة عصافير وطنين نحل في رأسي. الجسد في سرير الفتاة التي أحبّها، في مكان معزول وبعيد عن الناس. شعرت بأنَّ السرير هو البحر، وجسدي قاربٌ يحاول الوصول إلى شاطئه، لكنَّه لا يصل أبدًا، فالرياح والأمواج العاتية تدفعه نحو الخلف. أشمُّ رائحة شعرها المنسدل على المخدّة، وجسدها المتعرّق المرتبك. أتخيَّل أصابعها تزحف عبر الملاءات نحو صدري، عند ذلك أقذف في يدي. أتأوّه، أنطفئ، أقترب من الموت،

لذَّة لاسعة لم أشعر بها من قبل. بعدها قمت من السرير لأغسل يدي في الحمّام، ثم عدت.

ـ هل ارتحت؟

ـ نعم، آسف لما حدث.

ـ لا داعي للاعتذار.

مرّت لحظة من الصمت، شعرت بابتسامتها.

ـ أنت طفل لطيف وجميل، يا نوح.

ـ طفل لطيف وجميل؟

ـ نعم.

ـ أحبّكِ بجنون.

ـ أريد أن أظلّ جميلة في خيالك، مهما حدث. لا أريد أن تتغيَّر صورتي في نظرك.

ـ تقصدين ما حدث قبل قليل؟ لقد أحببتك أكثر. رائحتك أشعر بها في عتمة داخلي.

تنقلب على بطنها، فأمرِّر يدي على ظهرها، وألمس شعرها الناعم المسترسل، أفرك بعض خصلاته بين أصابعي. تزحف نحوي برشاقة، تلتصق بي، ظهرها في حضني. ترجع إلى الوراء، تمسك بيدي وتضعها على خصرها. تهمس في أذني بأن أشدّها إليَّ، أهصرها، لا أتركها تفلت. أصابعها تتشبَّث بي، تنغرز أظفارها في لحم ساعدي. أتوجَّع، تتأوَّه، أشعر بحرارتها. صدرها يرتفع وينخفض، تنفُّسها رائع، رائحتها تدوِّخ، رأسي يدور.

قالت: «كان يجب أن أتخلّص من كلّ الأشياء التي لا تلزمني؛ أن أعيش حياتي كما أريد، ولو لأيّام معدودة، أشعر فيها بنفسي وجسدي. أنا مريضة بك، مدمنة عليك، تشعلني كلماتك ورائحتك. عبثًا بحثت عن نسيانك، كلّ حواسّي جنود أوفياء لك».

مكتبة
t.me/t_pdf

أصغيت إليها بصمت.

ـ مع الوقت نصبح دبلوماسيِّين، نتدرَّب على الصمت. وحدهم الأطفالُ لديهم الجرأة على البكاء والضحك بصخب. لذلك قلت إنَّك طفل جميل يا نوح.

ـ ما أجمل كلامك!

ـ لحظة حبّ تساوي عمرا من الصلاة.

ـ الحبّ صلاة!

تمدّ أصابعها إلى شفتي، تتحسّس وجهي، تحكّ الشعر النابت على ذقني، تداعب حَنجرتي. تقول بصوت خافت: يجب أن تعيش حياةً طويلة. إيّاك أن تموت.

قلت لها بعد أن زممت شفتيّ: ليس الأمر بيدي.

كان رأسها على صدري، ويدي على خاصرتها النحيلة. راحت أناملي تتحرّك بخبرة على جسدها. كان ملمسها ناعمًا، ورائحتها دافئة. صمتنا، حتى سمعت صوت شخيرها. هذه المرَّة الأولى التي أسمع فيها شخير فتاة. كان هادئًا ومنتظمًا، فلم يزعجني. غرقت دينا في نوم عميق. اقتربت منها، وضعت رأسي إلى جانب وجهها على المخدَّة، لفحتني أنفاسها الساخنة. التصقت بجسدها، لأبرهن أنّ

جسدي موجود. ليلة ناعمة، تنتشر في شراييني رائحةُ جسد مدهش. زجاجة عطر سقطت وانكسرت على أرض الغرفة. زجاجتان بل ثلاث، والرغبة حصان عصيٌّ على الترويض، يصهل في غابة كثيفة الأشجار. بعد لحظات، نمت أنا الآخر. اختفيت من العالم، وغرقت في بئر بلا قاع. تلاشت الأصوات والأفكار والخيالات.

عندما استيقظت، لم أجدها في السرير. نهضت بسرعة، وركضت نحو الباب. رأيتها تجلس في الساحة، تفوم بتمارين اليوغا. لا أحد في استطاعته أن يتوقَّع ما يدور في رأسها. منذ متى تمارس اليوغا؟ لم تخبرني. كانت تطوي قدميها بالقرب من منطقة الحوض، بينما تشبك يديها بإحكام عليهما. أخذت أتأمَّلها من دون أن أقاطعها، ثم عدت إلى الداخل مرَّة أخرى. دخلت الحمَّام، غسلت وجهي ونظَّفت أسناني وحلقت ذقني، ثم جلست إلى الطاولة بعد أن صنعت كوبًا من الحليب، وأكلت قطعة كعك. فكَّرت في الليلة الماضية: رائحتها ما زالت عالقة على جسدي. لم يكن في استطاعتي أن أتوقَّف. وحده الشغف دفعني إليها.

عندما انتهت من تمارينها، أخذت منشفتها ودخلت الحمّام، ولمَّا خرجت نشَّفت شعرها ومشَّطته. لم تقل شيئًا، ربّما كانت خَجِلة. وجهها متورِّد، وعيناها تلمعان. لم تكن لديَّ فكرة عمّا سنفعله في النهار: هل سنخرج لنواصل تسكّعنا في المدينة؟ أم سنظلّ مختبئين في هذا المكان؟

أحتاج إلى حبل نجاة، كي أستطيع الخروج من بئر أسئلتي، أو نكتةٍ تقلِّل من ضجر المكان، لكن يبدو لي أنّ العالم يأخذ كلّ شيء بجدِّيَّة. لا يوجد هزل أو تهكُّم. مزحة قد تؤدِّي إلى موت إنسان، لذا

حياتي تشبه أحشاء غنمة مبقورة البطن، صفراء اللون؛ حياة من دون مغامرات هي قطعة لحم في ثلّاجة؛ حياة تتعفّن مع مرور الوقت، تصبح كريهة ومصيرها المزبلة؛ حياة محرومة من الحرّيّة والحبّ؛ حياة تعاني البرد والجوع والبطالة؛ حياة لا تجد الخبز والجبنة والهواء؛ حياة يلعلع فيها الرصاص ودويّ الانفجارات وصراخ الأمّهات.

ذاتَ ظهيرة، ونحن نسير في البلدة القديمة، مرَّ بنا بائع متجوّل، يرتدي الزيّ التقليديّ الفلسطينيّ: قمبازًا، حطّة، عقالًا. يحمل المشروبات الباردة من خرُّوب وعصير ليمون. كان الرجل يضحك وينادي «free palestine». وعندما سألناه عن حياته، أخبرنا بأنّه درس الهندسة المعماريّة، ولأنّه لم يجد عملًا جيّدًا، قرّر العمل بائعًا متجوّلًا، ثم أحبَّ المهنة، وأصبح لديه عدد كبير من الزبائن الدائمين.

ـ لديك شهادة في الهندسة المعماريّة، وتعمل في الشارع؟

«إنَّ الشارع يحمينا من الجنون، حين يطفح داخلنا بالألم».

عندما قال هذه العبارة، أدركت أنّني أقف أمام فيلسوف، وليس أمام متعلِّم فحسب.

ـ كيف؟

ـ عندما تشعر بأنّك أصبحت على أبواب الجنون، عليك أن تخرج إلى الشارع: تصرخ، تفعل أشياء خرقاء، وتقوم بدور المهرِّج. بعثِر غربتك الداخليّة في الحدائق والمقاهي والأرصفة. الخطيئة أن تظلّ واقفًا في عالم لا يكفّ عن التحرُّك.

أخرجت دفتر المذكّرات من جيب البنطال، وسجّلت العبارة:

«الخطيئة أن تظلّ واقفًا في عالم لا يكفّ عن التحرُّك».

في صباح اليوم التالي، رأيته في الشارع أمام الحوش. كان يرتدي الثياب ذاتها، لكنَّه بدّل مقولة «free palestine» بـ «change your life». مرّ بنا، كأنَّه لم يرنا. قلت في نفسي إنَّه يبيع للمئات يوميًّا، فما الذي يذكِّره بنا! لكنَّه رجع إلى الخلف، ونظر إلينا مبتسمًا، وهتف بي: لا تقلقْ، ستكون مهرِّجًا. إنَّها الحياة التي تدفعك إلى حلبة التهريج.

أخبرنا بأنَّه يعيش بالدَّين، فعمله لا يكفي لسداد حاجاته الأساسيَّة، «الدَّين أفضل من الموت جوعًا». مُطالب دائمًا بسداد ديونه لأصحاب المطاعم الشعبيَّة وأصحاب البسطات، وبائعي الخُضَر في السوق، وبائعي الكتب في الشوارع. كان رجلًا كثير الضحك والسخرية، غزيرَ الحكايات.

حدَّثنا عن امرأته الجميلة، الردفاء، ضخمة الفخذين. وصفها لنا بدقَّة، كأنَّها هيلانة طروادة، أو مارلين مونرو. امرأة بالغة الجمال، لأنَّها لا تسخر من عمله أو ملابسه، وتملك قلبًا طيِّبًا. بسيطة وعاديَّة مثله. كانت تعمل في معمل خياطة، تهديه بلوزة قطنيّة أو كنزة صوفيَّة في الشتاء. وبينما كان يتحدَّث عنها، شتم الناس الذين لا يرون في المرأة سوى جسدها، وقال بالحرف الواحد إنّها «رجعيّة قبليَّة»، «عالم خرا». أدهشتني هذه المصطلحات، كأنَّه يقولها بقصديَّة فنَّان: يحوِّل وعيه بالأشياء إلى إبداع.

ذاتَ يوم، ضربه صاحب مطعم، لأنَّه لم يسدِّد ديونه. أخذ يركله في بطنه، ثم صبَّ عليه زيتًا ساخنًا، أحرق ظهره. صرخ طويلًا من الألم، وهو يتلقَّى البصقات والشتائم، من دون أن يتدخَّل أحد لإنقاذه. ذهب إليها ظهيرة اليوم التالي بعد أن عالج جرحه في

المستشفى. لن ينسى كيف تعاملت معه، حين بقيت إلى جانبه، تواسيه، وترفع معنويَّاته.

لديها صديقة كانت تبيع الفجل والبصل في سوق نابلس، تنادي على بضاعتها بصوت فيروزيّ جميل، كأنَّ صوتها لإحدى أميرات الشرق المترفات، وليس لبائعة بصل. ملامحها إيرانيَّة. على خدِّها الأيمن شامة، ولغتها ناعمة، كلغة ممثِّلة تؤدِّي مشهد عشق في مسلسل تلفزيونيّ. وكانت، على الرَّغم من جمالها، كثيرةَ الشتائم، تلعن الحكومة والبوليس، لكنَّها تحبّ المساكين وطلَّاب جامعة النجاح، الذين لم يكونوا يشترون بصلها، وإنَّما يكتفون بالتحيَّة والابتسام.

الفتاة أُصيبت بسرطان الثدي. فقدت ضحكتها؛ هزلت؛ تحوَّلت مع مرور الوقت إلى هيكل عظميّ، وماتت في غرفتها وحيدة، بلا زوج أو أهل.

أخرج لنا ديوانًا لبابلو نيرودا، وأخذ يقرأ لنا وهو جالس على رصيف الشارع. ثم أسرَّ إلينا برغبته في أن يسافر إلى باريس، ليجلس الجلسة نفسها إلى جانب نهر السين. وعندما يتعب، يريح شفتيه بالقبلات الفرنسيَّة. «جوتيم»؛ «بونسوار»؛ أهلًا باريس.

ـ الحياة أكثر وأبعد ممَّا نظنّ.

قال لنا.

ـ وهل الحياة قابلة للقياس؟

لم يجبني، ثم اختفى بعد هذا اللقاء.

(24)

كان مساء اليوم التاسع والثلاثين من المهلة التي حُدِّدت لنا، عندما وصلنا إلى أوّل شارع فلسطين. سمعنا صوت إطلاق نار، ثم رأينا خمس سيَّارات تتوقّف، وينزل منها مسلَّحون في زيِّ رجال الأمن. كانت المنطقة مطوَّقة، ويستحيل الهرب منها، كما تناقلت الإشاعات بين المارَّة. قال البعض إنَّها حملة أمنيّة ضدَّ مطلوبين، اختبأوا في أزقَّة البلدة القديمة، بينما قال آخرون إنَّها اشتباكات بين مسلَّحين من مخيَّم بلاطة، وأجهزة الأمن التابعة للسلطة.

تقدَّم الرجال نحونا، ثم شهروا أسلحتهم في وجهينا. اقترب أحدهم ولكمني على وجهي، فوقعت على الأرض، ثم سحبني على رصيف الشارع. أخذت دينا بالصراخ، فأغلقوا فمها واقتادوها إلى إحدى السيَّارات.

وجدتُ نفسي وسط القرية، يحيط بي مئاتُ الأشخاص. تعرَّضت للضرب واللَّكم من مجهولين، وأنا أتلقَّى الشتائم «يا ابن الزانية، هذا

فقط لتعرف كيف تتعامل مع بنات الناس». بقيت تحت التعذيب طوال الليل، ثم أجلسوني تحت شجرة زيتون، وربطوني إليها بحبلٍ ثخين. تذكَّرت كيف كنت أوثق حمارتنا من رجلها وأُرخي لها الحبل، في دائرة قطرها عشرون مترًا. أمَّا هؤلاء الأنذال فلم يتركوا لي سنتمترًا واحدًا، لأحرِّك فيه أطرافي.

ليلة قاسية. كنت خائفًا من الموت، وخائفًا على دينا. فكَّرت في أنَّني أعيش خوفًا دائمًا، وفكَّرت في هذه العودة إلى الريف، والإقامة تحت شجرة زيتون، وسط جبال تُصدر أصواتًا ونباحًا وأزيزًا غريبًا. خطرت لي قصص البشر الذين أعرفهم. تتبَّعت مسارات حيواتهم ومصائرهم، فقلت في نفسي: إنَّ الله مُخرج وسيناريست عظيم، وحبكات الروائيِّين ليست إلّا نقطة في بحره.

غفوت قليلًا. وفي الحلم حلمتُ بأنِّي أحلم بموتي. وحين صحوت كنت مرتعبًا، وكان طفلٌ يجلس قبالتي، يبحلق نحوي بنظراتٍ مرتعبة، كأنَّه كان غافيًا هو الآخر، وصحونا في اللحظة نفسها، ليتفاجأ الواحد منّا بالآخر.

صرخنا مذعورَين، ثم سكتنَّا مثل بندولَيْ ساعة. بعد أن دقَّقت في ملامحه، بدا لي أنِّي أعرفه، وقد رأيته في مكان ما، وربَّما أعرفه أكثر من نفسي، «إنَّه أناي الطفل»، هذا ما دار في رأسي، وأنا أنظر إليه مشدوهًا.

كان ممزَّقًا، كتلةً من اللحم المفتَّت الجافّ، المتماسك قليلًا، بوساطة دبابيس وأسياخ خشبيَّة. لونه ضاربٌ إلى الزرقة أو البنفسجيّ، لا أذكر على وجه التحديد، كأنَّه تعرَّض لضربات من ساطور جزّار في

إحدى الملاحم، ثم عُلِّق على أحد حبال الغسيل ليجفّ. ضربني الطفل، وأخذ يوجِّه إليَّ اللَّكمات، وأنا لا حول لي ولا قوَّة. كان أناي الطفلُ بطلًا في الملاكمة، صُلبًا، حاقدًا، يضربني من دون رحمة. وجدُتني أنهار وأسقط، في هاوية باتِّساع ضعفي.

ذاتَ ليلة، حين كنت أتمشَّى مع إحدى الصديقات، في شوارع بلدة بيرزيت، قلت لها بصوتٍ مبحوح: «داخلي طفلٌ مُمزَّق». لم أكن أبالغ يومها محاولًا اجتذابَها بالغموض والعبث، أو استدرارَ عاطفتها، وإنَّما كنتُ أرى كلّ الأشياء مبتلَّةً بوجع أزرق، يشبه دمع الأرامل والأمَّهات الثَّكالى.

يا إلٰهي، ها هو الطفل الداخلي، يضربني في معركة غير عادلة. فلسطين حلبة صراع غير عادلة، وأنا فيها مختلّ، غيرُ متوازن، وربَّما أسير بالمقلوب. رأسي بأرجل كثيرة مثل حشرة كافكا.

كان الطفل ينظر إليّ، وفي عينيه زهوٌ واحتقار. كاد يقول شيئًا، لكنَّ الكلمات تراجعت في اللحظة الأخيرة، وعوضًا عن الكلام، أخذ يلفُّ لفافة تبغ رديئة، ثم قال: «أنت ضعيف يا رجل، لم أحسبك هكذا!» الحقيقة، كانت مفاجأة صاعقة، لم أتصوّر أن يكون داخلي شرسًا وعنيدًا إلى هذه الدرجة. سألت نفسي: كيف لهذا الطفل الحقير أن يذلّ كبريائي؟

وكأنَّه قرأ ذهني، فقال: طوال حياتك وأنت تَعوي سائلًا عن معنى الوجود، في حين أنَّني كنت أخلقه بمكرٍ خالقٍ، ثعلبيّ التفكير.

أخذت أفكِّر في مكر الله: لا بدَّ من أنَّه يشبه دودة أرض، جسدها مرن؛ أو معجونَ حلاقة في بالون إصبعيّ الشكل؛ أو أنَّه طريٌّ مثل

حبَّة بازيلّاء. ورحت في خيالي، أشرِّح جسد المكر بمبضع جرّاح. أنزع الأطباق الخارجيَّة، ثم الأنسجة والأعصاب. كان الجسد كلَّما شرَّحتُ بعضه، فقَّسَ أجسادًا أخرى أكثر تعقيدًا، فتوقَّفت، بعد أن انطفأ ذهني كشاشة تلفزيون.

قالت لي كومة اللحم التافه: ما رأيك في أن نتبادل أمكنتنا؟

ـ لم أفهمك كفاية.

ـ تصبح أنت أنا، وأصبح أنا أنت. داخلُك يصبح خارجَك، وخارجُك يصبح داخلَك.

لم أنسَ كلامه عن المكر الذي تربّى في الصمت، فتوجَّست خيفة.

ـ وماذا إذا لم نعد نفسينا. بعد خوض التجربة، قد أظلّ أنا الداخلَ وأنت الخارجَ!

تقدَّم الطفل، كومةُ اللحم، ووضع إصبعه على معصمي، وأخذ يرسم شكلًا غريبًا، فشعرت بشعور غريب، غير واضح المعالم، جعل جسدي ثقيلًا، دافعًا بي إلى مدارات النعاس والنسيان. انطفأ العالم من حولي، فوجدتني وسط الظلمة، وكان صوته:

ـ لا تَخَفْ. تقدَّمْ خطوة إلى الأمام. أنت الآن داخلي، وأنا خارجك.

ـ اللعنة عليك، أكاد أموت من الرعب.

كنت متوتِّرًا، وأتعرَّق بغزارة. في أعماق داخلي، فراغ شاسع وجافّ كصحراء، وجدتني أمشي على رمالها، من دون وجهة؛ أمشي

وأمشي وأمشي، كرحّالة. ومن مكان قصيّ، أتاني عزف على الكمان.

عزف كمان، أم صوت رجل!

جاء كبير العائلة قبيل الفجر، وهو يحمل بندقيَّة إنكليزيَّة. كان رجلًا كبيرًا في السنِّ، يرتدي عباءة ويضع على رأسه حطَّة وعقالًا. وضع فوَّهة البندقيَّة على جبهتي، وقال:

«اسمعْ، أريد تفسيرًا لما حدث، وإلَّا فجَّرت رأسك. كيف تجرَّأت على خطفها؟»

لم أعرف بماذا أجيب. نظرت إليه فاغرًا فمي، وأخذت أهزّ كتفيّ بلا مبالاة. بدا شديد الغضب، فوجدتني أقول له كلمات بلهاء مثل: أنّني لم أخطفها، بل هكذا جرت الأمور، وعادةً ما يختلط لديّ الواقع بالخيال، فلا أدري أين أعيش.

كان من الواضح أنَّه لم يفهم شيئًا، وظهرت علامات الاستياء على وجهه، فأضفت: «في كلِّ حال، لا أحد يرغب في أن يموت ببندقيَّة مهترئة». استقام في وقفته، وسألني بسرعة كأنَّه أراد أن ينتهي من الموضوع: هل تريدها؟

ـ في حال لم تقتلني.

انطلق صوت الأذان من مئذنة القرية. رفع الرجل فوَّهة البندقيَّة نحو السماء، وأطلق رصاصة في الهواء، ثم باركَنا زوجًا وزوجة. قال لي: لقد حافظت عليها أربعين يومًا، والباقي حتى طلوع الشمس تدفعه بالتقسيط. وعندما سألته «كيف سأدفعه؟» أجابني بأنَّه عليّ العمل في الحقول ومساعدة أهل القرية طوال سنة كاملة. قال لي أحد مرافقيه:

«أنت محظوظ، يا ابن الكلب».

قلت له بسخرية «أنا سيِّئ الحظّ يا صديقي، لا تتفاءلْ كثيرًا».

بعدها عرفت أنَّ أحد أفراد العائلة، وكان شابًّا مطارَدًا من الإنكليز، أصبح فيما بعد أحد قادة المقاومة ضدَّ إسرائيل، لجأ إلى جدِّي في أحد الأيَّام، واختبأ في بيته شهرًا كاملًا. أكل من طعامنا، ولبس من ثيابنا، فلم تنسَ له العائلة هذا المعروف. انتهاء المهلة، صوت الأذان، دَين عائليّ قديم، جميعها أنقذتني من موت مؤكَّد. هل أنا محظوظ؟!

في اليوم ذاته أُصبت برصاصة في كتفي اليُسرى، وأنا عائد إلى مدينة نابلس. كان شجارًا حقيقيًّا بالأسلحة، نُقلت في إثره إلى المستشفى. كنت منهَكًا في السرير، أنظر إلى النهار القابع وراء النافذة. شعرت بالخوف من العالم الخارجي، فأغمضت عينيَّ، ولم أستيقظ إلَّا على مشهد النجوم.

استيقظتُ متعبًا جدًّا، وقد هدَّت قوايَ نوبةُ صداع، نظرت إلى جدران الغرفة، فاحشة العري، لاذعة البياض. أجهدتُ نفسي كي أفهم، لكنَّ الأمور كانت مستعصية على الفهم.

شعرت بوحدة موحشة. كان العالم حولي فارغًا ومهجورًا، رأيت حياتي تمتدُّ مثل صحراء شاسعة: هل هو اليأس، أم شعور حقيقيّ بخواء الأشياء؟ هل قدرنا أن نكون وحيدين على هذا الكوكب؟ رفعت وجهي وحاولت لمس السماء بأصابعي. كانت بعيدة، إلَّا أنِّي شعرت بلزوجتها. سأبحث فيها عن جُحر للاختباء أو باب للخروج. وأنا ممتلئ بلذَّة الصراخ، وطقوس الخيبة، نظرت إلى أعمدة الكهرباء،

تساءلت: ما المعنى من كلِّ ما حدث؟

فلسطين متعَبة، تشعر بأن لا شيء يلمُّ شتاتها، غير ليلها البارد. تخيَّلت أنَّ مدنها الصغيرة تقفز من نافذة المستشفى إلى سريري، مدينةً مدينة، في مسلسل عشقٍ مبتور. كان الليل هادئًا، لا يخترق صمته سوى أبواق سيّارة، وثرثرة خافتة لغرباء في الممرِّ. هل رمتني الحياة في سرير مستشفى، مثل أيِّ شيء زائد عن الحاجة؟ إلٰهي، أين المفرّ من هذا الخفوت، ومن هذا التعب؟

أدركت أنّي سأُعيد المسرحيَّة على المسرح ذاته، ولم تكن بي طاقةٌ للإعادة. قلت في نفسي: إنَّها حياة مكرَّرة معادة. رأيت صخرة سيزيف تتدحرج نحو أسفل الجبل، وكان عليّ أن أحملها من جديد، وأُعيد المحاولة. لكنّ الحياة دفعتني إلى حلبة الرقص. الحياة حلبة رقص، رأيتني أتحوَّل إلى راقص ضَحوك، أمام جمهور غفير. عوضًا عن حمل الصخرة إلى قمَّة الجبل، وجدتني أراقصها.

في الخارج، سيمفونيّة تُعزَف في المدينة: صراخُ نساء يلدن؛ زغردةُ أمَّهات؛ أصواتُ سيّارات الإسعاف والباصات؛ لعلعة رصاص؛ دويُّ قنابل؛ شتائم؛ بكاء طويل؛ ضحك عالٍ؛ هتاف مظاهرات؛ جنازات؛ أجساد ملفوفة بالعلم تخرج من المستشفيات؛ أذان جوامع، أجراس كنائس؛ أناس خارجون من الصلاة؛ أناس داخلون إلى البارات.

شعرت بطاقة غريبة للقفز من السرير، والتشرُّد في الشوارع، أدخِّن السجائر وأقرأ الكتب. سأعيش على قارعة الطريق، ولن أندم. لن أركع؛ لن أخجل؛ لن أصمت. سأظلّ أصرخ في قفصي اللعين،

وحيدًا، تائهًا بالأسئلة والألغاز التي لا أجوبة لها: ما هذا الغموض؟ أين اختفت صديقتي رهف؟ كيف قمت بتلك العمليّة، وأنا في قمّة لامبالاتي وعبثيّتي؟ ما علاقة البومة بالأحداث الغريبة التي وقعت في رام الله؟ وسأظلّ محافظًا على أشيائي: حيرة الأسئلة؛ إثارة السخرية؛ إطلاق الشتائم؛ إشعال السجائر؛ ادّعاء اللامبالاة، ومداعبة العبث.

كانت الممرِّضة جميلة ومثيرة، قلت للدكتور: نيّالك، لديك ممرِّضة تفلق الصخر. قال لي ضاحكًا، متجاهلًا حديثي عن الممرِّضة: «أنت محظوظ، سنتمتر واحد أنقذك، وإلّا لكانت الإصابة مباشرة في القلب». قلت له: «لا أدري، إن كنت فعلًا محظوظًا أو سيِّئَ الحظّ، لقد اختلط عليّ الأمر».

ورحت أضحك...

النهاية

مكتبة
t.me/t_pdf

مكتبة على فيسبوك الحديقة

facebook.com/make.read.easy

تصميم الغلاف: نجاح طاهر

لماذا شوبنهاور؟ ليسَ لأنّه قرّر أن يُمْضي الحياة في مُحاولة فهمِها، ولا لأنّه يستمتع بالعُزلة ليعرفَ قيمَة الحرِّيَّة – فحياة الوَحدة، كما كانَ يردّد دومًا، هي مَصيرُ كلّ الأرواح العَظيمة –؛ ليسَ لأجل هذا كلّه، بل لأنّ نوحَ، الذي حوّل تنظير شوبنهاور إلى واقعٍ في حياتِه قبل أن يقرأه، كانَ يضعُ كتابًا لشوبنهاور بالصدفة المَحضة تَحت رأسه كوسادَة أثيرة، حينَ كانَ البَرد يلسعُ جسده المسجّى على رصيفِ الشارِع الخلفيّ للمَطعم الشعبيّ؛ المَطعم الذي يجلي فيه قَلبَه مع الصحون، والشارع الذي يُراكِم البردَ الأسود فوقَ قلبه الإسفنجة.

تَحتَ سماءِ "بقايا فلسطين" تشتبِكُ المآسي بالضَّحك المالِح، والعَرَقِ الأزرق، ورغوَةِ الصابون، وبساطيرِ الجُنود، واختِلاطِ مفاهيم الأرصِفة والأسرَّة، والهواء والأغطية، ليُشكِّل هذا كلُّه سماءً جديدةً "لا تُرى إلّا بالظّنّ".

في مشهدٍ رأسيّ – من الأسفَل – مختَلَط من الكوميديا والتراجيديا، ومن الغرائبيّة والعوالم المتخيَّلة، يَعبُرُ نوحٍ هوّة المُدنِ. يضعُ سماءَها المُفتعَلة في صحنٍ واسِع، ويمسِكُ بالسكّين والقلم!

محمَّد جبعيتي: كاتب فلسطينيٌّ، من مواليد 1993. صدرت له روايتان: "المهزلة" و"رجل واحد لأكثر من موت".

ISBN: 978-9953-89-609-0
9789953896090
دار الآداب